

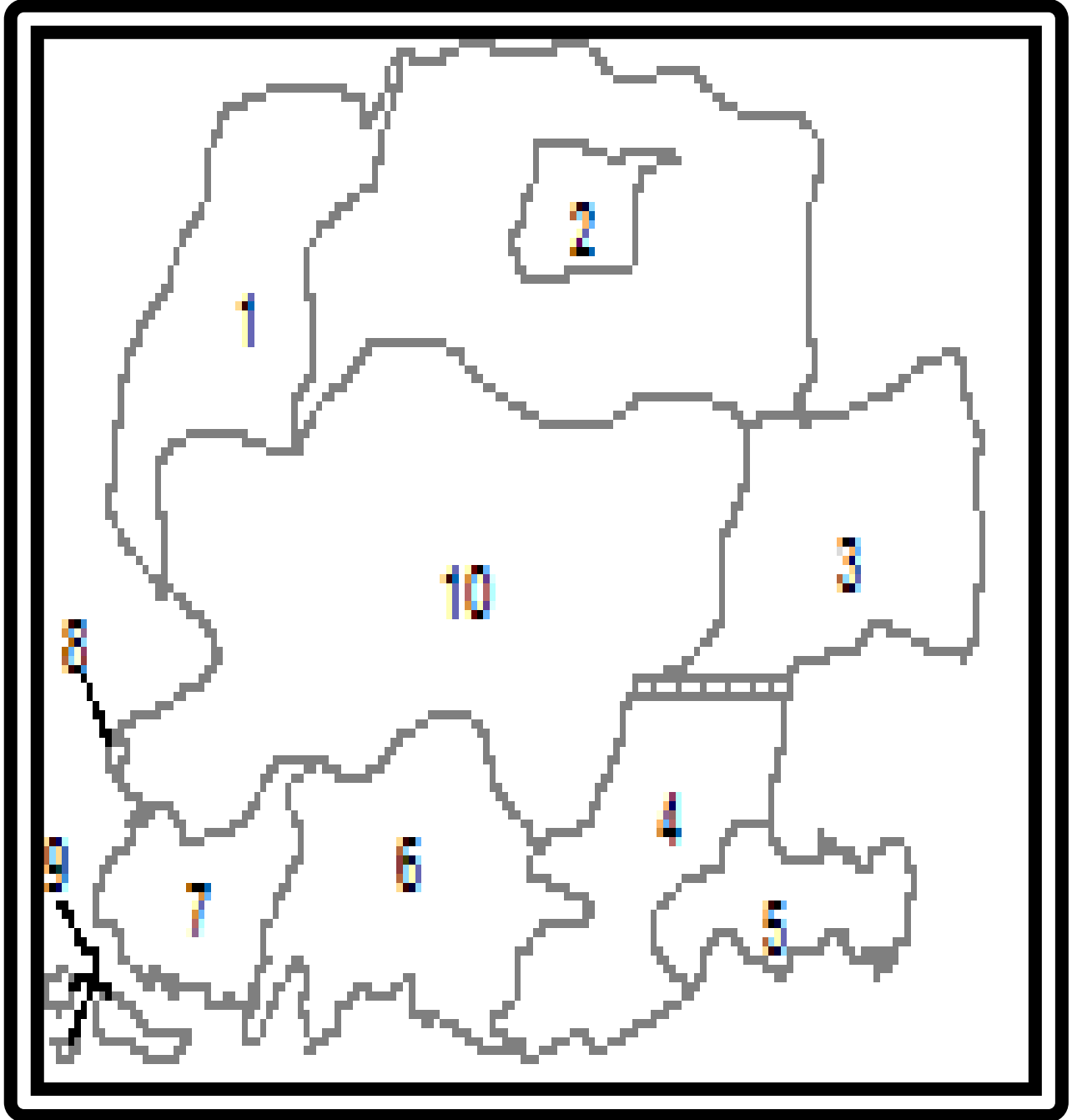
آخر

القارات:

[نهاية حقبة]. ج 1

أول عمل من طرف المؤلف المبتدئ: محمد ضواضي

خريطة قارة "آسرا":



(رسم الكاتب)

- 1- سيميريا الغربية (آل سيمر).
- 2- الويلات (آل حيان).
- 3- سيميريا الشرقية (آل وائل).
- 4- سكورم (آل جندل).
- 5- الأخضر واليابس (آل سيفر).
- 6- الجنوب الأقصى (آل نيبول).
- 7- النهضة (آل مروكي).
- 8- المملكة الفانية (آل آدم).
- 9- أرخبيل "بلاد الحمر".
- 10- المنطقة الوسطى.

الفصل الافتتاحي:

غراب أسود ينقر لحم طري ملتقطا قطعة لزجة
لجثة هامدة صاحبها فاغر فاهه وعيناه واسعتان، طرده
رجل أعور في عينه اللازوردية منتفخ بشكل قوي
يمسك زجاجة مستقيمة رفقة أربعة رجال مختلفي
القامة واللون وكذا أسلحتهم الصدئة.

طار الغراب ينعب لاعنا طارده وحلق إلى السماء
ترفرف جناحيه السوداويتان حيث تتسل الرياح بين
ريشه، اخترق السحب خالقا فجوة وعدل مساره للأمام
تدفئه أشعة الشمس. شمّ ملوحة البحر لينزل ثاقبا
السحابة البيضاء فتتقشع بارزة زرقاء مياه البحر الذي
يتلأل القرص البرتقالي بخيوطه الذهبية على صفحته.

عادة لا يتعب بهذه السرعة ولكن إثر حظيه وجبة
شهية من الجثة وحالا يمضغ أذنه، استحسن فور

رؤيته السفينة السوداء تزيّنهما خطوط حمراء عريضة في مختلف الحواف والحدافير، يقع أسفله ربّانها ذو الصدر العاري بفتح صدف يرقته يعتمر قبعة رمادية مستديرة ومنتفخة للأعلى عليها ريشة حمراء، ويرتدي رداء صوفي سميك يبلغ إلى قدميه.

حط الغراب فوق السارية يتفحص مثل الربّان الطريق أمامهم خالي وساكن، أخرج منظاره الخشبي فيه عدسة مربعة يغلب عليها اللون الأخضر والخذش، فتش عبرها ما حوالي السفينة ثم مدد المنظار لدرجتين يزيد نطاق نظره المصوّب للشمال الغربي.. ولم يرى ما في السماء، الغراب لاحظ من فيها.

اخترق السحب طيور بشرية لكن عوض الجناحين يستعملون خطاف في كلا وركبهم يقذفه حبل معقود معه، يتشبث الخطاف بأي شيء قد وُجّه نحوه كمخلب ذئب صانع بقع لتكسر الهدف، لاحظهم الربّان فصرخ بلغة مبهمّة لطاقمه يحذرهم من قدومه:

- موررركورز!!.

لغته خافتة خفيفة على اللسان، ولعله كان ينبّه رجاله عن الأشخاص فوق السماء يحومون حول السفينة التي ملئت خطاطيف تعين أصحابها على التحليق، حط واحد في مكان الغراب الفارّ بخفة يحلق عالياً، استعصت رؤيتهم كونهم يغطون أنفسهم بقلنسوة رمادية تغطي أجسادهم أيضا وعلى ظهورهم وردة سوداء متأكلة.

لم يبتعد الغراب عنه إذ لمحّه يستلّ سيفاً عريضا لازب متصل بعبوتي الخطافين بواسطة خيط

رفيع قصير، ولقبيعتي السيف زنادين ما إن يطأ إبهاماه
عليهما حتى يخرج الخطاف إلى حيث وجهه، كذلك فعل
موجهها خطافه الأيمن لحافة السفينة على يساره،
وبدون التأكد من تشبث الخطاف بهدفه وثب قاطعا
نصف دورة موجهها النصل ناحية جسم السفينة الشمالي
فمنحه ضربة عرضية من آخر السفينة إلى مقدمتها ثم
اندفع للأعلى معيدا خطافه فيما يطلق الآخر صوب
أعلى السارية حيث كان أنفا.

على نحو متفاوت في السرعة وشدة الضرر فعل
بقية الطيور البشرية حركته من جهات مختلفة سواء
من الجانبين أو فوق والتحت، لا يكاد الطاقم يتابعهم
جيّدا، أهلكوا السفينة بالضربات المتنوعة حتى انساب
إليها الماء يبتلعها رويدا رويدا وهي تهوي في حوض
أمواجه الصافية.

كان الغراب يرمق الربان الحانق يصيح غاضبا
وقد خطف نشابة من رجليه ليطلق السهم اللولبي
عشوائيا بلا تصويب سليم، ومع ذلك مرق بين الطيور
فوق منتصف السفينة فاستقرّ في ذراع الشخص الذي
على السارية ينزل معها غارقا غير أنه قفز مسددا
خطافيه اللذان اخترقا السحب وسمع صوت تقبيلهما
لحديدة فضغط زرا وسط المقبض ما بين القبيعتين
ليرتفع عائدا لخطافيه عوض أن يعودا له..

.. يطير الغراب لوحده لا يسمع جلبة السفينة
الغارقة تلطم المياه ولا حسّ الطيور البشرية تصدر
أزيزا عند الإطلاق وهسيسا عند التحليق، إنما تجاهل
خفقان جناحيه لاعتياده على الأمر، ضمهما ساقطا قصد

زيادة السرعة يتجه ليد عارية تخص رجل يعوم فوق لوح خشبي.

نسي الغراب ما حدث للتو فهو شاهد الحروب والنزالات والخianات أمام عينيه، ما حدث مجرد عمل اعتيادي أنعش ذاكرته مستذكرا آخر مرة دافعت الطيور عن القارة من الغزاة، لا أحد يقترب منها بلا إينهم، وفي ذهن الطائر تساؤل مريب نظرا لأن آخر مرة رأى فيها غازي كانت منذ خمسة عقود عاشها في رمشة عين بينما توفي والداه وجميع معارفه ما عداه هو الذي بقيت نفسه خالدة..

.. هذا التساؤل هو: {لما عاد أبناء البحر إلى قارتنا بعد كل هاته الفترة الطويلة.. بعدما خفقوا في غرس بذورهم هنا عدد مرات غزواتهم الجائحة؟!}.

الفصل الثاني:

تشرق الشمس بضيائها على معاذ، فتدخل خيوط أشعتها من النافذة المفتوحة تجاه مقلتيه. استيقظ وهو منكمش الوجه لا يدري أصباح هذا أم بريق النجوم وضوء القمر.

اتجه أولاً بعدما لبس ملابسه وقضى حوائجه إلى دكان ذلك الرجل الذي يستقبله كل يوم بحفاوة وسرور ليبيع له ما يحتاجه لفظوره. يدعى كريم لكن معاذ يطلق عليه "كُرَيْم" لشدة كرمه وحسن تعامله في البيع فلا يجد زبائنه أية مشكلة عند الشراء منه.

يستأنف سيره كالعادة نحو الصيد حيث يفضل
الابتعاد عن قرينه المملّة، فـ"سكورم" قليل ما يتجول
فيها أهلها إلا من حراس العدالة كما يسمونهم. يعتمد
في صيده على لوازم بدائية وأيضاً فرسه الهزيلة،
وينطلق بعد تناوله للفظور المتواضع لكونه وحيداً في
ذلك المنزل الكئيب الذي لا يساوي حجمه حتى زريبة
العجوز بان الشحيح المكروه.

عند وصوله للمنطقة المألوفة للصيد يحتاط جيداً
لئلا يخيف فريسته لأنها الطعام الأساسي حين عدم
توفره على القدرة الشرائية فيخزن ما اصطاده احتياطاً
أو يحاول ذلك. استغرب لغياب سواء الصيادين أو
الفرائس لذا همهم قائلاً:

- يا له من يوم مشؤوم!.

كلّ متن معانٍ وأصابه العياء بعد مرور فترة
طويلة، فذهب ليرتاح صوب شجرة عجوزة، اتكأ على
جذعها الخشن يلتقط أنفاسه باحثاً عن محفظته
الصغيرة من أجل شربة ماء، فما إن همّ برشف رشفة
حتى سمع ضحكات مجهولة المصدر يقترب صداها
فأسرع مختبئاً خلف جذع آخر، وترامى صوتهم
لمسامعه رويداً رويداً فقرّر عدم الهروب مخافة كشفه.

عند وصول ثلاثة رجال يمتطون خيولاً لا تشبه
القادمة من العاصمة بيضاء أو كستنائية عكس هذه
الدواب السوداء القاتمة، قدحت مقتربة من موضع معانٍ

السابق فنزل واحد ممن يمتطونها كاتما أنفاسه أثناء الهبوط، شعر أشهب ملامحه البيضاء المكفهرة بسودة التربة والوسخ، ذو بنية متوسطة تظهر ملابسه أنه ضمن المحترفين بالسيوف إذ يلفّ كمّاه مبرزا معصماه القويّان.

سأله أحد رفاقه التوأمان المتشابهان في كل شيء هاتفا:

- ما بالك يا زيد؟.. لا نملك اليوم برمّته.. علينا العودة سريعا إلى سيدنا لنخبره بوجود ذلك المعتوه في هاتاه القرية اللعينة.

لم يعره زيد ذرّة اهتمام غير أنه لمح حقيبة صغيرة ملقاة قرب الشجرة أثارت شكوكه فتساءل:

- لا يمكن لأحد نسيان أغراضه متناثرة هكذا في مثل هذا المكان!.

قال رفيقه الآخر صائحا:

- وما شأنك أنت كأنك رأيت طيفا؟.. هيا أسرع فلا يهمننا من الأمر شيئا.

لم يعرف معاند ما يفعله حيث ظل ساكنا وجبينه متعرق، ويداه مرتجفتان لا يستطيع المسكين تثبيتها، كما لم يتجرأ زيد على تفتيش الحقيبة أو أخذها مخافة ان تكون مصيدة أو صاحبها ذا شأن، فما رأى إلا العودة أدراجه إلى سيده.

انتظر معاذ حتى تواروا عن الأنظار ثم هرول
ملتقطا حقيبتة يلّم أغراضه ومنطلقا بسرعة كالريّاح
تجاه منزله قصد تدارك الأمر الجلل.

الفصل الثالث:

في الضفة الاخرى من نهر "قِرْم" عند اراضي زراعية يهوي رجل جبلي بفأسه على طرف من جذع شجرة ليقسمها الى نصفين، فهو نجار بارع كل سكان هذه المنطقة السهلية يشهدون بذلك. قام بصنع العديد من الأدوات اللازمة في الفلاحة ومشتقاتها أو الأدوات المنزلية المصنوعة من الخشب مهما كان نوعها، فهذه هي المهنة التي تعين أسرته وتسد حاجياتها.

في الواقع لا يعتمد جُلّ الفلاحون البسطاء على من يتكفل بهم من زعماء مدينة "سيميريا" التي تعاني نكوصا في مجالات شتى، وكذا إهمال قادتها لرعيتهم البريين الذين دافعوا عن حوزة وطنهم سنين عديدة عند كل اشتباك وصراع يتسبب به السادة الغافلين عن حالهم. كما دفع الفلاحون ثمن دخول بلادهم الحرب في معارك ليس لهم دخل فيها، فهَمّ أولئك المسؤولين هو هل جيوب شعبهم ممتلئة ليفرغوها. لهذا، قلّت روح المواطنة لدى الأهالي الفقراء، ولم يصبحوا يُقدّرون جهود دولتهم في حمايتهم منهم! ، لذلك يعملون بكسل وحقدا كبيرين ما عدا هذا الجبلي مازال يحافظ على حيويته في قطع جذوع الأشجار وجذور النباتات يقلعها بغرض صنع أدوات يبيعها لمن ينتفع بها.

وما إن رفع يده الممسكة بالفأس لكي يقطع الخشب حتى سمع صرخات ثلاثة حراس علي صهوة جيادهم البيضاء متجهين نحوه، يظهر من لباسهم الغير المدرع كبقية "حراس العدالة" أنهم قادمين من المدينة قد جاءوا لينشروا أوامر وولاتهم.

بدون ترحيب أو سلام استهل أحدهم خطابه باحتقار:

- فلتعلم أيها المزارع الفقير..

بصق على الارض فور نطقه لـ "فقير"، ثم استأنف محافظا على نبرته الرخيمة:

- بأن عصابة تيمور بدأت تنشط مؤخرا في ضواحي هذه المناطق... واي احد سيبلغنا عنهم سوف يكافأ على قدر خبره.

أشاح الجبلي وجهه عنهم مخاطبا نفسه: { كأنكم تبالون بنا}. وأكمل حانقا: { أذهبوا انتم وعصابة تيمور الى جحيم "تُدُورا"}، لكن بدا أن احد الحراس قد سمع هممته فقال بصوت ناشز:

- هيببي!.. أيها البائس، أكنت تهذي بشيء؟..

ردّ الجبلي بهدوء وسكينة:

- حسنا، سمعت خبركم واستوعبته جيدا.. اتركوني الان لحالي.

صاح فيه حارس لم يتكلم بعد:

- لقد سألك صديقي، أجبه!.. ماذا كنت تثرثر قبيل قليل؟..

أكمل الجبلي تقطيع الخشب بلا مبالاة مما اثار حفيظة السائل ليستل سيفه موجهها حزه نحو عنق الجبلي مخاطبا اياه:

- ألم يعلمك الفقر احترام اسيادك وصون فمك اليا بس؟..

رمقه الحارس بابتسامة خبيثة قبل ان يضيف ضاحكا:

- الان سأقطعه لك، من الأفضل ألا تتكلم بيديك لئلا
أفصلها عنك أيضا.

أحكم الجبلي قبضته على الفأس... {أبي!}.

أدى سماع صياح ابنته الصغيرة الى إسقاط فأسه،
وهمت الطفلة باحتضان فخذ أبيها غير أن يد حارس
أخر حالت بينهم فحملها اليه يحيط عنقها بذراعه
اليسرى وراح يهدد الاب بها، مما جعل الفتاة تقضم
إبهامه كتفاحة شهية:

- آرررخ! ايتها الحقيرة الصغيرة.. أقسم بأنني سأقتلك
انت وابوك... آآخ!!

أخرج الحارسان الباقيان سيفاهما من غمديهما،
أندفع أول من استل سيفه صوب الجبلي بغية طعنه في
خصره، فتمكن الأخير من تجنب الهجمة بالتنحي جانبا
من ثم الإمساك بمعصم خصمه فقام بثنيها للخلف ليفلت
الحارس كرها سيفه واقعا على الارض كحامله الذي
دفعه الجبلي بعيدا عن ساحة النزال، ولاح من بعيد
جسده يعانق بقعة ارض خاصة بزراعة السنابل. هدده
الثاني بابنته يمسك شعرها الكستنائي المعقود للوراء،
فقاطعه الجبلي لما قال الحارس:

- تعال معنا وإلا..

- قاتلني رجلا لرجل ودعك من هذه الطريقة المخزية..
يا ترى من هو البائس الحقيير هنا؟

شعر الحارس بالإهانة ففعل تماما ما شاءه الجبلي
اذ ترك الفتاة وشانها ثم ضغط على مقبض سيفه بكتا
يديه فلوح به في السماء وهوى على رأس صديقه
حينما تفادى خصمه الضربة، لكن الخوذة المعدنية
المستديرة حمت رأس زميله. زمجر الحارس غاضبا
ودار بخفة مسددا ضربة في اسفل ابط الجبلي، فلكانت
اخترقت اضلعه لولا امسك الاخير لرسغ المهاجم من
ثم أسقط السيف بركبته ليكتم الخد الايسر بقوة افقدت
توازن الحارس.

على نحو مباغت جرّ الذي عضته الفتاة الجبلي
للوراء مخرجا قدمه في طريقه ليتعثر الجبلي بها
فيخبط ظهره الارض خبطا وعندما اسرع واقفا تلقى
قبضة مكورة في بطنه بينما هرول الذي ضرب في خده
الى ضاربه بعدما التقط السيف من على الارض ووضع
نصله على عنق الجبلي قائلا والدم يسيل من فمه فعدت
اسنانه حمراء قانية:

- انتهت مهزلتك وسترى عاقبة اي قروي متمرد.

بعدها ركل بطنه فجثى الجبلي على ركبتيه مضطرا
واخر شيء رآه السماء ملبدة بالغيوم قبل أن يضربه
احدهم بمقبض سيفه تجاه عنقه ففقد وعيه تماما.

فرت ابنته الى ان اوقفتها أمها قائلة بحنان:

- ما الذي جرى يا حبيبتي .. اين ابوك؟!.

اشارت الطفلة بسبابتها الى حيث يقف الحراس
محلقيين حول جسد الجبلي الممدد على الارض كجثة
هامدة، فصرخت زوجته مخاطبتهم:

- أتركوووه! .. جنود انتم أم مرتزقة؟..

حملوه على متن الجواد وانطلقوا به الى حيثما
شاعت به الاقدار تاركين أسرته جاثية تبكي بحرقه.

الفصل الرابع:

غلب ضوء الشمس الساطع على المكان الذي
يتواجد فيه معاذ: { ما هذا المكان، أراضي شاسعة.. لا،
لا يمكن ان يكون مجددا ذلك الحل... }..

ظهر فجأة رجل طاعن في السن ليخرجه من تفكيره، كان قوي البنية ويحمل في يسراه سيفاً طويلاً، نصله منقوش بزخرفة لم يُرى مثلها على الإطلاق.

بدون كلام أو سلام رفع سيفه بكتا يديه وأطبق به على الأرض، تراجع معاذ للوراء وقد تملكه الخوف، فهذه المرة أصبح الحلم قاتلاً.

رفع العجوز سيفه موجهاً إياه صوب معاذ، لكن عوض ضربه قذفه نحوه فارتبك الآخر وظل جامداً في مكانه إذ مرّ النصل على بنت شفة من جانب عنقه ليستقرّ في جذع شجرة، وعلّق العجوز قائلاً:

- أصبحت واثقاً من نفسك.

كان صوته كهزيم الرعد مخيف ويتخلله حشرجة، فردّ معاذ متهمكماً:

- أخيراً، تحدثت يا فارس أحلامي.. يا الله بما ابتليت!

بعد مدّة وجيزة تفاجأ معاذ لما عرف أنه يحمل سيفاً مزخرفاً بنقوش عريضة ومديدة رأى الكثير مثلها:

- عصا! أتريد تدريبي بسيف خشبي؟!!

وأكمل بنبرات سريعة:

- اسمع يا هذا، هل هذه حالة محارب؟.. على الأقل انظر ليدي الهشتين، وأعطني مهلة شهرين أكل فيها كمية لا

بأس بها من العسل ولحم مشوي مع دجاج مقرمش
عندئذ سأتي بنفسي اليك.. ما رأي...

أراد إكمال مجاملته غير ان ذلك الصوت البشع
غلب علي صوته الرخو:
-قاتل، قاتله..

من سأقاتل.. من سيتكرم علي ليعطيني فرصة نزاله؟
لما حاول إكمال ثرثرته قاطعه الصوت مجددا:

- قاتل، قاتل!!

- من... أتختبر صبري؟

بدا على الكائن قليل من الغضب، وما إن همّ معاذ
باستئناف كلامه حتى اختفى العجوز ثم ظهر على نحو
مباغت أمامه يصرخ في وجهه وشعريهما يتطايران:
-قاتل الظلال التي فيك.

انتهى الصوت كصدى تردد في اعماق بُر،
واستيقظ معاذ وسط ظلمة الليل الحالكة تغشى خيوط
شمعة فوق منضدة قرب سريره. سمع ثلاث طرقات في
الباب متتالية، والرابعة كانت ركلة للباب، ودخل ستة
من الجنود وأمسكوا به، وصاح فيه واحد منهم:

- هل تحاول الإفلات من الخدمة العس..

- أية خدمة؟، انا كنت نائم وحسب.

وزفر ذلك الجندي قائلا بحنق:

- لا تقاطعني حتى لا اجعلك سائس خيلي.

ثم قادوه الى ساحة القرية وفيه حشد كبير من الشباب يناهزوناه او يكبرونه في العمر مصطفين بمواجهة كوكبة من الفرسان المدرعين وعليهم شارات شعار "آل سيمر" فتقدمهم اوسطهم يظهر من شكله وأناقة بزّته انه هو القائد بلا شك، وخطب فيهم محفزا:

- يا شبان اهالي "سكورم"، انتم الجنود المظفرين بعد تدريبكم بالطبع.

قال أحد هؤلاء الشبان:

- سيدي، اخبرنا عن سبب هذا التجنيد المفاجئ، فنحن لسنا في حرب حفظنا الله منها.

تعاليت صيحات وهمهمات الناس أجمعين سواء الشبان او بقية سكان القرية الحائمين حولهم ما عدا معاذ الذي ظل ساكنا ومهموما يبدي همه في ملامحه المحبطة، ومحاذاة لعلو أصوات الاهالي ارتفعت صيحات الجنود يسبون ويخرسونهم، فقال جندي غير راكب وهو يزعق فيهم:

- صمّتا! استحيوا من سيديكم وهو يخاطبكم.. انتم لا تستحقون الخدمة العسكرية بل السجن افضل لكم.

أشار اليه القائد بالصمت وحينما نطق اول حرف
عمّ السكون المكان فقال بهدوء:

- أعلم ألمكم جيّداً، كلّنا نعاني من اوضاع مادية قاسية،
ولكن.. إصراركم هذا على العناد هو ما سيجعل دولتنا
في حالة يرثيها الشعراء والحاquidين.

قال ذلك الشاب:

- أو الشعراء الحاquidين.

-سليم، تذكر هذا سيكون في الصفوف الاولية اظنه
شجاع حقاً

أماء ذلك الجندي الغير الراكب موافقا، ثم أخرج
القائد سيفه من غمده ولوحّ به في السماء وقال محققاً
في أعين الشبان المرتعشين والثابتين والغير العابئين
واحدًا تلو الآخر:

- الآن بعدما قدمت لكم دولتكم الكثير، حان وقت ردّ
الجميل.. كونوا رجال ليوم واحدًا بحق الله وتحلّوا
بإيمان العجزة.

وكز حصانه منطلقاً به وعائداً أدراجه، فتبعه الجنود
تترا. انصرف الناس واستطاع معاذ رؤية كُريم فاتاه
الاخير مندهشاً وناطقاً:

- أنت كذلك اختاروك.

قهقهه وجسده يهتز فيما قال معاذ بخفوت:

- لم يختاروني كما لم أختار انا نفسي.. كيف يعقل ان
اقاتل في حرب لا تعني لي اصلا شيئاً.. لماذا سادافع
عن اشخاص لا يعرفون ان كنت موجودا ولن يهتموا
ان كنت كذلك؟.

رَبَّتْ عَلَى كَتْفِهِ بِلُطْفٍ وَقَالَ بِوَجْهِهِ بِشَوْشٍ:

- لا تقلق، سوف تتعلم القتال بسهولة.. أوكد لك،
ويمكنك تأجير مدرب من القرية.. أنصحك بسهولة إنه
الروعة بعينها.

- لا أبتغي القتال او احبه.

- و هل هناك من يعيشه سوى الحمقى و القتلة
الساديون.

نظر معاذ صوبه ناطقا بصوت مريـر:

- القتال هو الذي نعيشه في هذه الحياة القصيرة.

قال كلماته بقلب محطم وترك كُريم هو الآخر متألماً
لما سمعه ومنصدم من حمرة عينا معاذ، وقال مشفقاً:

- مسكين!.. تشبه قطي الحزين الذي يرفض الاكل او
الشرب.. ترى ماذا افعل مع هذا الحيوان؟.

الفصل الخامس:

(بغ، بغ، بغ، بغ...) أخرجته حارس من دلو الماء البارد جدًا، استنشق الجبلي ما تبقى من الهواء في الزنزانة المظلمة. ثم حضر رجل يبدو بفعل توقيف الحارس له أنه هو القائد لهذه المجموعة الصغيرة الخاصة بمراقبة محيط خارج المدينة، برفع يده اليمنى

أمرهم أن يضعوا الجبلي على كرسي خشبي أسرعوا
في إحضاره من ثم انصرفوا وظلا الاثنان يحدجان
بعضهما البعض الواقف في اشمنزاز والجالس في
ترقب.

عقد القائد يديه قائلا:

- ها نحن ذا.. الحياة قاسية، أليس كذلك؟

لم يجب الجبلي وإنما صكّ أسنانه إثر البرودة
السارية في أوصال جسمه المتفصّد عرقا وقد ألبسوه
ثيابا بالية فقرفص الرجل دانيا من وجهه الممتلئ
بكدمات زرقاء وبتفت أصابعه اللحية الكثيفة ليقول:

- اسمع كلامي بامعان.. سأقدم لك عرضا مغريا لك
ولعائلتك.

- عائلتي! ! أين هم؟.

لا تقلق هم معنا في أمان، لكنهم لن يبقوا كذلك دائما إن
لم تقبل بعرضي.

نطق الجبلي كلماته يضغط على كل حرف مهددا:

- إياك وأن تمس شعرة منهم..

- ششششش! أطمأن، انا لست حقير لهذه الدرجة فلدي
عائلة أيضا وإلا لم أكن هنا مثلك.. أما هؤلاء
الحراس...

صمت لحظة ريثما يوجه نظره الى خارج الزنزانة
ليردف :

- ليس لهم أحد وأنت لا تريدهم أن.. تعرف ما سيحدث
لأسرتك إن رفضت الامر وارسلت اليهم هؤلاء..

- هل احضرت عائلتي كلها أم فقط اسرتي؟

- اسرتك فحسب..

تنهد الجبلي بشبه أريحية فحتى احضار أسرته
الصغيرة يعد امر خطير، استقام القائد عائدا الى عقد
ذراعيه معا زافرا:

- ما نريدك فعله سوى أن تكون جاسوس مطيع وبضع
معلومات مفيدة.. يمكنك توديع اسرتك في المساء،
وغدا ستحظى برحلة ممتعة على حسابنا.

ورسم شبح ابتسامة قابلها الجبلي مطأطأ راسه في
استسلام وقائلا بنبرة مضطر:

- قل أين سأذهب؟ يجب ان اعرف..

أماء القائد براسه نفيا قائلا:

- لا، لا، لا، لا... لا داعي لذلك.. المهم الذي ستعرفه هو
صون فمك وعدم إفشاء أمرنا لأي كان.

ولمّا اردا المغادرة استوقف نفسه نصف ملتفت
ليقول كأنه تذكر لتوه شيئا وهو يحرق في السقف
المهترئ:

- آاه، اخترتك نظرا لحجمك ومهارتك في النجارة
وصدقني لم يكن ذلك مخطط له.

تردد الجبلي في الكلام ليستقر في اخر المطاف عند
قول:

- لما لم تعطوا المهمة لشخص ليس له أحد يفكر فيه؟

حافظ القائد على نفس الابتسامة مع بصيص ملامح
الانزعاج، ثم أجاب بخفوت:

- لأنه ببساطة رجالي كانوا يريدون الاستمتاع بك
وبأسرتك.. فحريّ لك ان تشكرني.

قالها الجبلي سرا: " تبا لك ولأمثالك".

قاداه حارسان اقل ضخامة منه الى مكان اسرته
وتركاه معهم على انفراد فيما يقفان في مدخل الغرفة
الكئيبة من منظرها وحلكة ظلمتها غير ان الابنة
الوحيدة للجبلي فطنت لشكله مما ارتمت الى احضانه
فتبعها امها ببطء وحذر شديدين.

كانت الام قد استقصت على خبره من قبل فلم
يجيبوها لذا استهلت حديثها قائلة بهدوء امتزج مع
الفضول فكّون هلعا مكتوم:

- كيف حالك يا نجيب.. هل أدوك؟

ردّ مغتصبا ابتسامة:

- بخير يا..

شهِقَ ثَم سَقَطَ مِنْ شِدَّةِ الإِعْيَاءِ وَحَمَلَتَهُ زَوْجَتُهُ
بَشَقِ الأنْفَسِ إِلَى سَرِيرِ قَضَتْ فِيهِ لَيْلَتَهَا رَفَقَةً ابْنَتَهَا
وَصَبَّتْ لَهُ كَأْسًا مِنَ المَاءِ تُرِكَ لَهُمْ أَيْضًا فَأَشَارَ بِيَدِهِ
رَافِضًا إِيَّاهُ لِيَتِمَّتْ:

- هل اخبروك بائي سأغادر غدا؟.

- الى اين الى اين سيأخذك هؤلاء الملاعين؟!!

- يريدون مني.. طلبوا مني تأدية مهمة لا اعرف اولها
من اخرها.

استمر في تجنب الجواب عن اسئلتها المتكررة
ففهمت أنه يقصد ذلك مما أثار شكوكها وزاد من
غضبها لذلك اطبقت يداها على صدغيه هامسة في
حنق:

- هيا تنشق الهواء واخبرني بوجهتك او ماهي مهمتك
.. اعلم انهم اطلعوك كل شيء.. ارجوك اخبرني ما
تعلمه من اجل ابنتك المسكينة التي...

قاطعها متجاهلا مجددا:

- كأنهم لم يكفهم ما عانيناه وهاهم يضيفوا لي هذه...

بتر عبارته امام صرخة زوجته المدوية قائلة:

- قل! أين، يا نجيب.. اين؟.

حينما رأى في عينيها الهيجان والثوران انصاع
لرغبتها في المعرفة لكن بمعلومات مبهمة قال:

- إلى.. إلى المجهوووول!.

الفصل السادس:

وصل الى العاصمة قائد الدورية المكلف بتجنيد جميع شبان القرى، كان رجل فاق الاربعين سنة أشيب الشعر والذقن لكن حليق اللحية، رأس دائري وعينان سوداويتان تنتثران الرعب عندما تقابل من ليسوا ذووا قيمة.

فُتحت بوابة القصر على مصراع واحد حتى دلف فاغلق محدثا دويًا تردد صداه الى الأعلى. بلغ قائد الدورية الى باب واسع عريض يقف في جانبيه حارسان فارعا القامة ونحيفان كلاهما يحملان رمحا

حاد النصل وترسا صاب المعدن، لم ينتظر منهما فتح الباب حيث وقف قبالبه ونقر بحدائه المظلي بالفضة لوحا موضعا على عتبته فتحرك من بالداخل لفتح الباب دون احداث ولو صرير خافت.

وجد الملك منشغل مع مستشاريه ويبدو غاضبا من سحنته ومضجر جدا، اقترب من أب عائلة "سيمر" ثم انحنى له بوقار فاتجهت عينا الاخير الى الغرفة المعتادة حيث يتناقشون سرا ففهم القائد إذ اتجه شمال العرش {الخشبي} فقد طلي بالأصفر حتى بدى كالذهب الخالص، وكان من المستطاع صنعه كاملا من الذهب أو الحديد لكن بخل الملك غلب على حب التأنق.

دلف قائد الدورية الغرفة المغطاة بستار أزرق يبرق كالنجوم المتلألئة وهي محرمة على الجميع ماعدا هو والملك. استقبلته طاولة خشبية متقنة الصنع والنقش وُضع عليها سلة شتّى الفواكه واواني تزخر بالعصائر والنبيد المحلى. أخذ كاسا فضي ملون بالذهب كالعادة وسكب شرابا يحضرونه من "إرّم" مدينة السوائل فيها ألذ المشروبات وأحلى العصائر.

أثناء سهوه في الشرب وافاه الملك ذو القامة القصيرة والبشرة البيضاء يشوبها اصفرار، يرتدي بزّة حمراء مفتوحة مطرزة بخطوط ذهبية وفوق راسه يستقر تاجا مربع الشكل لكنه هذه المرة ذهبي حقيقي. فبعد انتهاءه من قضايا الدولة وأمر مستشاريه وجميع

الجنود حتى حراسه الشخصيين المخضرمين
بالانصراف خارج قاعة العرش الملكي المصنوع على
هيئة شجرة فارعة الطول وارفة الظل يصل مداه عنان
السقف البديع النقوش والزركشة.

نهض قائد الدورية على مضض فأحنى رأسه في
احترام واستقبل يدا الملك تمسك كلا كتفيه وكذا نبرته
التي تشي تلهفه للمعرفة حيث قال:

- ماذا .. ماذا حدث بالتفصيل؟

عيناه كادتتا تخرج من مكانيهما لشدة رغبته في
معرفة كل شأنة او فذة تخص مسألة التجنيد الإجباري،
أجابه القائد بمرارة أخفق في إخفاءها:

- سيدي، جميع القرى قبلوا الخدمة العسكرية بصدر
رحب و.. "سكورم" قريبا ستقبل، أعدك!.

- ماذا تعني ب"ستقبل"، إن لم يقبلوا فسوطي هو من
سيقتعهم.. آاه، آه!

ركل أسفل الطاولة بعنف عبر خفه الناعم لذلك
صرخ متألما وسرعان ما اجهد نفسه على نسيان ذلك
ليعود مجددا الى الكلام بنفس طريقته المتسرعة:

- حسنا، حسنا.. ورجال الدين كلهم قبلوا الذهاب مع
قومهم.

- نعم، سيدي.. بالإضافة الى انهم يحرضوا الناس على خوض التدريبات والقتال في صفنا.

- كلهم؟!!

طأطأ قائد الدورية راسه وتحدث مصدرا صوتا خفيف مرتعد:

- إلا واحد يا مولاي، وأيضا قريبا سيقبل.

- سحقا! قريبا، قريبا.. ليس لدينا وقت لهذا.. يجدر بنا الاسراع وارسالهم باكرا.

استغرب القائد متسائلا:

- نرسلهم!.. أن نقودهم؟

قهقه الملك ليحييه ساخرا:

- تريد من الموت بلا شك.. هاهاها!

ثم التقط تفاحة حمراء قانية وافترسها يقضمها دون رحمة فيما يضحك عاليا بقم مملوء، من ثم استأنف حديثه بعد رمي التفاحة على الارض:

- أصغي الي، كلامنا هذا لن يخرج من هنا.. مفهوم!

كانت اخر كلمته جدية بدت جأيا في عينيه الجاحظتان فابث غير بعيد حتى تحولت ملامحه الى الغير المبالية والساخرة، اوما له القائد خلال حديثه موافقا وأردف الملك قائلا:

- وكذلك غدا، نعم غدا.. اذهب لذلك المتدين وأقنعه بالعدول عن عادته حتى لا يقحمنا في مشكلة أخرى ويكون مصيرهم كتلك القرية المخالفة لأوامري.. لا يهمنا اصل قرية سكورم او حاميتها ما أكثرت له هو تحقيق مرادي ..أنا الملك إسحاق بن عاوز لا اخشى احد كأجدادي العظماء.. او على الاقل ابي وجدي اما الاخرين من يبال بهم.

أشاح الملك إسحاق وجهه عن القائد مكملا كلامه بينما يضغط على اسنانه والآخر يصغي جيدا، تفوه الملك قائلا:

- حياتي أضعتها في نيل رضى الشعب ونسيت رضى الله.. لهذا يا محفوظ المطيع أردت السير في هذه المهمة المباركة لاستعادة ما هو ملكنا.. سيعتقد الناس في الاول اني استغلهم، ولكن سيقبلون راسي واصابع قدمي فيما بعد حينما يدرون النعمة التي قدمتها لهم، أليس كذلك؟

ابتسم قائد الدورية مكونا شرارة في عيناه سلطت من طرف الموقد المتواجد قربهم ثم قال ببرودة:

- بلى جلالتك!، أمرك طاعة.. ائذن لي بالانصراف فلدي امر مهم يجب ان اقضيه حالا.. واعتذر على عدم إرضائك في ما وكتته الي.

قال الملك مازحا كأنه مندهش:

- أهيا، امر بالغ الاهمية من المسألة التي كنا نتناقش حولها.. انا ملكك اخبرني به.

- مجرد مواطن مشاكس لا تزعج به راحتك فلا يستحق ، يا سيدي ولم اقل انه بالغ الاهمية فيمكن تأجيله اذا وددت.

- هيا، اذهب لهذا الامر الالهم من مسالتنا.

- لا، سيد...

قاطعته الملك مبتسما:

- لا عليك، لقد مزحتك فقط.. فلترافك السلامة يا "ملهام" هاهاهاااخ!.

انصرف محفوظ بضحكة خافتة شيطانية تغطي محياه فيما ظل الملك يشذب ذقنه المتوفر على شعيرات سوداء تعد على الاصابع. نادى خادمه بينما هو خارج من الغرفة فاتاه مهرولا وهمس في أذنيه:

- تتكر كتاجر حبوب عند سكورم وأفعل ما يوجد في هذه الورقة.

- حاضر!

لم يطلب منه فتح الورقة حتى يبلغ القرية فانطلق على صهوة جواد سريع قُدم له وخرج من باب المدينة البرونزي الضخم والمتخذ لونا احمرافى منتصفه دوائر سوداء متعددة، ركض بأقصى سرعة يمتلكها

الجواد، لكن الورقة المثنية الى اربع انفلتت من جيب
سرواله فسقطت على طريق المار من باب المدينة.

بُعِيدَ ذلِكَ اوقف عجز حماره والتقط الورقة
فقرأها فلم يفهم ولا حرف واحد غير انه اوشك على
التخلص منها لولا ان استعره شعار عائلة "سيمر"
المختوم في جانب فارغ مما جعله يخفيها داخل كفه
مبتسما كانه حاز على صيد ثمين وأكمل سيره قاصدا
المدينة تحت ضوء أشعة الشمس الحارقة.

الفصل السابع:

أمتطى نجيب خيله مع بزوغ الفجر منطلقا كالمسهم نحو هدفه، كان يعرف أنه سيكون نجارا في "أسيران" المقاطعة التابعة لمملكة الويلات ولا يعرف سبب ذهابه فهذا فقط ما طلبوه منه .

وصل بعد عذو طويل الى المكان المنشود، دخل من بوابة المدينة المهيبة، وراح يتأمل مساطا عيناه على اي شبر إذ لم يعتد مشاهدة مناطق مبهرة كهذه وبنائيات ضخمة جميعها مطلية بالأزرق وهو اللون المعتمد من

طرف المملكة من الجنود والراية التي في منتصفها قرش ضخم ذهبي كرمز فخر لقوتهم في البحار.

شاهد كذلك الأسوار الزرقاء الباهتة والعالية المنيعة لا تخلو من حارس يرتدي بذلة بلون اللازورد وشعار عائلة آل حيان في صدورهم المنتفخة، كما فغر فاهه لحال السكان حيث الكل يبدو بأفضل مظهر وأنضر وجه وأرقى ملابس يغلب عليها الطابع الأزرق الحريري، وعلى عكس جنود المدينة الذين يجوبون شوارعها لتوفير الأمن ويرتدون خوذات معوجة حتى تتخذ شكل رأس القرش بقم مفتوح يظهر النصف السفلي للوجه فإن الناس يرتدون قلنسوة رمادية يغطي السواد عليها لتشبه الامواج العاتية في ليلة حالكة وعاصفة.

كاد أن يتوه في الطرقات والازقة الملتوية المضيئة خالية من المجموعات الصغيرة لعصابات المدينة المختبئين في المناطق الضيقة كجل المدن في القارة وقد نبهه شخص بالحذر من اللصوص والنشابين فاستغرب قائلاً:

- لا اظن هذه المدينة تحتوي على هؤلاء.

فأجابه بشفقة تبرز في ملامحه:

- المظاهر خداعة، يا بني.

بلغ الى منطقة المهنيين المتواجدين بعيدا عن السوق المركزي الذي هو بعيد عن القصر الملكي.

هناك وجد محلاً مغلقاً بعدة أقفال حمراء نظراً لتصديها
وهكذا أخبروه عن شكل المحل المهجور. أخرج مفتاح
أعطاه ذلك الرجل له، فتح به الأقفال بصعوبة تامة
والقاهم جانباً ليتذكر أنّ عليه ألا يثير الريبة عندئذ حمل
الأقفال إلى الداخل وأغلق الباب بهدوء أفسده صريره
المزعج.

المحل ملئ بالغبار ولو أنه ترك للباب مفتوح
لطرده لذا أسرع يفتحه مجدداً حتى غزت الرياح
المعوية المحل وخلقت دوامة سرعان ما تلاشت، ولم
يكن نجيب واقفاً يتفرج في المشهد بل طفق يفرغ
المكان من كل شيء واستبدل الأغراض القديمة
المخرومة بأخرى جديدة قُدمت له كيلا يعتقد زبائنه أنه
قدم من القرى الصغيرة المعزولة لنقص خبرة الحرفيين
فيها..

- هل من احد هنا؟

رفع راسه نحو مصدر الصوت الأجهش ففطن انه
قد يكون زبونه الاول، انطلق خارجاً اليه وبكلمات
موزونة توازي النبرة الجديّة ردّ عليه:

- كيف اخدمك سيدي؟

- لديّ مشكلة مع أحد الأبواب في منزلي.. لو وددت
الذهاب معي لإصلاحه، ولا تقلق سأعطيك الثمن الذي

تريده ما عليك سوى ان تصبر معي لدفع اجرِك..
ما ايك؟

- أممم!، لا بأس بهذا سوف اذهب معك إن وجدت
وقتا فعلي البدء بالعمل قليلا هنا.. اظن بعد الظهيرة هو
توقيت مناسب.

ردّ الرجل بملامح غير راضية:

- افضل الذهاب الآن.

- آسف، لا أستطيع ينبغي قضاء حوائج الذين هنا أولا.

- لم أرى اي شخص يأتي اليك.

- لأنني لتوي.. لتوي فتحت المحل يعني انطلقت في
العمل اي بدأت نهاري.. لا أقصد انني جديد هنا بل...

قاطعته الزبون السمين ذو الوجه الدائري والحيحة
القصيرة المتباعدة الكستنائية تثبت من اذن الى اخرى،
فقال:

ف- همت قصدك.. حسنا ماذا عن المساء؟.. اريد ان
يكون العمل باكرا وسريعا والعملية لن تتطلب منك وقتا
طويلا.. سأكون ممتنا اذا قبلت بالمساء قبيل الغروب
بساعة تقريبا.

أجابه مبتسما:

- كل شيء من اجل راحة زبائني.

نطقها وهو يربت على كتف الزبون الذي غادر
باديا على محياه الإحباط والحزن، أما نجيب فلم يتنبه
لذلك فركز على علمه إذ أمسك مطرقة مصقولة
ودورها بيده ليتأمل بريقها اللامع ثم التقط مسمارا
فأعطاه ضربة خفيفة أعقبها ضربات قوية ليدخله في
لوحة خشبية، كذلك فعل مع البقية.

بعد برهة سمع ضجيجا وهتافا عاليا غير مفهوم
باسم شخص وركض الناس صوب مكان معين عبر
نعالمهم وخفافهم تقدح الارض، قال في قرارة نفسه: "
الآن بدأ عملي".

هو الآخر تبعهم مهرولا ومقتحما الزحام الخانق
تتلقى انباه الزعيق والصياح كأن ناس تحولوا من
لباقتهم ووقارهم الى همج او جياح يتقاتلون على
الطعام كما تتصارع الناس حالا على رؤية موكب الملك
وهذا ما سمعه نجيب من عجوز تصيح:

- دعوني امر لأراه بأعيناي.. فقد بلغت من العمر
عتيا ولم احظى بشرف رؤيته.

وكانت اخر كلماته تلفظها بخفوت غير انه
استرق السمع واقفا خلفها بعدما اندفع اهل المدينة
للساحة المركزية التي يشق طريق معبد بالأسفلت
وعبره سيمر الموكب. اندفع هو الآخر يعصر جسده
ليبلغ الى الصف الامامي المواجه للطريق حيث شكلوا
تجمهر عظيم يمتد للأفق وصف من الجنود يقف امام

الجماهير الغفيرة ويحملون رماح بجوار تروسهم
المعدنية الدائرية النصف زرقاء والنصف بيضاء.

كان لزاما عليه ان يأخذ معلومات عن العائلة
الحاكمة لا سيما شكلهم وعددهم رغم أنه يخال ذلك
غير ضروري لكن اللهم هذا او لا شيء، ولسوء حظه
كل القادمين يقبعون داخل عربتين بديعتا الشكل كأنهما
قرشان لهما اربعة عجلات صلبة وفوق مقدمتي
راسيهما يجلس السائق صاحب البزة الانيقة والقبعة
المتخذة هيئة سمك المطرقة إذ تتصل برداء شاحب
اللون يغطي ظهره.. ثم دلفت العربتان من بعيد بوابة
القصر الملكي وبالنسبة له ظل واقفا مشدوها ونادما
على كل شيء.

وفور مغادرته متأففا وقعت عيناه على رجل
منتفخ الصدر والبطن قليلا له خصلتين من اشعر تلتف
للأعلى عكس خصلتي الذقن تلتف للأسفل فخاطب
نجيب نفسه: " هذه هي الفرصة التي قد انال فيها
معلومات واخبار قيمة ..فلنقبل العرض اللعين".

اتجه مباشرة صوبه وافشى السلام ليقول ببشاشة
تملئ عينيه:

- انتهيت من عملي بسرعة.. انت تعلم هذه الايام يقل
الزبائن ويكثر الإقبال على محلات المختصة بالطعام..
هلا نذهب؟

- شكرا لقدمك وبحثك عني يا سيد...

- نجيب، هذا اسمي وحسب.. تعال لأحضر اغراضني من ثم نذهب.

اعتدل الرجل مستقيما وقبل ان ينطلق خلف الجبلي شذب لحيه ذقنه وشعر بانه افلح في إقناعه مما رسم ابتسامة اخفاه ما إن التفت نجيب اليه ويقول:

- لم تخبرني من اين انت؟

اجاب قبلما يقهقه:

- من مكان بعيد جدا.

الفصل الثامن

- اضرب بقوة.. هيا، لن يرحمك أحد أثناء القتال وأنت تضرب هكذا.

- أعطني بعض الوقت لألتقط انفاسي.

تتهد مطولا ثم سدّ ضربة على دمية التدريبات المحشوة بالرمال وذات رأس من القش مع خوذة حربية، من ثم اوقفوها فوق عمود خشبي قصير كأن هذا سيؤدي نفعا امام مبتدئ مثل معاذ.

لهذا فّر المدرب في تغيير التدريب فأعطاه قوس خشبي عادي مشدود بحبل مطاطي رقيق. ظن أن هذا

التمرين سهل، لكن لا شيء سهل مع المدرب سهل إذ أمره بالتصويب على العين من مسافة عشرين قدماً، وقد وضع له سلة أسهم عبارة عن مجموعة نبال حاجة الرأس بلا نقوش أو زخرفة تُذكر.

رفع القوس وشد وتره سهم..

- ارفع، أوه نسيت لقد رفعت.. حسناً، شدّ، أطلق!

تمكن من تحديد الهدف بصعوبة وهو يحرك القوس بحيث يتمايل ليصبح نصل السهم مقابلاً للهد...

- بالله عليك، أطلق!.. أتريد التعلم أم...

اطلق السهم بغتة مقاطعاً كلام سهل وقد دوى هسيس السهم حتى اخترق الفراغ المجاور لرأس الدمية.

- عذراً.. عذراً، سأحاول مجدداً.. أرجوك!

رفع القوس غير عابئ بإجابة مدرّبه القلق ثم شدّ الوتر اليه وفي كبد القوس يمسك سهماً آخر وحدد الهدف بعين مفتوحة وأخرى مغمضة، يردد بخفوت شديد:

- بتريث.. بتريث.. بتريث...

- الحرب ستنتهي وأنت لم تطلق بعد.

اعتدل الفتى العشريني في وقفته متخلياً عن
وضعية الرمي ووجهه تضايقه الى المدرب المتقدم
غضباً:

- ما خطبك.. لماذا تفعل معي ذلك يا سيد سهل؟.. خلت
من اسمك انك ستكون لين في تدريبك.

- وكذلك من اسمك سيظن المرء انك تطرد عنك الشرور
والفشل.

ضيّق معاذ عيناه مستغرباً:

- اسمي لا يعني هذا.. لا يهم فقط امهاني وقتاً فهذه
المرّة الاولى لي في التدريب.

عقد المدرب ذراعه معاً وقال بنبرة ساخرة:

-حقاً! وماذا كنت تفعل قبل ذلك ترقص في العروض أم
تعدّ الأكل للرجال؟..

لم يجبه فابتعد سهل قليلاً ثم أضاف:

- اسمع، يا بني.. لن تعلمني كيف ادرب لأنها مهنتي
منذ عقود، ولكن الامر سهل على ما تخاله.. ارفع
القوس وأطلقه فحسب.. أما انت فتكاد تسقط مغشياً
عليك.

تدخل رجل يرتدي عباءة بهيجة بألوانها ويظهر
عليه الوقار وقال بصوت رخيم:

- توكل على الله وستصيب العدو بإذنه.

ندن سهل مطأطأ الراس ومحافظا على يديه
معقودتان:

- شواحي آخر لعين.

وأردف جاهرا:

- بإذنه؟.. نعم، نعم.. بعد أن يغرس العدو فأسه في
جمجمته.

أحس بالاطمئنان فور قوله ذلك، ثم أعلن نهاية
التدريب الى الابد. غادر مباشرة بدون وداع أو نصيحة
خفيفة بل قال فقط:

- مبروك علينا لقد خسرنا الحرب قبل بدئها.

حاول الشواحي طمأنته قائلا بهدوء:

- لا تقلق، انها البداية لا غير.

- هل انت من رجال الدين؟.

- تقريبا.

ابتسم معاند وقال:

- هكذا إذن.. أسترافقنا الى.. انت تعلم؟

- لا أظن ذلك.. هيا لننطلق وسأخبرك بما تريد في
الطريق.

- حسنا، أتقدم مواعظ للجنود؟.

ألقى عليه الشواحي نظرة باردة وهو يقول:

- لتوك امتطيت حصانك.. انتظر حتى ننتقل عندئذ
اسألني ما تشاء.

انطلقا في طريق حجري مرورا بنهر ليتوقفا في
خان المسافرين عند تقاطع وادي "فخروم" وكل هذا
الطريق لم ينفك معان عن سؤال خارج عن الموضوع
كسؤاله:

- أيمكنك تعليمي كيفية إشعال النار بالعقل؟

حدّق فيه الشواحي مندهشا:

- أتى لي تعليمك ذلك، إنه مستحيل!

- أو لستم تتعلمون ذلك في البازاخ.. الب.. البار...ال؟؟

- "الباراح"

- نعم، فمتى نبدأ؟

- حتى تنتهي الحرب.

وأضاف في نفسه: { لا قدر الله تموت وتنجيني

من سخفك }، ثم استأنف كلامه لمعان :

- عندها اذا وجدتي.. أفهمت؟ اذا وجدتي سأعلمك
بكل سرور.

أماء الفتى براسه فيما خاطب الاخر نفسه

مجددا: { او سأقتل نفسي ب"السبوبك" }.

توقفاً أمام باب الخان الضخم المهيب حيث تعجب
معاند من العلامة المرسومة في لوح مثبت على عمود
خشبي قرب الباب لـ:

- وجه بشوش أو سعيد.. عجيب!

نزل الشواحي من صهوة حصانه الكستنائي كنظيره
وقال منبهاً:

- إنه "الوجه الضاحك" .. إياك العبث معهم إطلاقاً.

- لماذا.. هل هم مرتزقة ام قطاع الطرق؟

- حريّ لك ألا تعرفهم.

قال سرّاً: { يمكنني استتجارهم للتخلص منك، لكنني
في حاجة لك }.

استعره ما يقوم به معاند فنطق مستفهماً:

- أضع الحصان هنا.. من الاحترام عدم إدخال حيوان
الى اماكن الناس.

ضحك الشواحي: { لو كان هذا صحيحاً لما
سأدخلك؟ }، ثم قال:

- كلا! سيتعرض للسرقة لا محالة هنا.. في الداخل
اسطبل صغير اعقله هناك.

أدخلا الحصانين معاً وعقلوهما عند ساريتان في
الإسطبل ثم دلفا الى الغرفة الضخمة بفتح الباب الكبير

على مصراع واحد دون غلقه فتوجهها الى مائدة في زاوية ضيقة وُضعت فيها طاولة دائرتها متسعة ولكن ارجلها قصيرة إذ يجلسون على الارض للأكل فيطؤون وسائد بيضاء حريرة ومزركشة بالأحمر ومحشوة بصوف الأنعام.

أمسك الفتى وسادة يتكى عليها وجعل الثانية مجلسا له، أما صاحبه اكتفى بوحدة للجلوس عاقدا رجليه اليه. فجاء خادم انحنى بوذ لهم وطلب منهم البوح بمبتغاهم غير ان معاند تسرع بالإجابة قائلا:

- نريد الوصول الى العاصمة، من فضلك أيّ الطريقين مختصر الاول المحفوف بالالتواءات والمنحنيات ووعورته الطبيعية أم الطريق الصخري بالأحجار المتراسة؟

لم ينتظر الشواحي من الخادم التفكير فيما قاله مرافقه بل أسرع قائلا:

- أحضر لنا مشروبين لحليب الماعز ورغيف جاف، وايضا ينبغي ان يكون ما طلبناه ساخنين.. مفهوم؟
-مفهوم.

-لا أتحدث معك يا معاذ.

أماء الخادم براسه كإشارة للفهم وانطلق ليحضر متطلباته لكنه سرعان ما عاد منحنيا لهما وبوجه بشوش سأل الشواحي:

- هل ستبيتون هنا، يا سيدي؟.. من المستحسن طلب غرفة ما دامت فارغة.

أجابه الشواحي بابتسامة خفيفة:

-شكرا لك، اذاً احجر لنا واحدة بسريرين.

تطلّ عليهم معان قائلاً:

-هل هناك غرفة بسرير واحد؟

ردّ عليه الخادم متعجباً:

- ولما.. نعم لدينا!

كان الشواحي يلقي نظرات باردة على سلوك مرافقه الشاب ولكن معان قال بصرامة له:

- ومالك بسرير واحد.. إنها أعلى من سريرين، فاقتصد على نقودنا.

بعدما غادر الخادم اهتز رأس معان إثر تذكره لشيء ما:

- آه! ألم تقل لي من قبل باننا عندما سنصل الى العاصمة سوف...

- صَء! لا حاجة لذكر ذلك هنا، فالمكان حافل بأذان صاغية لكل شاذة وفادة.

تظاهر معان بالتفهم رغم عدم فهمه للجزء الأخير مما قاله الشواحي اثناء الطريق، كما انه يخشى طلب

إعادة شرح كل شيء لكيلا يُظهر ضعفه في التذكر
فيؤدي هذا الى طرده من القضية التي اشركه فيها
شرط ان يكون مرافقه اي تابعه وهو يجاهد على فعل
أيا كان للخروج من قريته البائسة وحياته الرتيبة.

بعد انتهاءهما من الطعام توجهها صوب غرفتهما
فرقدا في سريريهما وناما..

- هل ستوقظني مع دلك الشمس كمثل التدريبات
العسكرية... هممم؟

فعندما لم يجبه أرخى جفونه فأخذه النوم اخذاً.
مجددا راوده الحلم ذاته سوى أنه ليس نفس المكان
فهذه المرة فوق هضبة جليدية قرب جبل ثلجي رهيب،
والشمس لا تكاد تبين بسبب براح السقيم الشديدة.

التف يمينا وشمالا ولا احد يراه إلا عندما اراد
التكلم شعر به وراه كأنه وقع من عنان السماوات.
أحس بالارتياح فور رؤية ذلك الكائن أو* الشبه
البشري* مغطى بقلنسوة غشت قليلا من وجهه سوى
عينييه المحمرتان المشعتان ما ارتاح لهما ابدا، لأنهما
تريانه الآن..

- يا إلهي! انت مجددا.. اذهب ودرّب احدا غيري فأنت
تضيع وقتك معي، ألا تسمع؟

بفعل الرياح العاتية وقسوة مناخ وتضاريس
المنطقة المكشوفة المتواجده فيها لم يصل كلامه اليه،

بل هو من وصل مستقرا أمامه ومستلا سيفاً فقفه الى معاند الذي أمسكه بيدان مرتجفتان، تمسك اليمنى مقبض السيف ويسراه تميل النصل كانه عرض قد انتهى بتلك الحركة الدورانية التي قام بها الكائن العجوز وبرشاقة الفهد استل سيفه من غمده في ظهره محدثا صحة طنت الاذان، بينما الشاب يحثق في غريمه بريبة وارتيباك انطلق الاخر منقضاً كالفهد على فريسته المرتعدة فرائسها فاستقر نصل سيف تحت إبطه الساكن في مكانه وتوقف ببراعة حيث لم يخترق اللحم من كتفه اليمنى وحدجه الكائن بحنق بادي على ملامحه لكون الساكن لم يصدّ الهجمة كما ينبغي ففهم قصده..

فدفع السيف عنه جانبا بكل ما أوتي من قوة! ثم أخذ يصدّ الضربات المتتالية على نحو.. سيء! فتارة من اليمين و الشمال، وتارة اخرى من فوقه وتحتاه حتى فقد الاتجاهات وأصبح يلوح بسيفه كمن يطرد الذباب بمروحية.

رفع الغريب من حدة *التمرين* عندما سدّد محاولا جعل نصل سيفه يخترق بطن خصمه المرتعد.. فصدّها الخصم على نحو عجيب، ولسوء حظه لم يستطع إكمال فرحة فعله حيث خانتاه قدماه وفقد التوازن ساقطا ومنزلقا نحو الاسفل، نحو الهاوية محاولا الامساك بأي شيء دون جدوى... ها هو يتدحرج ككرة ثلج شكّلتها الرياح فما استطاع ايقافه

سوى شجرة ضخمة لا مجال للتساؤل حول سبب وجوده في المنتصف، فارتطم مع جذعها الصلد وظل مستندا ظهره اليها يتذوق طعم الألم وشدة برودة الارض التي أوشتت على تجميد مؤخرته.

خفف عليه الامه ظهور الكائن قدامه فعلق ساخرا:

- لن أفلت بجدي مع هذا.. عاشق التدريب.

قام واقفا شبه مستقيم تتحسس يده ظهره المشتعل من الألم وتمط اسنانه شفتيه، والطريف في الامر انه هو من بدأ الهجوم وكان شبه جيد. تسديدة فوق الرأس صدها الكائن بسهولة وتسديدة اخرى جانبية صوب البطن اسرع خصمه مبتعدا عن السيف بخفة ثم اعقبه معان بضربة في العنق فاخفض الكائن راسه ثم اندفع اليه بغية نطحه في بطنه كثور هائج غير انه ارتمى جانبا وسمع صوت راس يطرق جذع الشجرة ويحدث جلبة كما سقطت شظاياها على قدمه.

تساءل مندهشا: { أهذا راس بشري؟! }

وجّه الكائن نظره الثاقب تجاهه عابسا ومنطلقا نحوه فما كان منه إلا ازدراد ريقه ومن ثم إحكام أصابعه المرتعشة حول قبضة سيفه.

لهول المشهد اتسعت حدقتا عيناه فور رؤيته لجسم الكائن يقفز عاليا ويقطع دورات لولبية في

الهواء حتى الصق مشط حذاءه الجدلي الايمن في حده
المحمر فعاد الاخير يتدحرج الى الاسفل إثر شدة
الضربة السريعة، ومرة اخرى يعزم بلا جدوى في
الامساك بما تصادفه يداه للتشبث الياس فيما الثلج
يغطيه كاملا وتتناثر كريات بيضاء في دوامة باردة
كالرذاذ.

رسمت حدة وقوعه خط محفور يمتد من الشجرة
القابعة في سفح المنحدر قليلا ويشق الخط الاخدودي
طريقه الى اسفل المرتفع عند السفح الاخير ذو الارض
المنبسطة جيداً، هنالك استقر الكائن بجسده قرب جثته
التي تكتسيها أكوام الثلج.

ظل الوشاح الاسود حائماً حول وجهه اليابس
فيزيد بلونه القاتم وضوح العينان المشتعلتان، قرفص
صاحبها بجانب الكفن المنسوج من ندف الثلج الذي
يقبع داخله مبتغاه الوحيد والأوحد.

بحركة مندفعة أطلق الكائن قبضته لتخترق
الأكوام البيضاء بصوت يمس وتر الرياح ويكسر
صلابة الثلوج الرخوة، بعدها اخرج الجثة قابضا على
المرفق الفارغ من الروح ثم وضعها على سطح الارض
المستوي.

بعد لحظات رفع اليه ركبته اليسرى يعقدها بقوة
الى ان وجه حذاءه البني الكاتم تجاه البطن قبلما يدكّه
بقسوة ما جعل الحياة تسري في الجثة ويخرج صاحبها

بقايا الثلج من فمه الذي ابتلع بعضها اثناء السقوط
المدوي.

لقد استعاد عافيته بعض الشيء، لكنه تعرّض
لإصابات خطيرة على مستويات عديدة منها سقوط
بضعة اسنانه من كلا الصفيين. ثم لَمَّا انتبه للكائن
حملك فيه بذهول ممتزج بامتعاض مرتسمان على
ملامحه المحمرة المشبعة بخطوط نقشتها صلابة الجليد
واضراسه مقابل ليونة الخدين.

وهكذا نطق أول كلامه بعد الحادثة إذ قال متألماً
بألم تظهره نبرته المتعبة:

- لم أعد اعرف أأأأ أألم انا غارق فيه أم هو الواقع
يصفعني للإفافة من غفلي وغفوتي؟

بالطبع لم يتلق جواباً منه على الإطلاق إذ بقي
ساكناً كفرع الشجرة تهزهزه الريح أحياناً، واستند
معانداً إلى الأرض بيده للنهوض بذلك الشكل المترنح
وظلاله المتراقصة تحت قرص الشمس الباهت والخافت
بأشعتها الخجولة التي تحجب السحب خيوطها الصفراء
المبرقة.

التقط انفاسه لهنيهة ثم القى حديثه بسرعة:

- حصلت على ما وددت، فماذا بعد الآن؟ هاه؟.. أجبني
أيها المتأكل.

أصدر خريرا مبهم ووّلى له ظهره راحلا حتى
تلقفته الرياح الحاملة لذرات الثلج في غبار ابيض
والمتطايرة كمروحية الهواء.. ثم اختفى.

غارق في الظلام الدامس تتهاوى عليه الظلال مثل
امواج هائج تحيط به وتخنقه فتخترق جسمه غير
فتحات أنفه واذنيه وفمه الفاجر من الدهشة، عيناه
جاحظتان تكاد تخرج من مقلتيه، ابتلع اخر السحب
السوداء كما ابتلع بضع قطرات المياه..

..رشّ من فمه رذاذ الماء فتثقل وثقل ثم انتفض
باصقا ما بلع على سريره الحريري وهو يلهث متصفدا
عرقا. استطاع إعادة وعيه بعدما استقرت عيناه أخيرا
على وجه الشّواحي الذي كان يحمل قنينة زجاجية
فارغة إلا من نزر قليل ويده الاخرة مبتلة تحفظ على
قطرات تتساقط باستمرار.

وعلق على المشهد صاحب الخان القصير طولا
فقال:

- كدت تنزع روعي من شدّة خشيت ان افقدك هنا.. ألا
تدري كم الثمن غال اذا مات أحد زوارنا داخل إقامتنا؟..
إنها نهاية سمعتنا!.

همّ بالاستئناف لكنه قوبل بيد الشّواحي ترفع
قبالة فمه لتخرسه وقام هذا الاخير بسكب ما تبقى على
راحة يده ثم رشها ناحية وجه معاذ الذي انكمش.

تفاعل معها بصرخة غير كاظمة للغيط وكذلك
قذفه لكلمات أغلبها لا يستبان كنهها او انها ليست
بكلمات، بل ألفاظ الرضيع المبهمة. استرخى فوق
منضدة الغرفة يزفر بحنق كونه لا يفقه ماذا جرى له
وكذا يخشى تكرار ذلك في كل مرة، أهو مجرد حلم
عابر أم أحلام اليقظة تقررع باب واقعه؟!.

انتشله الشواحي من سهوه حينما ناداه قائلاً:

- اجمع شتات نفسك يا معاذ، ولنغادر بسرعة.

استوقفه صاحب الخان راجياً:

- انتظر قليلاً، يا سيدي.. أضيفاً يوماً آخر للمبيت.

- وهل تريد ان يموت بفعل مكانك الملعون؟

اندesh صاحب الخان واستحال لونه محمراً
وانتفخت اوداجه فأجابته صائحاً:

- هكذا إذاً فلتذهب الى اقرب ربوة ساحقة الانحدار
ولتلقني نفسك في اقرب وقت.. هيا ارحلاً!

امتطيا حصاناهما وخرجا من باب واسع وخلال
ذلك تنبّه معاذ ان الشواحي يحدق في شخص مغطى
الوجه فكذلك فعل الشخص يحدجه بحذر وهو يمتطي
لجواده المسلهب، وقد رآه ينزل من جواده في الاسطبل
ويحمل كيساً كبيراً خوخي اللون.

بعد قضاءهما وقت طويل في العدو توقفا في
منطقة مكشوفة وهبّ بالسؤال:

- حاليا انا واحد منكم فأرجوك اخبرني من هو؟

- من تقصد؟

- رأيك تنظر الى شخص غريب.

زفر الشواحي ساخرا ومضيّقا حاجباه:

- ما هذه الاسئلة الزوجية؟

- لا لا لا بد ان هناك شيء بينكما.. نظراتكما كانت كأن
واحد منكما سينقض على الاخر.. كما أنني واحد منكم
فأخبرني.

استنشق الشواحي نسمات الهواء وقال بأريحية:

- واحد منا!.. هاها من اخبرك بهذا؟ اثبت ذلك اولاً.

- حسناً، ماذا تريد مني فعله من اجلك؟

- من اجلي، لا شيء.. من اجلهم، كل شيء.

- اخبرني وسأفعل إن.. إن استطعت.

- بالتأكيد لن تستطيع فتحّاج الى التدريب، ونحن
سنبحث على المعدات اللازمة في العاصمة، ثم سنسرق
بعض العدة والعتاد من مخفرهم.

ابتسم معاذ وفي خده يقول: { أهاه!.. فقط
باستخدام الحيل البسيطة وها انا عرفت من جديد
المخطط كاملاً، وقال جاهراً:

- إيه والله، لكن هل اعددت خطة للسرقة بعد؟
- نعم، ستعرفها في الحين.

طأطأ معاذ راسه مدندنا بنبرة قلقة:

- للأسف، لا استطيع التسلل لفعل ذلك.. اخاف ان
يقبضوا علينا، وانا لا املك مهارات القتال.

طمأنه الشواحي بكلامه ونبرته:

- ليس هناك مدعاة للخوف.. سندخل مباشرة الى
المعسكر كجنديين متخفيين بعدما نسرق الثياب من
الجنديان المغمى عليهما من طرفنا او من طرفي.. ثم
نتأقلم مع البقية حتى يحين وقت الاستراحة الليلية
حينما تصل نوبتنا لحراسة مخزن الاسلحة.. سيدخل
واحد منا فقط واجزم انك المناسب بسبب جسمك
الصغير.. ويضع ما أمكن من الاسلحة والمعدات
الخفيفة في عربة سنتركها في الباب الخلفي فور
وصولنا.. وما إن تشرق الشمس لن يجدوا لا أسلحتهم
ولا نحن حيث سنهربها عبر الطريق المخرب وسط
الغابة "الدغلية".. هل فهمت الان كم مهمتنا سهلة
للغاية وبسيطة، مجرد خفة الحركة كافية لنجاحها.

ابتسم معاذ ثانية: {نعم، استخرجت ما في جعبتك
ولن تضطر بعد ذلك الى الاطلاع على افكارك مباشرة}،
كاد ان يضحك منتشي بحيلته واكتفى بالابتسام، وانطلقا
بتريث حتى يصلوا في المساء.

الفصل التاسع:

ارتفعت أصوات الحاضرين:

- يحيى الملك.. يحيى الملك!

أكمل الشواحي بنبرة مجلجلة:

- أصفهان بن إسحاق بن سيمر من "آل سيمر" المجيدة، حاكم المملكة العريقة والعاصمة البهيجة.. ونعيم السلام في أرجاء قارة "آسرا".. والي مدينة "سميريا" فليطل حكمه ولتمشي الرعية على دربه وليباركه الرب في أمره.. فأين عهد الأزدهار والانتصار.

رَدَدَ الحاضرون في تِوَدَة: {آمين!}، ثم وضع الشواحي التاج المطعم بالذهب فوق رأس الملك البالغ الجديد، وبعد جلوسه على العرش *الذهبي* كَوْن المستشارون والوزراء والجنرالات الجدد الذين يختارهم قبيل تنصيبه كالعادة وكل خواص الشعب طابوراً ليقدموا له الولاء والبيعة، وكذا هدية تليق بمقامه.

بعد انتهاء الامر غادر الجميع البلاط الملكي إلا من امه وخاله وصديق ابيه الراحل ودستة من حراسه الشخصيين المستجدون. تبادلوا معه الحديث اللبق وقدموا له التهئة ودعا أمه للجلوس على كرسي بديع الإتقان مجاور للعرش فيما غادر الثلاثة.

ابتسم لها وهي تربت على كفه فقالت بحنان غلب الحزن:

- يجب التحدث عن امور مهمة.. مهمة للغاية.

قال بحزم:

- كمثل الزواج، أريحي بالك لقد فكرت فيه ملياً.

ضغطت على كفه كما ضغطت على كلماتها:

- كلاً.. بل اقصد الحكم.. وما أدراك ما الحكم.. لا تعتمد على ما علموك في صباك من أمثال العجزة الذين رافقوك في مسيرتك العلمية.. ما كانوا يلقنوك سوى أمور عفا عنها الزمان.

رنت اليه مبتسمة وقالت:

- دعني اساعدك في التسيير.. وستبقى لك الكلمة الأولى والفصل في قرار.

- فات الاوان على قول هذا.. آسف يا أمّاه خطت لكى من قبل.

زادت من حدّة كلامها:

- أنت لم ترى الحثالة الذين أحاطهم والدك بنفسه.. لا شك انهم يحتفلون بوفاته الغامضة.

قهقه مستهزئاً:

- كأنك تقولين بانه مات بسببهم.. لا، لالن يكون نفس الامر معي حيث سأحكم زمام الامور ولا أدع قطرة واحدة تنساب من يدي.

انتفضت عليه صارخة:

- انالـم اقل أي شيء عن.. إن اعتمدت على صديق والدك كما فعل هو فلن يعود ذلك بالخير عليك.. وعلينا!

ثم عادت لهدوئها بنبرة قلقة وناصحة:

- ابدأ بتنظيف مجلسك.. اطرده اولئك العجزة الماكرين او اصحاب الاموال الطائفة قد يتحكمون فيك عند اقراضك المال.

- اذا، انصب مكانهم عشوائيا من عامة الناس.. ما
رايك حول فلاح او طيب او عشاب.. اظنهم قادرين
على تسيير الامور.. اليس كذلك؟

حاجته غاضبة:

- كفى استهزاء.. ان لم يكن ابوك قد اصغى الي فيجدر
بك عدم الحذو مثله..

غيرت ملامحها الي اخرى امومية رفيقة وانحنت
له تداعب خصلات شعره الأحمر بعدما وقفت، ثم
همست بحنو:

- ستكون ملكا عادلا بتنصيبك لعامة الشعب.. وستكون
ملكا حكيما باختيارهم علماء وحكماء وخبراء في شتى
المجالات.. ولا تذر قلة تثري نفسها على حسابك
وحساب رعيتك.. اليوم عليهم وغدا عليك، فاحذر من
غدر الزمان اذا تبدل وطعن القدر اذا غضب.

ولثمت جبينه ببطء فابتسم لها قائلا بصوت رخيم:

- كونك لا تعرفين كم يموتون على الملك ويقاتلون
بدموية من أجله فسأغض الطرف عما قلتيه.. اما
طريقة تعاملي مع من يحيطون بي او سيحيطون بي
تعتمد على مالك القوانين ومالك القوة، وليس مالك
الحق.

عضت شفثها السفلية بحسرة ثم خطت متجهة
خارج القاعة العريضة والمزينة كأنها عروس. نادى

الملك على خاله فأتى الأخير مسرعاً، واستهل الملك حديثه معه قائلاً:

- أما زالت تلك القافلة في الطريق مستمرة.

اجبه بعدم تأكد:

- قد تكون.. هل هناك شيء أفعله من أجلك، يا جلالتك؟

أمره الملك بصوت جهوري ليظهر له انه صار الملك وليس ذلك الطفل الذي كان يعلمه القتال:

- نعم، مُرهم ان يعيدوها سريعاً قبل ان يتخاطف عليها الاعداء.. يظنون باننا سننشل بالجنابة وننسى امرها.

ردّ بلباقة:

- حاضر، يا مولاي.. سأرسل غداً من يعيدهم سالمين.

أذن له الملك بالانصراف، ثم طلب إحضار تامر صديق والده الودود: { قد حان وقت استراحتة }، وقدم مهرولا وانحنى للملك فأغظ عليه الصوت قائلاً:

- أريدك مصاحبة الملكة غداً الى قصر والدي للاستجمام والراحة من متاعب الحكم.. لا بدّ انكما تعبتما.

تردد في الردّ لكنه قال بوقار وغيظ مكتوم:

- مولاي.. راحتي وهنائي في خدمتكم هنا الى اخر الرمى.

- اخر رفق هو ما كان عليك فعله مع والدي.

ظل تامر صامتا يحاول فهم كلام الملك وسرعان ما قال:

- ابوك توفي بمشيئة الله.. أنى لي إنقاذه من مصيره المحتوم؟

- بمعرفة صديقه من عدوه أو العكس صحيح.. كما أني لا اريدك بجانبى فلم أنسى كيف ضاعت طفولتي بسببك حيث منعت العيش حتى كأطفال الشعب.. كنت دائما تتصح ابي بالشدة علي والغلظة.

- وكان ذلك في صالحك لا حاجة في نفسي.

اطلق الملك كلامه كالفحيح قائلا:

- اذا، اختر حالا.. إما مرافقة الملكة او النفي.. كلاهما نفي ولكن الاختيار الثاني هو نفي مذلول.

- هذا الذي حرضك على نفي هو العدو فاحذره.

- انا من حرضت نفسي على ذلك فانا عدو نفسي.. امرك لآخر مرة ان تذهب وتطيع امري.. ما ردك يا عزيزي؟.

حدق في عينيه الدامعتين فيما يقولها فردّ تامر حاني الرأس:

- امرك طاعة، نيافتك.

ثم غادر البلاط جارا اذبال الخيبة، وبعد غلق الحراس للباب احس الملك بهدوء مريب، وسرت قشعريرة في جسمه، تركه الاحساس المريب بقدوم حارس اخبره عن رغبة رجل عجوز لمقابلته فأشار اليه بإدخاله. عجوز يرتدي ملابس بالية سوداء يشبه تماما جواسيس والده فنحنى مستقبلا نبرة الملك الهادئة:

- تفضل بما لديك.

استقام العجوز ونطق كلماته واثقا من نفسه:

- يا مولاي، لدي رسالة كان احد خدمكم يحملها اثناء خروجه من بوابة المدينة وسقطت منه سهوا.. المهم اني اشتريتها بصعوبة من تاجر عاند من اجل بيعها واشتريتها كوني اعرف اهميتها من شكلها البديع الذي لا يصدر إلا من ذوي الجاه.

أخرج من كفه فرمانا مخدوش ثم فتحه وقلبه راسا على عقب لتسقط ورقة مطواة اخذها منه بسرعة لما اقترب منه الرجل من ثم خبأها في جيبه ريثما يغادر الرجل ليقرأ محتواها، وقف الملك وربّت على كتفه مبتسما:

- امثالك يجب الاستفادة منه لصالح المملكة، اليس كذلك؟.. ماذا لو صرت تلتقط اخبارا من كل ما يجول داخل دائرة اراضينا وقصرنا.

تلاأت عينا الرجل فرحا وتمتم:

- او استرق السمع في باقي الممالك.

- كلا، لا اهمية للخطر الخارجي بوجود ما اخطر في
الداخل.. العالم صغير واذاننا صاغية.. صاغية جدا..
سيمنحونك ثمن شراءها بالأضعاف.

- جميل مولاي، وأعتقد أن حماري أيضا يستحق مكافأة
كونه من نبهني للرسالة الواقعة أرضا.

ابتسم الملك وقال:

- لهذا قلت سيجازونك أضعافا أنت وحمارك سيان
عندي.

قرأ الملك محتوى الرسالة بعد مغادرة الرجل ووجد
فيها طلب الملك الراحل لـ*شواحي* باشراك قرينه في
الحملة التأديبية ضد الوائليين. ثنى الورقة وسار الى
الغرفة الصغيرة المحظورة وبعيد شربه لعصير الارم
اتكأ على مقعد واغمض جفناه متجاهلا الهدوء المريب
الذي يجتاحه مجددا.

تزايدت دقائق اخفية اناس فتثائب الملك قائلا:

- من... هؤلاء... الذ...

استيقظ متألما في رقبتة ونهض ممدا جسده
وسمع رجلا يقول عاليا ومذعورا:

- لم... لم اجده في فراشه وحتى الخدم الاخرين لم يروه يدخل اليها.

وعلت الهمهمات المستغربة كما سمع صوتا انثويا يقول مرتجفا:

- لندعو الا يكون قد حدث له شيء، حفظك يا لله له نرجو.

همس الملك متضايقا:

-لا، اماه لا تخرجيني.

خرج اليهم مترنحا فاندش الحضور من شكله من خديه المحمران وشعره الأشعث، توجه الى عرشه وخطب فيهم قائلا:

- لقد كنت اراجع بعض الوثائق، وامور خاصة بشؤون الحكم.. وقررت النوم هناك حتى اكمل عملي في المساء.

بعضهم ابتسم والاخر وفر مرتاحا بينما امه ابتسمت قائلة:

- نعم الملك لنعم الشعب.

كان اغلب الحاضرين يبتغون تقديم شكواهم له وجرت العادة الدخول في حضرة الملك ولكن بعد قدوم الملك الفتى اضطربت الاجواء وغلب على القصر الملكي العشوائية لا في طريقة تنظيم جلسات الإنصات

لهوم الناس ولا اوقات الطعام ولا في الاجتماعات
الغير المتوقعة حيث اخبر الملك مستشاره بوجود
اجتماع يجمع بين المجلس الاستشاري والعسكري في
طاولة واحدة.

انتهت جلسة الاستماع للمواطنين وغادر الجميع
اعقبهم دُوف صقان من الحراس المصطفين فاتحين
طريقا للملكة التي التفتت الى ابنها تذرف دموع صغيرة
كما تراه هو الان، اخفى حزنه وقال:

- ليست النهاية.. سأتيكم كلما سنحت لي الفرصة.

- كان هذا يكفيني.. اريد مشاركتك في الحمل الثقيل.

حضنها وقبل راسها ولثم كفها بدورها قبلته
بحرارة في خديه ورأسه ولم تتركه كما لم يستطع
ابعادها فظلا هكذا متعانقين لمدة طويلة وهمس لها في
اذنها مما جعلها ترتعش وتسكن في مكانها، نادى الملك
على الوصيفات اللاتي اخذنا يدها الى العربة الملكية
ففيها اغراضها ومتاع تامر.

وقف الملك على اعقاب البوابة الخلفية للقصر
وامه تطل عليه من نافذة العربة، لوح الملك مودعا
اخر فردا من عائلته وملوحا لأذ رجل كرهه قبل اشتداد
عوده: { حدث قاس معه حدث مفرح اجتمعا في رحلة
واحدة.. أمل ان يتهور الحدث المفرح متوجها الى
حرفه}.

انطلقت العربية الملكية تتبعها عربات تحمل الامتعة
والمؤونة واغراض المسافرين، يرافقهم جنود وحراس
سواء رجالة او خيالة منقسمين في الامام والخلف، من
اليمن والشمال، وقد جند الملك فرقتين استطلاعيتين
واحدة تسبقهم لمعرفة الطريق ومخاطره فيما الاخرى
تلتحقهم بهدف حمل اغراض ربما تقع منهم او اذا
رصدوا خطر وقع لهم يعودون ادراجهم للملك لكي
يخبروه.

اتجه الملك اصفهان نحو قاعة متوسطة اجتمع
فيها المستشارون والضباط السامون والوزراء حائمين
حول طاولة مستديرة تتوسطها خريطة القارة بالتفصيل
الدقيق، اما المقاعد الوثيرة ملتصقة في الجدران
الاربعة. استهل الملك خطابه قائلا بحزم:

- تعلمون جميعا مشروع الملك الراحل، رحمه الله.

رددوا ذلك ثم استطرد محافظا على صرامته:

- السيطرة على القارة شبرا بشبرا... لكن يا جماعة اقرّ
بفداحة حملته.

تفاجأوا من قوله واخذوا يهمسون لبعضهم البعض
فعلا صوته عليهم ليصمتوا امام قوله:

- نعم، يا سادة.. كانت خطته عسكرية اكثر من
تفاهمية، حربية اكثر من سلمية، ذات مآرب اقتصادية
اكثر من سياسية.

استحسن الحاضرون خطابه ورضوا به ما عدا عقيد
الجيش فمدحه مستشاره الشاب الجديد:

- رضي الله عنك يا جلالتك.. حكمتك هي طابعك.

اختلف معه عقيد الجيش قائلا:

- لکن مولاي نعلم جميعا الوضع الراهن الجد
المضطرب، ولا يسمح لنا بالتهاون مع الامور وإظهار
ضعفنا للعالمين.. يا سادة، اقولها واکررها يستحيل
تجنب الحرب حاليا.

ظل الملك مركزا نظره على وزير المالية بزيه
الاخضر المجتاز لركبته والذي عارض راي غريمه
قائلا:

- كلا، إن تجنبنا للحرب سنتجنب ايضا الخسائر المالية
والبشرية.

واصل اصفهان قوله تجاه عقيد الجيش:

- اسمع يا عقيدنا العزيز انا من اسمح لكم لا الظروف..
وانا سأجنبكم الحرب وأجنب الشعب.. وكما اعلمني
السيد طهران وزير المالية ان الوضع الماي حالته
متوازنة ونصحني بتخفيض الضرائب.. فقد ارتأيت
وضع قرار يجمع الجانبين العسكري والاداري ألا وهو
الغاء التجنيد الاجباري وتسريح من جند مرغما وكذا
بناء الجيش من الصفر، توفيرا للمال والجهد وتوفيرا

لقوة صد ورد مبنية على اسس المملكة الحميدة لا على
اهواء الضباط السامون.

تدخل طهران قائلا بتلغتم:

- أرى.. ا-أ- رى ان تخفض الضرائب كذلك.

- من الاحسن الا ترى.

انفجر الجميع ضاحكا من ضمنهم هو سوى الملك
الذي صوّب نظره على رئيس الضباط العجوز وناداه:

- أيا حسن.

اعتدل حسن مستقيما وقال حازما:

- تحت أمرك، جلالتك.

أحضر لي اعمار وصحة وهيئة جميع المجندين
داخل الجيش وانت يا خالي تكلف بحراس المدينة
بإحضار نفس الامر.. لا تتقاعسا او توكلنا امري
لمرافقيكما.. اما بالنسبة لكم فنصيحة من شخص يحب
الخير للجميع ويحب المجدين ويكافئ الاوفياء ويعاقب
الخونة اقول لكم لا قيمة لكم عند أي احد في ارجاء
القارة سوى ان تكونوا في سفينتنا وتخدموا مصالح
دولتنا.. يحيى الفاسد القوي ويموت الصالح الضعيف..
يمكنكم المغادرة حالا!.

انحنوا له وغادروا تتررا الا عقيد الجيش الذي ناداه

الملك:

- ابقى يا نديل.

غلق باب القاعة وظل الملك رفقة نديل يخدمهم خادم يقف في الزاوية ويقترب لمأ الكؤوس حيث وضع لكلاهما عدة كؤوس تحتوي على مختلف المشروبات.

انطلق الملك في الحديث مع الأربعيني بنبرة هادئة:

- سوف تعلم عما قريب عن خطورة الحروب.. اعلم انك خضت الكثير منها ولا يعني هذا ان الجنود لا يعانون منها.. وبالرغم من كون الغنائم كثيرة او لا تكون هناك غنائم، لكن توجد ارامل ويطامى لا حصر لهم يتجاوزون حجم الغنائم احايين عديدة ولن ينفس حزنهم ما غنموا او نشوة النصر فما بالك اذا انهزمتنا.

ماء نديل راسه متفقا معه وقال:

- كلامك صحيح، مولاي.. واذا اذنت لي اود اخبارك بأمر يخصك.

- آه، الزواج لقد فكرت فيه مليا وأعرف جيدا ما سأختار.

خلال حديثه كان نديل يرمقه وحسب ثم قال:

- يمكننا مناقشة هذا أيضا لاحقا.. لكنني أخص بالذكر موضوع والدتك.

- أظنها نصيحة من عم الى ابن اخيه.. تفضل..

بلع ابن عمه ريقه ولعق شفتاه ليقول:

- ما كان عليك ابعاد امك عنك وعن القصر.. لا تدري كم جاهد والداك على انجابك ليس كوريث فقط ولكن كفلذة كبديهما ايضا.

جلس على مقعد يحمل كاسه وارتشف رشفة مطولة قبل استئناف حديثه:

- قبل ولادتك توالى الحروب وتعاقبت كتعاقب الليل والنهار.. جل الممالك ماعدا مملكة النهضة بسبب الثورة التي وقعت فيه وهي منعزلة عن العالم مذاك الوقت.. ولأكون صريح معك باقي الدول كانت ضعيفة وقادتها طفلة عكس مملكة ابيك القوية تحت حكمه العادل.. كما خاله البعض نظرا لخطورة الحرب في إسقاط الدول قرر والدك ارساء نظام عادل ريثما يطرد خطر الثورات والانقلابات التي عمت في ذلك الزمان.. اظن قبل تسعة عشر سنة وهو سنك الحالي أن الملك الراحل ارغم باقي الدول على انتهاء الحرب بولادتك مستجيبا لفرحته العامة ورغبته في تربيته وسط عالم مسالم.. وكان ذلك خطأ الكارثي حيث كنا نستطيع اخضاع العالم كما رغب قبيل وفاته الغامضة لكنه فضل السلم مما جعلنا نضعف كل يوم وسرف اموال الحرب على ترفيهك.

قهقهه أصفهان ساخرا:

- أي ترفيه؟.

و لم يبدي الملك تعصبا لقوله، بل كان يعلم
هذا قبل توليه الحكم. وتابع نديل مقهقها احيانا:

- ما يهمننا هو انه بعد إرغام مملكة الويلات على
الهدنة بشروطه وتوقيع معاهدة سلام مع مملكة سكورم
زاد انشغاله على مملكة سيميريا الشرقية للقضاء عليها
لكن.. ولدت انت!.. نعم، فرح ابوك بك وفرحت معه
المملكة ثم وقع ما وقع.

امتزجت قهقهته بالحزن وأشار بيده الى الخادم
ليتقدم اليه بشراب "إرم" وشرب كاسه كاملا ومحاوولا
الحظي بلحظات السكينة وترطيب جوفه الجاف. وواصل
قائلا:

- بالفعل كانت هدنة طويلة انبثقت منها ازمات طفيفة
طبيعية.. حتى.. آاه، حتى افسد المعتوه كل شيء.

فهم اصفهان مرمى كلامه فقال مضييفا:

- الملك المختل.. لعلمك لا اعرف عنه سوى نزر قليل
من تاريخه لا يكاد يبلغ الفترة التي تصرف بحمق
واودى بمملكته الى الهلاك المبين.

نهض نديل يمشي على بطة ووضع اصبعه فوق
الخارطة بالضبط على موقع يوجد في اقصى الجنوب
الغربي وقال باسماء: بازدراء:

- ها هي المملكة الفاتية.. كانت تدعى من قبل مملكة...
سحقا! نسيت.. من يود تذكر اسم دولة حكامها مجانين
بامتياز.

انحنى نديل وغادر متمايلا وماسكا رأسه فتبعه
الخدام بينما استلقى اصفهان فوق الطاولة وزفر
بأريحية تامة.. وفجأة.. سرى هدوء مريب ليس في
جسمه بل في عقله.

الفصل العاشر: ر:

هنا فقط ظلام يغشاه ظلام، لا يستطيع رؤية شيء،
والشيء الوحيد الذي يطلبه هو شربة ماء رغم ان
الماء قريبه فهو يسمع قطراته على دلو ممتلأ عن
آخره. وبدأت المياه تتسكب منه قطرة بقطرة مما جعل
السجين يستشيط غيظا من الصوت المزعج المحمل
المرء على اقتلاع أذنيه من جذورها.

كما يمكن للسجين فعل المستحيل من اجل بصيص من النور فقد اغلقوا عليه اي مدخل لضوء النهار او ثقب لأشعة الشمس، وحرك يده لفك القيود الحديدية وهنا تكمن المشكلة بحيث ربطوه مع عمود خشبي خشن يدغدغ ظهره برؤوس المسامير المثبتة في اماكن معينة من العمود، ولكن لا مجال للضحك مع هذه الدغدغات الحافرة لظهره.

خارت قواه سواء في محاولته للوقوف او احتكاك يديه مع نتوءات العمود اذا حاول رفعها وتزيده أسمالة رغبة في الاحتكاك.. هنا لا مجال للهروب، وها قد أتى الامل في الخلاص اخيرا. فُتح الباب يدخل منه زوجته رفقة ابنته وحُماته يحملن سلة فواكه طازجة ما عدا ابنته الممسكة لقارورة مياه عذبة، تقدمت نحو أبيها وأسقته تاركة شلال الماء يتدفق اليه ويرطب فمه اليابس و جوفه الجاف.

خلالها كانت تفك قيده متمكنة من ذلك على نحو بارع استغرب له الزوج متحسسا رسغاه الحاصلان على اثر بسيط جراء القيود الصعبة..

- ما باله؟؟.

ثم انقض على الفواكه يلتهم ما لذ وطاب حتى ملأ بطنه مبتسما..

- لماذا يبتسم هكذا؟!!

رد على زوجته بلا تركيز:

- ماذا.. قلتيبيبي؟

وضعت تفاحة في فمه حمراء محافظة على رذاذ
الماء وقالت بحنان:

- خذ يا زوجي العزيز.

قضمها بعنف واخذ يعضض متجاهلا صوت فرقعة
صادرة من التفاحة، وقاطع تفكيره في الأكل صراخ
حاد:

- آااررخخ.. آآ!.. أيها الداع...

رشّته حُماته بالدلو كله ليستيقظ من نعيمه
وأوهامه:

- ما لذي يحدث؟.. أين زوجتي.. وأين هم...

قاطعه صوت رجل دائري الرأس الحليق وعينان
سوداويتان قاتمتان، مخيف الوجه والمظهر بلباسه
الأحمر مرتديا درعا وسروالا فضفاض ورداء وحذاء
من نفس اللون يشتركون في نفس اللون الأحمر
الباهت، كما يوجد على صدره رمز عائلة سيمر:

- يومان بدون طعام أو شراب.

تدخل رجل سمين مستدير الراس يملك لحية
وشعرا الأول ملتف الى الاعلى والثاني للأسفل، فقال:

- لقد وصل لتوه في عشية البارحة.. وقد فعلت ما طلبته مني تماما.

حذق فيه السجين حانقا:

- هل طلبت مني البقاء معك.. حتى المساء.. لتفقد...

بتر الخمسيني عبارة السجين:

- فهمنا قصدك، ودعني أكمل مكانك.. حسنا، لن افعل، فكرة غبية.

قهقهه فتبعه الجميع سواء من في الداخل او الخارج مجاراة معه، التفت الخمسيني الى السمين قائلا:

- هل أدبتموه؟

أماء نافيا فرسم القائد ابتسامة مصطنعة وقال:

- جيد، هذا ما نريد.. وهل اخبركم بمن ارسله؟

مجددا اماء نافيا فأخفى القائد ابتسامته واطهر ملامح غاضبة ثم دنا من السجين:

- ليس لدينا متسع من الوقت لعنادك.. من هذه اللحظة الى اخر نفسك قرر اما تخبرنا او تغادر الى الابد.. العالم جميل اذا غيرت رؤيتك له فلا ترحل عنه وتذهب الى الجحيم.

صفر القائد فدف رجلان مخترقان الضوء المساط على مدخل الباب، شاهدهم السجين كظلال تراقصت حوله فحملته مرتسمة وجهها خبيثا اسودا وجرتة الى الساحة فقبل تربة الأرض، احس قدم القائد فوق ظهره المقوس وكذا رأى ربع جذع امامه ففهم انها النهاية ثم شعر الرجلان يحملانه للداخل ويلقيانه ارضا بعنف اكثر من السابق وعاد الرجلان يحملان دلووا ضخما قربوه الى وجهه وهو جاثم على ركبتيه إذ شم أقدرا رائحة في حياته، سائل أصفر ممتزج مع الاحمر، وسمع القائد يقول ساخرا:

- ارجو مسامحتنا لتقديم دلووا قذري.. هذا ما نملكه حالا.. أو يمكنك إطلاعنا بما نريد فتعيش الى اليوم الذي نحضر فيه دلووا أنقى ونشتري أداة مريحة لإعدامك أو تعذيبك.

صاح القائد فأسرع الرجلان يدخلان راس السجين في الدلو لمدة وجيزة ثم صاح فأخرجوه وكرر الصياح عدة مرات فتوالى الإدخال والإخراج وتظهر الفقاعات الداكنة كبركان على وشك الثوران فيما يقول:

- اسقيه جيّداً!.. أدخلاه.. أخرجاه.. أدخلاه.. أخرجاه، أدخلاه، أدخلاه، أدخلاه.. أبقياه كذلك.. أخرجاه وأدخلاه وأخرجاه وأدخلاه...

جنّ جنون يضحك عاليا ولسانه يخرج مرفرفا أما الرجلان بديا كأنهما يبتغيان الصراخ بدورهما كون

القائد أزعجهما، لكن فعل ذلك يُعدّ انتحاراً، وأشاح السمين وجهه عن المشهد رافضاً الرؤية وممتعضاً من الفعل، ثم قال القائد حازماً:

- عفوا، بالغت قليلاً.. توقفاً.

هدأ الرجلان يلهثان وخرجا مطأطأ الرأس بينما تطاير شعر السجين الأسود وتطايرت معه قطرات واطلق أثقال متتابعة لإحساسه بمذاق الزوجة مع الملوحة. أراد القائد توقف السجين عن الثقل المقزز المستمر فمنح له كوباً ماء صالح للشرب:

- خذ هذا وتوقف عن ذلك الفعل المشمئز.

بعدما شرب الماء متلهفاً وجد نفسه يقبل التربة مجدداً ثم وضع الرجلان عنقه على حافة الجذع وسمع سيف يخرج من غمده وكان القائد يلعب به ويدوره أفقياً وعمودياً.

بشكل مفاجئ استعاد السجين ذكرياته حينما جاءه زبونه الأول وذهباً إلى منزله ملتفان حول نهر طويل للوصول وبعدما أصلح الباب طارداً شكوكه حول أنه كسر عمداً لأنه لم يتكبد العناء في إصلاحه، من ثم حثه السمين على المكوث لتبادل الأطراف الحديث بحجة عدم امتلاكه للمال حالياً فطلب منه المبيت ريثما يأتي صاحبه بالمال من التجارة التي ستدرّه ذلك، فقرر السجين الاستجابة بغية استخراج معلومات قد تفيد في

مهمته، ثم استغرقا في الحديث ولمّا حلّ الليل وكان السجين غارقا في الكلام لم يدري عدم حصوله ولو على معلومة صغيرة بسبب دخولهما في مواضيع لا يتحدث عنها أصلا الناس.

أخذه السمين الى منزل متفحم بجانب الباب مجرّفة، وأشار له:

- هنا كما أخبرتك رؤوس الحيوانات التي اصطادها والدي صابر.. تفضل أولا.

دلف السجين وخلفه السمين فالتفت قائلا:

- وأين هو والدك الآن؟

أجاب به راس المجرّفة الذي طرحه مغمى عليه، فاستيقظ على ركلات الرجال كما استفاق من سهوه على ركلة في مؤخرته وهو يلحق ربع الجذع، زفر القائد قائلا:

- سهوك لن يخفف ألم الموت.. بل أخبرنا بمن أرسلك ولمن تتجسس لصالحه هو من سينقذك حتما.

أعاد السجين التفكير مليا وردد في داخله: { سأموت من أجل عائلتي.. سأموت من أجلهم وإلا سينتقمون منهم اذا فضحتهم لدى هؤلاء}.

صاح القائد عاليا وقائلا:

- ارفع!.. أرسله الى الجحيم!

تمنى السجين الموت على منوال هادئ في مكان بعيد عن هذه الضحكات المستفزة والقهقهة التي تقتله قبل السيف، وسرت في جسده قشعريرة مريبة، يحس بالبرودة وتلاحقت انفاسه حتى صعب عليه التقاطه، وصلت البرودة الى عنقه حيث قبله السيف البارد ساكنا في مكانه، صاح السجين كاتما: { واصل.. لا تتوقف، أتحاول نفاذ صبري واستفزازي؟.. عبثا تحاول ايها المجرم }، وأخرج صياحه للعلن:

- كلكم مجرمون لا انتم ولا هم كلكم سواسية.. جميعا ستذوقون الويلات قبيل ملاقات حثفكم.. لا عزاء لكم ايها الملاءعيين!.

- تصرخ افضل من زوجتي.. انهض فلقد اجتزت الاختبار.. لو انك صمتت لكان اشرف، لكنك افسدته بالحب.. لا تريد حتى النهوض ولا تريد اخبارنا.. ماذا تريد؟

نطق كلمات ضاحكا بينما انهض الرجلان السجين ونفضا ثيابه البالية، فقال احدهم متهكما:

- فقت رائحة زريبة الخنازير وحظائر الانعام من ناحية القذارة.. وعجبا امتعضت من الدلو الذي كنت أوسخ منه.

التفت السجين الى القائد يرمقه غائظا فقال:

- تترك كلابك تتحدث متى شاءت لتظن نفسك واحد منهم وتزيد ولأئهم.. لكن ستراهم ذات يوم يتغوطنون على جثتك.

صفعه الرجل ناهرا:

- احترمه.. هل ستبدأ بالسب كالنساء ام تنصت لحديثه؟

اشار لهما الخمسيني فامسكاه دالفين الى المنزل برفقة السمين وتبعهم بعد برهة وظلا معه هو والسمين لوحدهم جالسين حول طاولة مستديرة، امتنع القائد عن النظر اليه لكنه لم يمتنع عن محادثته بنبرة خفيفة:

- لنسرع في الحديث ونذكك تغتسل.. تشبه زوجتي عندما تستيقظ، وابنتي عندما خرج من بطنها.

- حتى حقير مثلك يملك ابنة.

- اذا انا واياك الحقراء انعمنا الله بقرة أعين.. اشعر بالخجل حينما احادثها لأنني اضطر الى ارتداء قناع الرجل العادي امامها وامام والدتها.

- وانا لا اضطر.. بل لو لرأتني زوجتي بهذه الحالة ستضحك من اعماق قلبها.

تدخل السمين مجددا ومستوقفهما:

- هل سنتطرق للموضوع المهم ام ننشغل بالمشاكل الاسرية؟

ابتسم له القائد قائلا:

- انتظر حتى تعيش ذات يوم مع زوجتك في منزل واحد
وستفهم ما نقوله.

- حفظني الله من ذلك.. تمنى لي الخير يا سيدي، ما
هذا الذي تقوله؟

صفع السجين الطاولة قائلا:

- من انتما؟

لبث القائد قليلا ليقول محققا في السقف:

- من نفس الاشخاص الذين جندوك.. صراحة امقت
تمثيلية اخي الذي صدعني بضرورة اختبار المجندين
فنستعد كل هذا الاستعداد لإجراء مسرحية سخيفة حتى
نقيس ولائك.

عمّ صمت للحظات ثم قهقهه فيما يحدقانه غير
فاهمان سبب ذلك وقال موضحا:

- وحينما سألته عما نفعل مع المجندات اخبرني ان
نضع صرصورا فوق راسها وستتعرف انها اغتالت
رئيس الوائليين السابق.. آه نسيت لا تفقه شيئا عن
التاريخ.. لهذا وجدت نفسك هنا.. ادرسه قبل ان تجد
نفسك تكرر ما حدث معك.

صفع السجين الطاولة ثانية وقال:

- ممتاز.. تعرف التاريخ او لا تعرفه لا يهمني.. كأنك ستعرف به تاريخ مؤخرتك وما مرت به.. ما يهمني شرح ما لذي يحدث يا ابناء الق...

اخرسه السمين ملقيا كوبا على راسه فعم الصمت ثانية ثم قهقهه القائد فالتفتا اليه السمين مبتسما والسجين غاضبا، ولم يوضح القائد سبب قهقهته فوقف السجين متوجها الى منضدة ملتصقة في الحائط عليها شتى انواع المشروبات فصب له عصير بني قاتم وأرتشفه متهكما:

- ما هذا؟.. عصير التربة.

نقر القائد الطاولة وبدا في الاستفاضة:

- هذا السمين هو ناصر من اعز الموالين ونحن نكافئهم جيدا.

ابتسم ناصر كعادته و ظل السجين محادقا في الحائط قائلا:

- هذا سبب سمته اذن.

كان القائد يتحدث دون توقف:

- وانت لم تعد سجيننا بعد الآن.. خذ راحتك.. المهم، مهمتك الحقيقية هي الانخراط في صف مرتزقة معظمهم مجندين مثلك.. كما لا تعلم الملك الراحل اصدر امرا صارما يقضي ارسال مؤونة الى المعسكر الشرقي

على الحدود مع الوائليين لتعزيز جنود مملكتنا وضد
العدوان الخارجي.. كما اصدر أمرا بالتجنيد الاجباري
للشباب، لحسن حظك صرت عجوزا لكنت ارسلتك اليهم
فضخامتك ستجعلهم يكافئوننا على احضارك.. ستجد في
بيتك صندوقا مليء ذهباً ان لم يفرغه اهلك بعد
وسنعطيك فأساً اقوى من عود الخيزران الذي كان
لديك.. آسف على الاستهزاء به لربما اكون جرحت
علاقتكما الحميمة كونك تكره زوجتك.. هذا جيد ستحب
البقاء خارجاً لنأ تعود اليها.. تماماً مثلي.

وضع نجيب الكوب ثم عاد للجلوس قائلاً:

- كلاً هناك فرق كبير بيننا.. انا متزوج بامرأة عكس
عبّاس الذي لديك.. لا تنظر الي هكذا انت من وصفته
اولاً.

- قل ما شئت لعله اللقاء الاخير.

- يا رب اجعله كذلك.

- هل ستقبل؟

- كم عملة ذهبية قلت ستعطيني؟

- ترد سؤال بسؤال.. اكثر من عدد شعيرات جس...

ا- قبل.. لا مجال للرفض هنا يا حبيبي.

نطقها صافعا الطاولة حتى تشقق سطحها فابتسم
لهما:

- يمكنكمما خصم عملة واحدة لشراء طاولة.. طاولة حقيقية، لا تعملوا تمثيلية مع البائع وتجنّدوه.. ما وظيفتي لدى المرتزقة؟.

نهض السمين واحضر خريطة فردها على الطاولة واطلق القائد صوتا رخو:

- هناك ستجد مكان مملكة الوائليين في اقصى الشرق.

- أغلظ صوتك ولا تخاطبني كزوجتك.

- في مخيم المرتزقة اربع قادة هم من سيعلمونك ببقية المهمة.. وثق بنا ليست هناك تمثيلية أخرى.. من هذه اللحظة الى صبيحة الغد سيتكلف شخص بتدريبك حركة تناسب سلاحك.. لا يزال متسع من الوقت حتى تتقنها وتستطيع اتمامها عند مكوثك في المخيم.

كان الهواء اختفى من امام انفه فلا يقدر على التنفس بيد ان تفكيره انعش جسده الذي استحال عرقا والجبلي يحاول تطبيق الحركة الخاصة بفأسه، يدر به رجل منتفخ وطويل القامة في صمت مستفيدا من جسمه لإيصال الفكرة، وظلا يتدربان حتى غشى الظلام المزرعة كلها واستلقى الجبلي على سريره يلتقط انفاسه وهو عبارة عن غطاء فوق كومة قش.

تنفس الصبح في لمح البصر نظرا لكون الجبلي مرهق من التدريب فصبا ذلك الرجلان عليه ماء من

سطل وبدون تجفيف ملابسه عقد رجلاه جالسا على الارض يأكل فطوره لوحده فأتاه ناصر مبتسما:

- شارفت ان تكون واحدا منا.

- سأقبل بسرور لو انكم ابتعدتم عن سفك الدماء وخطف الناس هكذا.

- ولكن هذه الطريقة من أسست الجماعة، والغاية تبرر الوسيلة.. كل هؤلاء الرجال بعضهم كان سفاحا ملئ دما والبعض سكير بئس وثلة هي الاغلبية ضعفاء خائعين.. انظر لهم الان كيف صاروا.

خلال حديث ناصر أنهى نجيب فطوره المتضمن كسرة خبز ووعاء عليه الزيت وكوب شاي بالإضافة الى طبق صغير فيه زيتون كل وحدة في لون إذ التهم الاخضر والاسود والاحمر. نهض نجيب واضعا كفه على كف ناصر للنهوض ثم قال مستمرا في مضغ طعامه:

- قلت تلك الطريقة أسستكم وهي نفسها من ستهدمكم.

غادر نجيب مع رجل نحيف سيريه الطريق الى المخيم وكذلك سيأخذ لجام دابته كون نجيب مغمض العينان، بلغا منطقة غابوية تحتلها اشجار البلوط العملاقة والكثيرة وأعشاب الربيع تشكل بحرا اخضر في شتى البقاع.

استمرا في المسير يدغدغ نجيب فأسه مما تذكر
ذلك العمود الخشبي، تحركت شجيرات تجاههما ففزعت
الدابتان وصدر من احد الشجيرات صوت مبوح:

- المجهول، المجهول.. ماذا يفعل هنا؟

كما اخبره مرافقه انه سيظل صامتا فعليه هو
محادثتهم واعطائهم كلمة المرور، فور سماعه لجملة
الشجيرة تكررت مرتين انبلج وجهه عالما انها الاشارة
المرجوة، ودون تردد بعدما نزع عنه العصبة جهر
الجبلي قائلا:

- المجهول، المجهول جاء ل...

كاد نسيان آخر الكمة لولا تمالكه لنفسه وإحكام
رباطة جأشه ليتم طاردا الحيرة:

-...لحتفه هنا.

لو اعدا قول {جاء} ثم اكمل لكانت نهايته
محسومة، لكنه سيطر على الوضع معتبرا الامر غير
مدعاة للفرع القاتل. صعدت الشجيرات فوق التلة
العريضة على اطراف الغابة، وناذته صائحة:

- لا حاجة للمعروف في بقاءه مكشوف.

لحق بها متريثا الى ان قادته للأعلى صاعدا في
جرف تغطيه التربة المنبتة لنباتات معدودة. عادت
الشجيرات الى موضعها الاول ما عدا واحدة ما إن

وصلوا للمخيم الضخم، تخلص صاحب الشجيرة منها فظهر رجل نحيف يشبه المرافق الذي التفت نجيب باحثا عنه فلم يجده واعتقد ان مهمته انتهت، يثبت النحيف خنجرا في خصره وما زالت آثار الشجيرة ملتصقة في جبينه وخديه، عقل نجيب خيله بغصن شجيرات حقيقية وسار خلف النحيف محذقا فيما حوله وفاغرا فاهه.

أسرع نجيب يتبع الرجل لكي لا يتيه وسط المخيم الواسع والعريض، طرقاته المليئة رجالا ونساء جميعهم مجندون يوشك الارتطام معهم اثناء سيره كما ان الجميع يتحدث بنبرة خافتة لئلا يثير شكوك المارين والمسافرين، والمليئة ايضا خيما عشوائيا تجعله يدور في مكانه لكنه وثق في الرجل حتى تجاوزوا موضع الخيام خارجين الى مساحة متوسطة فارغة منهم وقبالة نجيب فجوة كهف سوداء ابتلعت الرجل ففكر نجيب مليا قبل ملاحقته ثم اخترق الظلام الذي سرعان ما طردته خيوط الشموع المعلقة بواسطة شمعدان فوق الارض وتحت السقف وفي الجدران، تضئ الكهف الممتد طولا والمتسع عرضا.

ركزت اضواء الشموع على بقعة يحوم اربعة رجال ذوو البزة الأنيقة والكؤوس المزخرفة يحظون بأذن المشروبات حيث تبين لنجيب في زاوية غير بعيدة

اعداد كبيرة من البراميل المفتوحة تتوفر على الاطعمة،
اما المغلقة تحتوي مشروبات.

قدم له النحيف شربة ماء وافرغ الكوب معيده اليه
فغادر بعدما سقى الاربعة إما بالماء او ارم او الكوف
او النبيذ. تمت نجيب ساخرا من المؤونة التي
يمتلكونها: { مساكين المجندين لا يدرون عن حجم
الموارد الغذائية داخل الكهف، فهؤلاء القادة يتمتعون
بها كما ارى.. يا لحمافتي! صرت انا ايضا مجند ما
يعني اني لن اشبع مثلهم ولا يمكن تحريض المجندين
على اخذ حصة كبيرة من المؤونة فليست مهمتي إثارة
المشكل، بل هذه فترة سوف تمر كوميض البرق. }

خاطبه قائد سمين كالدب لا من حجمه ولا من
صوته ايضا:

- هل انت هو نجيب، المجند الجديد؟

كان الدب يخاطبه فيما تقرأ عيناه ورقة صفراء،
وردّ الجبلي حازما:

- أجل، سيدي.

عاد الدب للحديث معه بعد برهة:

- اذا فانت وافقت على هذا الامر؟

اماء براسه ايجابا وحتى لو لم يراه الدب يموء، ثم
سأله آخر ضخم اقل من غريمه الدب فقال:

- فانت موثوق بك إذن؟

حول نجيب نظره اليه واجابه على مضض:

- نعم، سيدي.. لـدي الكثير لأخسره إن خذتكم او خنتكم.

وجه له الثالث ذو الجسم المعتدل سؤالا اخف من نبرة صوته:

- اذا انت ستؤدي مهمتك حتى آخر رمق؟

تردد في الاجابة عن الاسئلة المستفزة غير انه عقد العزم قائلا:

- سوف اضحي بنفسي إن قدر لي الموت.

ختم القائد الاخير صاحب قلنسوة النمر الابيض:

- إذا، فانت مرحب بك.

اكتفى نجيب بالابتسام غير دار عن كونه سؤال ام مجاملة ثم اصغى للدب حينما لاحظته يتململ لقول شيء:

- حسنا، يا نجيب الجديد.. أذهب والتهي قليلا قبل بدء العملية.. ونم جيدا.. جيدا جدا.

استغنى نجيب عن سؤالهم حول وقت بدء العملية، وجرّ خطاه الى الخارج مستنشقا عليل الهواء المنعش في الليل، وطفق يجول في المخيم مكتشفا اياه شبرا

بشبر ولاحظ وجود خيام صغيرة فطن انها للمجنذات
حيث يجلسن بقربها، واسترعاه مزاح مجنون يقذفون
الحصى او العصي الغليظ على اوراق شجر البلوط
فتساقط بعضها وتتأرجح الاخرى ما بين الوقوع والثبات
بينما يتهافت بعض الرجال على الحبات المتساقطة.

ناداه رجل لم تثبت اية شعرة في ذقنه عكس اديم
راسه المنبت لشعر ارجواني طويل يشبه الديك، كان
يشذب ذقنه الخالي باستمرار حتى صار مدمنا على فعل
ذلك. تمدد نجيب على الارض مثله واستند على مرفقاه،
في حين اتكأ زميله براسه دون مسند فوق الارض
ويثني ركبته ماسكا كوب لعصير بني باهت شبه فارغ.

اشار نجيب الى الكوب مستغربا وتساءل قائلا:

- ما هذا؟.

- عصير القرفة.. صحي ومؤدي للتجشؤ، لكنه قابل
للشرب.

نبرته تشوبها الاستخفاف والبرودة ممتزجة مع
القهقهة، وخاله نجيب شخص مستهين بالحياة لا يهتم
شيء او احد فهب للحديث غير ان سبقه زميله قائلا:

- ابييه!، امسكوني وانا اسرق قلادة.. لم تكن يا حسرة
ذهبية.. ستسألني لما سرقتها.

وضع نجيب عود صغيرا ورقيقا في فمه باسماء: { لا
أحد سألك يا اخي}.

وأكمل زميله في المهمة ساهيا:

- كلاً، ليس لبيعها.. وإنما اردت تقديمها لـ.. حبيبتي،
وددت إعطائها لها كمهر، ولكن والدها الطمّاع لم يكفه
الجواد الابيض وديزينة نقود اللذان اكتسبتهما من عرق
اكتافي، وقد استفرد كلاهما لنفسه دونها و...

تأفف باترا حديثه وأعطى الكوب له ثم راح يمرن
بطنه يعدُّ ثم توقف لاهثا في الثامنة وتمدد ليخطف
الكوب منه قبلما يوشك نجيب شربه وأفرغه من ثم
القاه بعيدا والتفت واضعا ذقنه على قبضته اليمنى اليه
قائلا:

- هل انت متزوج؟

- آه.

- كيف هو الزواج.. جميل؟

- آه.

- لديك ابناء.. بنات.. أحفاد.. متبني.. زوجتك عاقر..
أوه انت العقيم.. ام أنك تمقت الصغار؟

التفت له نجيب بدوره يحدجه ثاقب النظرات قائلا:

- عندما ستتزوج سوف تصير رزينا ثابتا.. تزوج اذا
اردت التحول الى شخص واثق من نفسه ونافع
لدولته.. وتوقف عن تضييع الوقت في الحديث معها

بغية الحديث فقط بل انتقلا الى مرحلة جدية وإلا..
ستمل منها حينما تتزوجها.

- هذا ما حدث معك.

- آه.

نهض الزميل نافض عن ثيابه ما التصق به
وابتسم قائلاً:

- انا نزار.. سوف يتذكر دائماً نصيحتك.

مد له نجيب يده كإشارة لإعانتة على النهوض
فاستغرب نزار قائلاً:

- ابقى مستلقيا لان هنا سننام.

توجه نزار خلف الشجرة واحضر معه وريقات
الشجر والتراب يحملهما في ثيابه وخلعه ملويا عليهما
ثم وضعه ليسند راسه عليه عاد لخلف الشجرة ثم
احضر اوراق شجر كبيرة جعلها غطاءً ونام. بحث
نجيب عن التربة والوريقات والاوراق لكنه ما وجدهم
فضحك لما تذكر ان القائد ملهام منحه وسادة وغطاء
فأخرجهما من سراج حصانه الذي نزع عنه لكي
يرتاح وينام، ثم نام نجيب بجوار نزار تحت ضوء القمر
المتلألئ..

... بووم.. بوم.. بوو—بوو..دق.. دققققدق!..

استيقظ جافلا ثم ايقظ معه نزار وهو لا يستوعب
ما يحدث كما تنبه كون الليل ما يزال يرخي أسداله.
سمع الهرج يتصاعد والجميع يركض هنا وهناك سواء
يرتدون ثيابهم الحربية او منهم من كان نائم بها التي
عبار عن قماش ابيض فوق درع خفيف اسود وحسب.
شاهد القيادة الاربعة متألقين بدروعهم المعدنية
والواقيات في كل مفصل من جسدكم وكذا خوذة معدنية
وواحد يحمل ترسا برونزي لامع، وترفرف على
اكتافهم عباءات ثبتتها حلقات.

لكزه نزار لكي يوقظه من سهوه في التحديق
فوجد زميله قد ارتدى ما يقه إذ يحمل ترسا من خشب
البلوط رفعه قائلا:

- كوني جئت الى هنا قبلك لا يعني اني ظلت خاملا بل
انظر ماذا صنعت.

- احذر ان ينكسر بسرعة.

- لا يهم، سأكسره على جمجمة احد.

صاح فيه نجيب ناهرا بأصبعه:

- اياك ان تقتل الجنود.. لا تعصي اوامر من ارسلونا
والذين نهوني عن سفك الدماء الا قصد الاسر حيا او
افقادهم وعيهم.

- تجاهل امرهم خير لك.. هم سيقتلونك بلا هوادة وانت
تفكر في حياتهم.. تعسا لك!.

انطلق مغادرا فاستوقفه نجيب صائحا ليلتفت حانقا:

- ادعى نجيب.

هدأ نزار من روعه وزفر مرتاحا ليرسم شبح
ابتسامة قبل انطلاقه من جديد راكضا. وقف الجبلي
يمدد جسده والتقط فأسه الحاد الشفرة ثم اندفع نحو
الاسفل تماما كما شاهد الجميع يتجه هناك وكذلك
صوت البومة صادر من الاسفل.

اثناء اندفاعه لمح عربات تحمل ألواح خشبية ثم
قطع ثلاث دوار منها، اثنتان صغيرتان والوسطى
كبيرة، ففهم انها للأسرى حيث ستدخل يداه ورأسه في
الدوائر التي يمر خط ينقطع كلما مر من دائرة ثم
يوصل المسير الى الطرف الاخر ما يعني ان الألواح
تفك وتركب من اجل سجن الاسير.

كما لاحظ إمساك زمرة من المجندين لتروس
وبلطات عرضها افقاد الوعي لا القتل مما جعله يطمئن
ان التحذير يتذكره الجميع. بلغ الى أسفل التل
المنحدرة، وكان القتال قد حمى وطيسه.

لهُو مشهد غريب عليه وهو يرى رجال
يتساقطون كأوراق شجر البلوط الذي شاهده آنفا،
وتعجب من تشابه ذلك مشهد مع الحاضر في تهافت
الرجال المنتميين لجانبه على الجنود السيمريون الغير
المرتعددين، ووجد البعض يقذف عصوان صوب رجال

القافلة، فاندesh من طابور عربات طويل: } اذا المهمة
تتطلب اغتنام الطابور، وصاح احد القادة الاربعة:

- اسرعوا في اسرهم حتى نأخذهم لمقر الوائليين..
سيكافئوننا جيدا.. قاتلوا!

فوق راس نجيب حلقت حصوات امطرت على
الجنود فالتفت الى الرماة ليجدهم مشكلين صفا فوق
التل ويستعملون مقلاع يدوي صغير وحجارة مقببة
الجوانب، وكذلك رأى صف آخر يدفع بأرجلهم صخورا
ضخمة صلداً تتدحرج محدثة عاصفة التراب والنبات
المتطاير جراء تأثير شدة الصخرة التي تدهس اقدام
الجنود او ترفعها حجرة متجذرة في الارض لتطير
الصخرة عاليا حتى تلطم الرؤوس المجهولة والصدور
الجافة.

استحسن الجبلي كون بعض الجنود مغمى عليهم
وليسوا مخضبين بالدماء حتى لا يشاهد بشاعة المنظر
الدموي على اجسادهم. قطع تفكيره جندي كان راكضا
تجاهه وعند اقترابه منه هوي بسيفه على كتفه، فتمكن
نجيب من تفادي الضربة في اللحظة الاخيرة نظرا لأنه
حدق فيه مشدوها وشك حتمية محاولته لقتله وتبدد
الشك جاعلا الشاك يرجع للوراء مستغلا اختلال توازن
الجندي الذي عول على ضربته فمدها بالقوة واستقبل
قوة لكمة الجبلي المتكررة واحدة تحت ابطه والتالية
على خده، اعقبها لكمة تحت الذقن رفعت الجندي من

الارض مرتميا الى وراعه ومفجرة دماء مسيلة من فمه
مما حقق مبتغى نجيب حين سقوطه مغميا.

سرّ نجيب لذلك إذ خال الأمر هين على ما يبدو
ولهذا غرس نص فأسه في تربة الارض، وتحفّزت
قبضتاه للمزيد فشمر عن ساعده معتمدا على يده،
وحدّق في كل جانب من ساحة القتال فتبينت له العربات
التابعة للقافلة مركونة وسط المعمة، كما أنشق الغبار
عن تراب الارض مشكلا دوامة بنية قاتمة اللون، تعمي
الابصار وتخنق الصدور، شكّلتها كثرة وقعات اخفية
الجنود مع شدة تأثير ارتطام المغميين على الارض.

فمنهم من سقط طوعا بخلاف من اكرهوا على
الوقوع حينما يرفع ضخام قطاع الطرق الجنود الصغار
الحجم ثم يخبطونهم على سطح الارض الصلب
بعنفوانية تمزق اجسامهم الرخوة وتكسر عظامهم
الهشة، صدمه المشهد من افعال العمالقة لسفك الدماء
اهون من كسر العظام.

احتاط الجبلي خلفه وامامه خيفة ان يغدره رجل
فبينما يجاهد المجندون على عدم الحاق الضرر بالجنود
كان الأخيرين مستلين سيوفهم ولا يترددون في طعن
احد او قتله.. لا يعلمون بالمكيدة التي دبّرها الملك
بنفسه!

حدج ساخط في جندي قد احكم قبضته على مجنّدة
وصار يثقل عليها تارة، ويمطرها صفعات تارة أخرى،

وبين الحين والآخر يحاول فسخ ملابسها غير انها
مدرّبة تواجهه اما بليّ يده خلف ظهره او اذا كان
ماسكا يدها تعضّ ذراعه ثم تنطحه. اعتبر الجبلي ان
ذلك غير كاف فهم لإنقاذها راض اتجاههما حتى وجد
نفسه بين الجنود الذين تطايرت شباك للصيد مثبت فيها
احجار لزيادة ثقلها وكذا تمّ تبليل الحبال بسائل لا يصلح
معه الشفرات من اجل قطع الحبال ولا الامسك قصد
ابعادها عنهم، لا رقصاتهم نفعت ولا خناجرهم اسعفت.

لم يفقه الجبلي سبب عدم اكتشافه لتلك الشباك
اثناء اقامته في المخيم، واكتفى معتقدا ان المخيم ضخم
ربما يتوفر على ادوات جمّة مخفية. استعاد رباطة
جأشه وعزمه بغية انقاذ المحاربة المسكينة حيث رأى
ثلاثة جنود يحيطانها وفي شماله مرتزقة فوق العربات
يلقون الشباك كل واحدة يمسكها اربعة، لذا انطلق يعدو
مسرعا نحوها، نحو دوامة الغبار الاسود، نحو أكوام
الرجال المفقودة وعيا والمفقودة روحاً.

ترحم عليهم سرّاً مانعا نفسه عن النظر للأنهار
الحمراء تحت قدماه كان يطأ بقعة ملأتها الامطار في
حين ملأت هذه البقع من شلال منبثق من الاعناق
والبطون المفتوحة.

استأنف سيره مهرولا حتى مرّ بجانب رجلين
يتقاتلان ويتقارعا بالسيوف، كان الاول بارعا بزّي
قطاع الطرق أمّا الثاني ظهر منظم ومدرب أكثر

تتخضب الدماء في قميصه المعدني ذو الحلقات الرنّانة،
وطُليت على القميص الأبيض من ناحية الذراعين
وعلى الدرع الاسود في الصدر.

أخذا يتبادلان الادوار في الهجوم والدفاع ريثما
يستبين أحدهما ثغرة لحسم النزال وقد بدا ان جندي
سميريا نجح لَمّا رفع سيفه هاويا فانتظر المرتزق حتى
يرفع سيفه للصدّ فركله الجندي في بطنه ركلة كالمدفع
القتة تجاه نجيب الراكض وسقط عليه باسمًا وقائلاً:

- الحمد لله احضر لنا من يخفف وقع السقوط

- نزار؟!!

لم يبادر منه ردّ إذ وقف مندفاعاً جانباً ليفلت من
هجمة الجندي الموجه نصل سيفه افقياً ناحيتهما، تفاجأ
نجيب من حركة زميله ظاناً انه غدره فظل محدقاً في
عينا الجندي لعّله يلقي في قلبه الرعب لكن هو من
افزعه مطلقاً ضربته التي لها اتجاه واحد بطن الجبلي،
ثم ارتطم نزار مع الجندي دافعاً اياه عن نجيب وارتمى
نحوه يحاول تثبيته في الارض كأنه ثور هائج.

استغرق من نجيب وهلة حتى يفهم ما جرى ملتفتاً
صوبهما وسرعان ما انتفض راغباً في مساعدة زميله
الذي يخنق الجندي فيما يقول:

- ابحث لك عن غنيمة اخرى يا نجيب.

تذكر نجيب تلك المحاربة وراح يلتفت خائفا على مصيرها ثم زفر مرتاحا حينما رأى مجندات من بينهن المحاربة قد ابرحوا الجنود ضربا وهم مددين على الارض ولا يزلن يرفسن أجسادهم حقا ويثقلن عليهم، كره حركاتهن الاخيرة كونها مخالفة لأوامر الأسر فالإسراف في الضرب ربما يؤدي للقتل.

جاهد باحثا عن القادة الاربعة ولو واحد منهم فلم يجد لهم خبرا او ركزا، مرّ من امامه مرتزق عيناه متقدتان وأنفاسه متلاحقة متعطش للضرب إن لم يستطع القتل ففكر نجيب متجاهل الحيطّة والحذر: { تشير ملامحهم الى رغبة دفينّة في الاعتداء على الغير.. ليسوا كلهم مثالي أناس عاديون بل منهم المجرمون كما اخبرني القائد ملهّام انهم يحضرون بعض المجندين من السجون.. والآن هي فرصة لهم لإبراز غرائزهم الحيوانية حيث لا رقيب عليهم ولا محاسب ولن يخافوا من قوانين المملكة الصارمة تجاه أمثالهم.. بل الطريف ان القانون هو من سمح لهم اسر الجنود مهما تطلب الامر شريطة الأ يرهقوا الدماء بغزارة او يزهقوا الارواح}.

استفاق من التفكير المفرط واجدا نفسه مفترش الارض وخدّه يؤلمه، تنبّه لجندي امامه يتحرك متحفزا للقتال ومبتسما قائلا:

- ستخذ الى النوم سواء عبر سهوك او قبضتي.

حاول نجيب النهوض لكن الجندي ركله فتمدد مجددا، وقرّر التظاهر بالنهوض حتى يفعل الجندي حركة من حركاته ثم يفاجئه بركله هو عوض أن يُركل، بعيد ذلك وجد نفسه مددا على الارض ثالثة ووجهه متسخ من حذاء الجندي، وباغته متدحرجا على جانبه الايمن ثم استطاع النهوض مستقبلا لكمة الجندي فهذه المرة تمددت فقط مؤخرته الارض وهو واضعا يدها على ركبته المثنية يلهث لاعنا حظه مع هذا الجندي الممل الذي يثرثر:

- ..وكذلك ضربت ابن عمّي.. وأتى ابوہ ليضربني فأبرحته هو الآخر ضربا.

- هل ذاك هو ابن عمّك؟

لم يلتفت بل قال:

- نعم صدقت خدعتك السخيفة.

وسقط مغميا عنه جراء ضربة في العنق بترس نزار الذي طفق يقفز مبتسما ومتحمسا للقتال:

- هيا، نمنحهم نوما هنيئا.. جرتي في القرية معها حق لذي القدرة على جعل الفتيات يغمين من شدّة وسامتي.. لكنها لم تعلم اني استطيع اغماء الرجال من شدّة قوتي.

- حقا!.. وماذا عنه؟

أشار الى الجندي الذي أطلق أنين ووجهه ملتصق
بالتربة فهوى عليه نزار بالترس يضربه حتى انبثق
من عنقه خط رفيع احمر ما جعله يضحك صافرا:

- أجل!.. يملك دماء ملكية.. الملك الراحل لا يتوفر على
هذا النوع.. أم أنه...

- أعتقد أنني والدك لأنهرك دائما.. الاوامر تقتضي عدم
سفك الدماء الا للضرورة.

أخرج نزار خنجرا من غمده الذي في الخلف وقذفه
ناحية جندي كاد يصوب سهمها ناحية ظهر الجبلي،
فالتف الاخير مرتجفا ثم اعاد نظره الى نزار هامسا:

- م-ما.. لا يمكنني إيقافك بعد الآن افعل ما تشاء.

- حاضر ابي.

ثم انطلق مهرولا في مرح وقهقهة شيطانية يرتمي
على الجنود ويهشم رؤوسهم بالترس. بدأت الفسحة
المتواجدة فيها الجبلي تتزايد بالمقاتلين من كل طرف
حيث شكلوا دائرة واسعة من الرؤوس المغبرة
والحليقة والمقطوعة. كان هو في مركزها تجذبه
الأيادي المجهولة اضافة انه يتخبط مع ظهر هذا ويتعثر
مع فخذ ذاك فيما تضيق عليه الدائرة وتخنقه.

تباعدت الرؤوس المشككة للدائرة فاتسعت
مساحتها وخرج منها رجلان قادمان اليه يزاران
ملوحان لسيفهما اللامعان من كلا اليمين والشمال.

استلزمه بضعة خطوات ليصل الى الشِمالى ويمسك
تلابيبه بكتا يديه ثم يجره حائما قرابة خطوتين
ويصوبه على اليمين دافعا الجندي على رقيقه الذي
تجمد في مكانه فارتمى عليه الجندي بعدما كسر كتفه
أنفه الدامي.

نهض الجندي مترنحا يبحث عن سلاحه فارتمى
على الجبلي ما إن وجده، كان الجبلي مستعدا بانبطاحه
قليلا حتى يوقف الهجمة بواسطة رفعه على كتفاه يدور
على نفسه دورات سريعة قصد تدويخ رأسه وما كان
احد ليوقفه لولا لكتما رقيقه مرتين في البطن ما دفعه
لرفع الجندي الذي يحمله عاليا من ثم رماه اليه فسقطا
مجدا بنفس الوضعية السابقة.

فور اطمئنان نجيب من كونهما تعبنا وقد ظلا
مستلقيان ليست لهما رغبة في النهوض امام هذا
الضخم، استدار خلفه محذقا في الجميع فرفع يداه صاذا
مرتزقا قد دفعه خصمه صوبه، نظر المرتزق اليه لاهثا
وخائفا:

- آسف، يا صديقي.. ظننتك منهم لكنت قتل...

بترت عبارته حربة اخترقت عنقه فتراجع نجيب
مرتعشا تاركا زميله يقع على ظهره وهو يصارع
الموت. لا زالت الحربة ملتصقة فيه وكانت المرة
الاولى لنجيب في سماع صوت تمزق اللحم والاختراق
بهذا القرب.

اقترب منه صاحب الحربة عازل يرمقه بنظرات
ثاقبة ثم نقل عيناه الى الحربة ففعل نجيب مثله فتلاقت
نظراتهما ثانية قبل تسابقهما للإمساك بالحربة.

استطاع صاحبها إخراجها من جثة الضحية، لكن ثمة
قبضتا نجيب هي الأخرى جذبتها اليه إذ أمسك الجندي
مؤخرة الحربة بينما احكم قبضتا نجيب النصل اللولبي
متفاديا الشفرة الحادة، وبسبب تبلل النصل من الدم
صعب امساكه فانزلق من قبضته المكورة بعدما تخلت
القبضة الأخرى عنه، وفاجأه الجندي تـؤرجح يداه
الحربة يمينا وشمالا، للأعلى والأسفل فتفصدت يد
الجبلي عرقا.

جالت في ذهن نجيب فكرة جبارة طبقها حالا عبر
فتح ذراعيه فجأة في اللحظة التي جذب خصمه الحربة
في عنف اليه فكأنما جذبته شخص من الخلف يجره
وقدماه تحاولان التوقف تحتك وتتأرجح مع التربة
المنثورة، وهيئات ان يجد غصن سليما او شجيرة تقى
شرّ الوقوع المؤلم لا سيما في معمعة القتال الحامي
الذي اجتث كل مظهر للحياة ومزقت الاحراش شر
ممزق، وقطعت الأغصان شذر مذر كأنها معركة لا
تبقى ولا تذر. وقع الجندي مرتظما رأسه مع صخرة.

تحفز نجيب للحاق به بغرض أسره فأخبره حدسه
أن يلتفت ففعل في حركة حادة مباغتة جفل لَمَّا أحد

الجنديان اللذان أسقطهما أنفا أمسك عنقه يخنقه ما أعطاه إحساس حلقه يتعصر جاحظة عيناه.

ضغط صاحب اللكتين يهزهز رأس نجيب البادي على وجهه احمرار شديد، كادت عيناه الخروج من محجريها.

خلال ذلك كان الجندي الثاني يصوب سكينه نحو ظهره، تحرك نجيب على نحو مخيف فلاصق بين سواعده عاليا، ثم هوى بثقله حتى سمع فرقعة كسر العظام جعلته يبتسم مغمض عيناه وخنق حلق خصمه أعقبه نطحة أخذته بعيدا فلوح له الجبلي موذعا إياه.

تنفس الصعداء أخيرا وليس آخرا، اعتدل في وقفته يستنشق الهواء لاستعادة عافيته لا يبتغي نزالا آخر وتجاهل اليد التي حطت على كتفه فأدارته الى صاحبها مستجيبا لها غير ان الجندي أنقذه حينما صرخ واضعا يده الممسكة بالسكين والثانية العازلة مطبقتان على رأس نجيب.

فهم مبتغي خصمه في النطح عندما أرجع رأسه للخلف قليلا، لذلك صفعه نجيب فاتحا ذراعيه ثم ألصقهما في آن واحد في رأسه صفعة توالى عاصفة من الصفعات حتى تخذرت يداه وأمسك رأسه يخفضه الى ركبته الصاعدة بقوة نحو انفه والثانية نحو ذقنه، أعادت الاولى الصعود نحو فمه فيما صعدت الثانية

بشكل أسرع وأقوى من غريمتها نحو الوجه كاملاً إذ ارتفع نجيب معها ترمي خصمه الى مرقدته الطبيعي.

توجّه الجبلي ناحية السكين لالتقاطه: { متى سأنتهي مع هذين.. كأنهما الوحيدان في المعركة }، انحنى يوشك إمساكه فأرغمته ركلة في مؤخرته على السقوط متجاوزا السكين.

أصبحا كلاهما يتربصان به متحسسان آثار الكدمات التي أحققها بهما، يفصلهم السكين بيد أن صاحب الركلة الأخيرة كان أقرب الى نجيب فانطلق نحوه أولاً قابله الجبلي رافعاً قدمه اليمنى ليمدّها في خفة بارعة تجاه صدره مما اضطره الى الارتقاء ساقطاً ينزّه الألم نزاً في مرفقه المستند اليه خلال السقوط المبرح.

حار نجيب بين تطبيق تلك الحركة التي تعلمها في المزرعة لكنه تذكر عدم تمكنه منها كلياً، تناسى الجندي الثاني وباغته حينما التفت ضاماً ذراعيه حول بطن نجيب وضاعظاً بجبينه على اسفل الظهر.

تجاهل ألمه مستجمعاً قوته المتبقية فرفع مرفقاه فوق رأسه ثم حطّهما أثناء هبوطهما الحادّ في كتفي خصمه المنحني، لم تغن الضربة كما تصوّر وهكذا قفز الجبلي ساقطاً الوراء بغية ان يكون فوق ظهر خصمه الذي ضغط جيداً ورفعته في السماء وإن كان حجمه ضئيل مقارنة مع نجيب فأطبقت يداه ممسكة رأس حامله تحول عصره أو تفجيريه ثم جعل إبهاماه يخترقان

العينان وفي هذه الحالة أفلتته الجندي لاعنا يفرك
العينان متألماً رغم انهما سليمتان.

نهض نجيب بسرعة لا يفكر ذرة في مؤخرته
المتألّمة من الركلة والسقوط، تتشقّ الهواء المختلط
فيه روائح القتلى ونبانة الجرحى، ثقل نجيب لاعنا:
- لن أنتهي منهما أبداً.

كان الجنديان يتحفظان للقتال ويحومان حوله
معتبران أنه فريسة صعبة المنال، التفت نجيب في
جميع الاتجاهات يريد إراحة عيناه منهما فشاهد
المرتزقة يفقدون وعي خصوصهم والبعض يفقدونهم
أرواحهم، طأطأ الجبلي رأسه: { هل عليّ قتلها.. هل
هذا هو الحلّ المتبقي؟ }.

رفع رأسه منتبها لصراخ زمرة من الجنود يقاتلون
رجلان، تبسم الجبلي قائلاً:

- نزار!.. حتى أنت في مأزق.. لماذا ليس معي شخص
نقاتل معاً هؤلاء؟.

أخيراً استفاق الجبلي متذكراً الجنديان فرأهما
منشغلان مع أحد القادة الأربعة أضخم من نجيب طويلاً
وعرضاً يحمل سيفاً يظهر صغير أمامه، اتجه نحوهم
هاتفاً:

- ابتعدا عن السمين!

ارتقى الجبلي مرتطما معهما فتمكن من إيقاعهما
وهما يسبانه:

- لقد تركناك في حالك.

- ضقتا ذرعا من حركتك السخيفة في إسقاطنا.

وقف نجيب بجانب القائد مبتسما له وقال:

- ظننت انكم أختبأتم ونبتم بأنفسكم عن المعركة.

رمقه القائد متأفف فقال:

- أهكذا تنظرون الى أسياذكم.. وهل باقى المرتزقة
يظنون كما تظن؟

ابتغى نجيب الدفاع عن نفسه فأجاب يهزّ كتفه:

- احتمال وارد من أمثالهم أن يحتقروا قاداتهم.

ثم دافع عن نفسه من هجمة الجندي متراجعا
للوراء لتفادي اللكمة المستقرة في خذّ القائد، وأما
الجندي الثاني كان يسدّد نفس السكين على بطنه حيث
انتظر الفرصة بفارغ صبر كون القائد ظل يراقبه غير
ان اللكمة جعلت ذهنه مشوش فأصدر أقبح صراخ
سمعوه لما اخترق نصل السكين بطنه ورفع رأسه كازا
اسنانه غيظا في حين كشف خصمه عن أسنانه الدامية
مبتسما في خبث.

فارت الدماء تغطي نصل السكين وقميص القائد
كما ثقل عليه الجندي شاقا حنجرته بعدما أخرج السكين
من بطنه وهمس في أذن القائد الجاثي على ركبتيه:

- لا تصرخ كعاهرة.. إنه مجرد سكين بسيط سوف
ينقلك الى عالم آخر بهدوء.

والتفت الجندي مخاطبا زميله:

- ابحث عن أي سيف، لا تقف مكتوف الأيدي.

ركض يبحث وخلفه نجيب يلحقه، قفز قابضا قدم
الجندي اليسرى وتعثر محاولا إمساك أيا كان فأمسك
سروال مرتزق يصارع جندي ونزعه من صاحبه
للتفجر ضحكات الجنود يسخرون من فخذ المنفتح
حيث قال مرتزق:

- لا يزال الوقت باكرا على فعل هذا.

اعتدل نجيب في وقفته مشيرا بسبّابته الى المتحدث
ينهره:

- لا تمزح مع رفيقك أمام العدو، يا نزار.

- حاضر أبي.

التقط الجندي الساقط سيفا من المرتزق المنشغل
مع سرواله فأولج الجندي نصله مخترقا ظهر صاحبه
ليخرج من البطن في صوت امتعض له نجيب وجذب
الجندي سيف يخرجته ثم استدار نحو خصمه الذي ملّ

من حركاته فراح يسدّد كالمجنون بينما يتراجع نجيب للخلف ويتحى على الجوانب يمينا وشمالا كما يقفز اذا مر النصل اسفله ويخفض راسه بمروره افقيا من الاعلى.

بلا إرادته دفع نجيب مرتزق حتى سقط صريعا وحلقه مشقوق ثم أمسك نجيب اثنان يتصارعان ورأى النظرات في المرتزق تخبره بعدم دفعه لكن الجندي هاجمه فاغض نجيب عيناه دافعا خصمه اولا ثم حمل المرتزق ورماه فوق الجندي الذي لتوه قتل زميله خطأ.

لما سقط المرتزق على بطن الجندي اسرع في التقاط سيفه من ثم مرقه من عنقه وزفر مرتاحا لقضاء نحبه، اندفع المرتزق صوب نجيب ملوحا سيفه فحذّره قائلا:

- إياك ان تفعل ذلك.. لم أكن انوي التضحية بك.

الجبلي يلوح بيده راجيا فيما سدّد المرتزق ضربة افقية مرت من جانب عنقه فاخترق النصل الفم الفاغر وسقط الجندي خلف الجبلي.

ألقى المرتزق سيفه حائقا وقال مزمجرا:

- كانت نظراته اليك غريبة.

- بالطبع، فقد قضيت معه وقتا مثيرا رفقة زميله.

نطق كلماته مرتبكا فارتطم نزار مع المرتزق ضاحكا واعتدل يصد ضربات أربعة رجال في براعة،

أنصدم الجبالي من المشهد: { يا لخسارتي، كيف استعصى علي اثنان لا يساوياني في كل شيء }.

جعل نزار راس احدهم يحلق عاليا فسقط متدحرجا حتى اوقفته قدم نجيب الذي حملته وقذفه في جندي اوشك على الانفراد بظهر زميله فابتسم الاخير له قائلا بنبرة ساخرة:

- استمر في نهري افضل من حمايتي.

التفت للجنود مستقبلا لكماتهم واحدا تلو الآخر يطأ خلفه مترنحا، التقط المرتزق السيف الذي القاه آنفا وغرزه في الجندي الساقط ثم ساند نزار في قتاله مع المتبقين، لكن جثا خصمه على ركبته ليرفع نصل سيفه مخترقا ذقن المرتزق وسرعان ما طير نزار رأسه قبل التفاته الى المتبقي الذي ضرب بقدمه ركلة نزار فأثناها ثم هوى بسيفه عليه..

..جفل نجيب لما رأى جندي يركض من امامه حاملا فأسه فغضب لذلك ثم هبّ بالانطلاق خلفه و بمجرد قطع خطواته الاولى صدمه مرتزق كان يتبع الجندي غير انه هو الذي وقع على الارض كأنما صدم حائط أرجعه للخلف، استأنف نجيب الركض لا يلقي بال له، واخترق الضجيج والأمواج البشرية الهائجة تنفخ الرياح أودية الجنود وترفرف سراويل المرتزقة الفضفاضة.

أخذ الجبلي يبعد عنه الرجال سواء كانوا من رفاقه او خصومه، يضع نصب عيناه الجندي، يراقبه عن كثب يقاتل بغير احترافية المجنّادات، سبق نجيب المرتزق الملاحق له أيضا.

أطلق المرتزق ضربة مقووسة صدها الجندي بصعوبة وابتعد النصل من كتفه واضعا ثقله على الصد ما استدار مع اتجاه السيف فوجد المرتزق ثغرة جاذبا سيف سريعا للأعلى وهوى به على الكتف الأيسر. تراجع الجندي يوقف الدم المنبثق متفاجئا من لعق خصمه لغمه متلذذا المنظر الدموي كأنه مصاص الدماء.

حال بينهما الجبلي راكلا الجندي ثم استقبل مقبض سيف المرتزق خلفه في رقبتة فيما يصيح:

- ابتعد عنا، إنه فريستي.

- وإنه سلاحى كذلك.

قالهانجيب ملتفتا نحوه يلقي نظرات رعب متقدة غير عدم تأثر رفيقه بذلك حيث قرفص ودار مددا رجله حتى مرقت من قدمه فرفعته ليتمدد فوق عشب الارض، وصد عنه هجمة الجندي فأمسك الجبلي قدم المهاجم ورفعها هي الاخرى حتى سمع قرقعة ظهر صاحبها وانقض نحو فأسه ثم أنبتته في جمجمة الخصم.

التفت ليشكر رفيقه حتى سمع زمجرة غير غريبة
سبقت صوت تمزق اللحم وهشم العظام، شاهد كلاب
الدرواس المهيبة تلتهم رفيقه ووسع نظره حول ساحة
الوغي الممتلئة بهم: { من أين أتوا؟ }.

اقترب واحد يكشر عن انبياه واللعاب يسيل مقطرا
من فمه الواسع ذو الانياب الحادة يغطي شعره الأحمر
الكثيف جسده الضخم المخيف، سرعان ما صاروا اثنان
يتربصان به قد اعتاد على مجابهة الكلاب الضالة في
صباه حينما كان يقطن على سفوح الجبال ويتنقلون الى
السهول قصد الشراء او البيع او السقي فيتعرض لهم
ليلا قطيع ذئاب احيانا والخنازير البرية. الطريقة الفعالة
بالنسبة له ان يظل ساكنا لا يحرق فيهم بتحدي وكذا
مراقبتهم وإبداء ردّة فعل تلازم الدفاع عكس الهجوم.

ترامى لسمعه صراخ صوب نظره الى مصدره فرأى
نزار يمتطيه درواس ويعضعض ترسه كما تعجب
لزميله: { دوما يضحك في كل مرّة يقع فيها في
المشاكل }.

باغته الذي على شماله منقضا يعض مقبض الفأس
محاولا أخذه منه لكي يصبح عازلا فلم تنفع معه
الركلات وانقض الثاني ناحية اليد قبلما يجرّ نجيب
الكلب العاضّ ويصدّ به هجمة المنقض، حقق ما ابتغى
حينما أطبقت اسنان المهاجم على فروة عشيره وحين
ركله نجيب هذه المرّة أفلت الفأس فرفعه هاويا عليه ثم

اجتته من جلد الممزق وقذفه في الثاني مستقرا بين
عيناه.

لمح نزار يمتطي الدرواس ويمطره ضربات بحافة
الترس حتى تكسّر، وتوجهه اليه من اجل الفرار من
قبضة الكلاب التي راحت تتغذى على الجميع سواء
الجنود او المرتزقة.

صعدا التآة تجرفهما التربة للأسفل فيعيان
الصعود الشاق، مرّا من صف المجنّدين الذين كانوا
يقذفون الحجارة فباتوا جثة تلتهمها الغربان، وفكر في
القاذفين للشباك ليراهم حابلين بالسهم: هل رشقونا
بالأسهم.. كيف تجاهلت ذلك؟.

لاحظ جرح طفيف في راحة يده تحسسه، وأراه نزار
جرحا قرابة فمه فقال:

- كادوا يدمرون مصدر سعادتي.

امتطى نجيب حصانه فيما استعمل نزار فرسا لا يعلم
صاحبه ثم انطلقا بمحاذاة طريق القافلة من فوق،
هتف فيه نزار قائلا:

- نجيب!.. فلنذهب في حال سبيلنا.

- كلاً، يجب الاسـتـمرار.. ألا تريد تحقيق رغبتك
الحالمة؟..

- لا أصدقهم انهم سيفون بوعدهم.. ولماذا تريد المواصلة؟

- تربينا في البادية على الاهتمام بالآخرين خاصة المساكين.. وهؤلاء المرتزقة ضمنهم أبرياء ينبغي مساعدتهم.. كما ان العودة الى أهلي غير مضمونة اذا عرفت الجماعة اني تخليت عن مهمتي.

صد نزار الهواء بيده يعدوان على منوال متشعب
وينعطفان تفاديا للأشجار المتناثرة، هتف نزار قائلاً:
- نجيب!

بدا ان نجيب انزعج من هتافه المتكرر وحمل نفسه على الاستماع:

- انا تسالت الى المخيم بدون حاجتي لأخذي اليه..
وحتى الجماعة التي صدعتني بها لم اقابلهم ما عدا
رجل يدعى محمود ملهام.. وارك مرتبط بهم كأنما
برزت علاقة بينكم.

- فلتكن وانت مالك؟

- لا، لا شيء.. لعلهم اختاروك لغرض مهم فأني شخص
سألته عن كيف جندوه وجدتهم جميعا خاطبوهم بشكل
سريع إلا انت استفاضوا معك وقربوك.. غريب!

على صوت خرير المياه التي تدفق منساب في نهر
يمتد الى الأفق ما بين الجبال الضخمة كانا يرويان
ظأهما مائنان أكفهم بالمياه العذبة.

وذا روي ظأهما المعرفي حول ما الذي يحدث كما
قال الجبلي متعجبا:

- هناك فردوا خريطة تظهر مكان وجهتنا.. الى قلعة
مخفية خلف الجبال وبينه.. اما القافلة اتجاهها مخيم
عسكري على الحدود.. ولكن...

- ارحم عقلي الصغير وتوقف عن جرّي الى التفكير.

حذق نجيب في أفق الجبال يلقي نظرات حائرة
ومستغربة، يبرز جبلان جليا فيما تختفي البقية ورائهما
في صف عريض مديد، كما ان هذا النهر يشق مادا
لسانا مائيا يفوق مد البصر، وتوزعت أحراش وأعشاب
صخور وحصى وجذوع اشجار داخل تربة النهر
وخارجها.

ابتسم نزار قائلا بتهكم:

آه عدت لمكانك الطبيعي.. هل تشبه الجبال التي عندكم؟

- ابدأ.. جبانا نادرة.. لا توجد في هذه القارة.

- عمّاذا تتحدّث؟.. ليس هناك قارات غير التي يسكنها
البشر.. أو انك تتحدث عن قارات الجان او مخلوقات
الابعاد الاخرى.. انسى عنك خرافات الاجيال الغابرة.

- إذا تم امر الجنود التوجه الى القلعة عوض المخيم..
لماذا؟!!

ضغط على حروفه مغتاضا وابتعد عنه بعنف يد نزار
الرايت لكتفه قائلا:

- لا تقل... هياي!.. أهدأ ايها الدرواس العنيد.. لتوي
قتلت واحداً.

سار نجيب الى الامام مفكرا في سرّه: { الامر خطير
على ما يبدو.. لا بد من حدوث امر خفي نعجز عن
ملاحظته.. او حدث ذلك الامر وبالتأكيد لن يطلعونا ما
يعني ان تملق الجماعة ومعاملتهم الاسثنائية معي
مجرد...}.

الفصل الحادي عشر:

إن هبوب رياح هوجاء في منطقة سهلية لواقعة طبيعية فجائية لا تضرب موعدا مع احد لمعرفة قدومها، يشق طريق رملي وسط السهول نحو مد الافق، وبفعل غزارة الامطار صار وحلا تغوص فيه اقدام جميع الدواب.

هذان الشخصان قد خرجا لتوهما من غابة بشق الانفس فضغط الرياح اجثت اشجار كاملة من جذورها والقى بأغصانها في دوامة جذبت ايضا وريقات ونباتات وحببات الرمل تذروهم الرياح ذروا.

لسوء حظهما حلقت العاصفة ببضعة جذوع الشجر الى ان اوقعتهم على الطريق الموحد عشوائيا وعلى جوانبه فوق العشب المبلل، وكذلك على احواض المياه الصغيرة والبقع الكبيرة.

خاب ظن الراكبان فوق صهوة جوادهما حينما لمحا من غير بعيد الجذوع القاطعة لطريقهما، فهم لا يستطيعان الانعطاف يمينا او شمالا لكون المطر قد بلل الكلا مكوّنا وديان تطفو فوقها الاعشاب الصفراء والخضراء الداكنتين، أي انهم يفضلان الغوص في الطين الجاري بواسطة احذيتهما ذات القوائم العالية على إكمال سيرهما متعثران اذا ما التصق حذاء احدهم بأغصان مجهولة تختبئ تحت وديان المطر الهتون الذي لا زالت قطراته تنقر قانسوتاهم الزرقاوات.

من طابع الابن عدم إكثار الاسئلة الموجهة لأبيه بل هو من يستقبلها عادة فيجيب مضطرا ولو كان غير ذي معنى أو فائدة ترجى. ومع ذلك قام بمناداة أبيه بصوت عالي رغم قطع نفخات الرياح العاتية لكلامه أحيانا:

- أبي!.. أبي!

لم يلبث غير بعيد حتى تلقى نداء ابنه، ثم ردّ عليه غير منتبه:

- م-م-ماذا؟.

كلاهما الصقا مرفقاها في الوجه أمام العين
بالضبط في سبيل صد عوي الريح تجاه وجهيهما.
بالكاد بلغ الوحل اعلى القدم لدرجة غط احذيتهما
واتسخ الجوادان بدورهما.

اثناء وقوفهما خاطبه الابن بعدما اتضح له سماع
ابيه لندائه، فقال محاولا تبليغ حديثه قدر الإمكان:

- الجذوع امامنا متساقطة وراء بعض وفوق بعضها،
كما أن الطريقان الجانبيان مليئان بالماء كالأهوار وقد
تساقط الجذوع عليهما ايضا.. يستحيل تجاوزنا لهم
بدابتينا.. أليدك حل لمعضلتنا، أبتاه؟

اعتاد الاعتماد على ابيه في جميع المسائل أما هو
فلا يجرو على منازعته في أخذ مكانه عند اعتراضهما
لأية مشكلة عويصة كانت او عابرة.

في ظل انتظاره للإجابة كان الاب يستكشف ما
حوله ويستعرض الحلول على نفسه يمقت مشاركة احد
معه في التوصل لخطط والمناقشة، واكثر ما يمقته
إيجاد غيره للخطط المثالية والحل الفعال حتى لو كان
ذيك سينفعانه هو بالذات فيكون باطنه منفعل كالبركان
يوشك الانفجار بيد انه يستبدل الانفجار ظاهريا بعناق
يوشي تقديره لفكرة الآخر.

طوال الفترة الزمنية التي قضياها يمتطيان دابتهما
ما تزال الواقعة الطبيعية تزيد من حدتها حتى انها لا

تبدو منتهية إطلاقاً. تحتم على الأب الاختيار ما بين الاثنين، العودة من حيث أتى أو إطلاق الدابتان بلا راكب نحو الامام بحيث يتفرقا آخذان طريق الاعشاب ووديان المطر، اما بالنسبة له وابنه سيستمران فوق الاوحال ويتجاوزان الجذوع عبر الاستعانة بأيديهم من ثم دفع جسدهما فوقهم.

أتقن الأب تلك الحركة في خفة رغم سنه الكبير حيث يتجاوز الستين كما يتجاوز الاشجار كأنه ابن ثلاثين او عشرين مثل ابنه. وعد ابنه ان الدابتان مدربتان جيداً ولن يفرا منهما إذ سيلتقيان معهما عند بركة مياه عذبة في آخر الطريق ثم صفعا مؤخرتا الدابتان لتعديان في حرية تامة.

نجح الأب في تجاوز العقبات كلها ووقف منتظراً ابنه المتهاك واللاهث حينما وصل واستلقى على الارض متجاهلاً لزوجته الوحل يلتقط انفاسه المتلاحقة. التفت الأب الى الدابتان فوجدهما يشربان من البركة فأشار اليهما باسماء:

- حدث ما وعدتك، هيا انهض نلحق بهما قبل وقوع امر يفزعهما فيهربان بلا رجعة.

- انتِ تنظري.. لا اشعر بقدمي ويدي تخدرتا.

- وي، وي، وي، ويبي!.. لو علمت اني سأرزق بابن هكذا ما تجوزت امك.

معلوم ان قائلها ابوه غير انها قاسية عليه
ومهينة حسب ظنه، يخاله صادرة من رجل لا يعرفه
كانه يقول له نمت مع امك وحظينا بعلاقة غير شرعية.
لاحظ وجوم ملامح ابنه فقال:

- تعلم كتم مشاعرك جميعها وإلا ستسقط من امام اعين
البشر.

- الم تقل ان لا اهمية لم يقوله الناس ويجب المضي
قدما غير عابئ سوى بما اريد؟

- عجب حفظت ما قلته عن ظهر قلب.. هذه مفخرة
لكل الآباء.. بلى قلت ذلك ولك فرق بين محاباتهم
وتبعيتك لهم.. ماذا تريد؟

- اريد ان اشرب.

- انظر للبركة قد استحالت الى قذارة اثر الحصى
والتربة والوحل الملقون فيها ولا تحذو حذو دابتك.

ضحكا لما اقترب من الجوادان المستريحان يخبان
بصوت تخطفه الرياح من آذان الرجلان، لعل الاب يراه
صغيرا ما دام سلوكه ممتزج بين التطفل والكهول، و
رغم هيئته الكبيرة حيث يفوقه طولا وعرضا تتشابه
الوان جدهما الابيض الحليبي وعيناهما البنيتان لكن
شعر الاب اشهب بينما غطى الشقر شعر الابن
المستدير حول قفاه وجبينه لا يصل الى الكتف.

هتف الابن مصدوما:

- أبتاه!.. سيهربان فالعاصفة مستمرة..

- انتقلت في لمح البصر من الضحك الى التشاؤم.. هذا هو طبع...

- إنهما يهيجان، سوف يفران لا محالة..

- وأما بعد إن هاجا او ماجا، فكر في نفسك قبل...

- سيلوذان بالفرار فقط التفت صوبهما لتري، ينبغي تهدئتهما.

رفع الاب يده مهدئا وقائلا:

- قلت لك لن يهربا، لقد دربتهم بنفسي حوالي...

انطلق الابن يطاردهما حينما سقط جذع شجرة قربيهما فصهلا فزعان وركضا هائجان، وهو غير عابئ بابيه الذي ملأ دورقا بالماء من زاوية لم تتعكر صفوها وهو ليس غاضب منه على مقاطعة كلاه او تحركاته المفاجئة، بل يكتفي بالقهقهة الخافتة وحسب.

حاول الابن عبر ركضه المتواصل محاذاتهما فيما يقتحمان هبوب الرياح التي خفقت في دفعهما للخلف كما فعلت مع الابن، ووسعا الارض قدحا بالحوافر فما نفع معه صياحه ولا تصفيره لهما نظرا لان الامرين يستحيل وصولهما اليهما في عز هيجان الجو المتقلب المجنون.

أستحسن انتهاء الوحل الغارق بجوار البركة، ازداد جنون الجو مع جنون الدابتين وعلى حافة جنون الابن إن لم يستطع إيقافهما مهما استمرت المطاردة الغير المتكافئة.

انعطفا حول سياج خشبي شبه مخرب يحيط برجا مهدم نصف جزئه العلوي الدائري حيث تفتت حجارته واقعة على عربة كسرتها عن بكرة أبيها.

ثم وثبا فوق السياج ليتوقفا قدام العربة يتشما محتوياتها المبعثرة من تفاح عفن وكسرة خبزة غمرتها التربة السوداء وتغطيها فتات الحجارة، وقد تنازعا عن شريحة لحم سوداء كل واحد يجر طرفها اليه حتى تمزقت الى نصفين فاعلن نهاية الصراع وقدوم الابن يلهث مبتسما.

اتكأ على البرج يشهق ويزفر ثم اشغل نفسه ريثما يأتي والده بعود رقيق بين اسنانه قصد تنظيفها من بقايا طعام الامس. سرح نظره في الموقع الخالي من اثر الحياة، تربة سوداء حبلى بالصخور والحصى تنبت فيها نباتا ذابلة وحوالي البرج اشجار يابسة لا من الغصون ولا من الجذوع المتدفق لمادة لزجة حمراء.

فكر الابن الحذو مثل دابته في اكل مخلفات العربة معتقدا ان مؤونتهما انتهت وكبح رغبته وصول الاب واضعا يده خلف ظهره متألما ويمشي في بطء شديد.

ادار الابن راسه الى اليمين فرآه منكمش الوجه
والجبين يمت شفته فصاح متهمًا:

- حقا؟.. هل اصابك داء فقدان الخطوب؟.. لأنك تكرر
تمثيليتك دائما وفضحتك من المرة الاولى.. حاول تغيير
هزلك من موضع لآخر حتى يظهر اكثر تصديقا.

بمجرد سماعه لهذا ودلوفه ارض البرج بدل
انحناءته الى استقامة تضاف اليها ابتسامة يستصعب
رؤيتها لصغر فاهه. تحت أديم السماء الواقعة في
مخاضها تتراقص الأعشاب، وأوراق النباتات والأشجار
مع إيقاع الرياح الهوجاء.

افترشا تربة الأرض فاردان إزاراً واسعا يغطي
مساحة تحتل ثلاثة أشخاص عريض المنكبين، على
ما بدى للأب ضعف احتمال هروب الدابتان مجددا كونه
ربط حوافرهم معاً ومع بعضهما البعض بحبل يمتد الى
لجاميهما المربوط مع السياج بإحكام تام دال على
براعة الابن في عقل الاحصنة حينما كان عاملا في
إسطبلات القلاع بينما يعمل ابوه حدادا لجميع الأدوات
الحربية و المنزلية والأخرى التي يتطلب استعمالها
الحديد. بعدما اطمأنا الى رقود الدابتان خلدا للنوم
بدورهما وسط عويل الرياح.

من طباع الاب الغطيظ في النوم عكس ابنه صاحب
السبات العميق اللانهائي فلا تنهضه اية حركة طارئة
من احد او شيء وأن كانت كفيلا بإيقاظ قرية كاملة.

لذلك منعه سباته عن سماع نداء ابيه لَمَّا كان يقرص
جلده هامسا:

- أنهض!.. ليس وقت نومك الطويل.. أنهض فلقـ
سمعت وقع قدما شخص تقترب من مكاننا.. وبالرغم
من صعوب السمع والنظر تراءى من بعيد لي فلان
تخفيه دوامة العشب المجزوز والتراب المنثور.

- لعل- ه.. طيف رجل كن- ت.. تعرفه.

كانت كلماته مستعصية النطق يتشاءب شبه مستيقظ
وشبه واع، فنهض الاب فارك عيناه وبقرب الخطوات
هرول مختبئا خلف البرج يلتقط مشهد دابتيهما نائمتان
بجوار السياج: { عسى الا يدخل من هناك لكي لا
يسرقهما.. هل أستطيع مقاتلته؟.. كلان لا أستطيع فعل
ذلك مجددا }.

بمساعدة عين واحدة استطاع لمح القادم من خلال
ثيابه الرثة فقط، وبمجرد تجاوزه السياج من جهة
اليمين عبر وثبة توحى مدى لياقته، صدّ نفخات
الرياح لوجهه بلثام أحاط نصف وجهه، اما النصف
العلوي يغطيه بقلنسوة مهلهلة باهتة لم يتبين الاب
لونها لظلمة المكان، وارتدت يداه قفازان بارز سوادهما
من فرو الخلد.

خشى من الرجل مساس ابنه الغارق في سباته
بأذى، إذ اتضح له سيف متوسط ثبته الرجل خلف

ظهره، في هذه الحالة اراد البحث عن سلاحه الذي تركه في محفظته الكامنة في سرج جواده حيث نسي نزعها عن دابته.

كان الرجل الغريب يراقب ما حوله في حذر تام، من ثم اخترق دوامة الرياح المقتلعة لكل شيء جاء في طريقها وفي دورانها، الى ان توقف قرب دابة الابن فالتقط لجامها بعدما فك وثاقها يهدئها عبر تمسيد شعرها في رقة حتى انصاعت له في وقت وجيز ادهش الاب المتفرج، وفي لمح البصر روضها ثم جرّها للخارج، لكنه لما اقترب من السياج وامتطأها جفل لسماع الاب يركض صائحا:

- يا هذا!، اترك الدابة فليست لك ولن تكون الا على جثتنا.

التفت صوب ابنه عسى ان يكون مستيقظا فيؤيد قوله، ولم يجده كذلك فما اغضبه الامر قط إنما رفع عقيرته مخاطبا الرجل علّ صياحه سيوقظه.. وهذا احتمال وارد.

فقال الاب للرجل الذي لا يكثر لصياحه:

- لا تريد الطريقة السهلة إذن.

بينما يوشك على وكز الجواد انفلت من نظره حركة الاب المباغثة بحيث انه اخرج من كفه سكيناً اعتاد استعماله في قطع اللحم وتقشير الخضر والفواكه

لذلك لم يكن حاد النصل بما فيه الكفاية غير ان صاحبه تجاهل الامر حينما تسلل وراء الراكب وغرسه في فخذة اليمنى المصدرة صوت اختراق الجلد واللحم فبادر من الرجل صراخ ليصم الآذان لولا كتم الوشاح له فرفع لجام الجواد الذي قطع نصف دورة راكلا الأب ثم اهتز الجواد رافعا قوائمه يصهل ليعدو متجاوزا السياج.

استيقظ الابن يسمع انفاس ابيه على بطنه:

- ما لذي فعله؟.. اذهب الى سريرك.

لم يجلس في ذهن الاب رغبة ملاحقة السارق إذ ظل مستلقيا على بطن ابنه يحدق في السماء باسماء:

- لسوء حظك قد اخذ احد دابتك.

انتفض الابن يتفقد المكان:

ا- ين ذهب؟ هيا لنلاحقه.

- لا، لا.. أو اسبقني سأتيك بعدما اعد دابتي.

- انت المسؤول عن مراقبتهما.

- مراقبتهما؟.. انهما كبيران للغاية على ان اراقبهما كالصغار.. انت كذلك لا تريدني ان اراقبك وارقك لأحميك.

- لأنني بشر وهما من الحيوانات.

نهض الاب نافضا ظهره المتسخ بالتراب ثم زفر
قائلا:

- في وجهتنا القادمة لا يصلح قول ذلك عندهم.. عند
من سنقابل.

- ومن سنقابل؟

- بشر مثلنا.. لكنهم حيوانات مثل... مثلنا.

- تقصد سنقابل مجرمين ومغتصبين.

نفي الاب براسه وقال موضحا:

- كلا، أولئك ليسوا حيوانات، بل إنسان.. اما مضيفونا
إنس غير انهم حيوانات.

كان الابن يرمقه مصدوما وغير فاقه لشيء فاطلق
ضحكة خفيفة عابرة قبلما يقول:

- أمتأكد انه سرق الدابة فقط.. أم سرق عقلك ايضا..
هل أعرته لشخص او حيوان؟.

- اخذ للنوم، سنستأنف في المساء.

- اخذ انت سأتفقد ما حولنا لئلا يفاجئنا سارق مجددا.

- لا اعتقد ستقدر على مواجهته، فما بالك اذا كانوا
دسته.

حمل الابن سيفه في غمده بيده وقال:

- على هذا الحال ستتخلص مني للابد.

سار هائنا بسيفه " قاطع الرؤوس " يمنحه الأمان وقد سماه بذلك سرا حتى لا يصبح محط سخرية ابيه اللئيمة. وسط المنازل المهدمة تريت في سيره ويداه لا تتفك عن تحسس مقبض السيف المزخرف بنقوش تشبه الطلاس.

ليس له متسع من الوقت للبحث في داخل المنازل لان ابوابها مكسورة وعليها صخور او بعضها على اعتاب ابوابها خشب مبعثر يعيق طريق الولوج، وأيضا هدفه ايجاد مكان ظهور السارق او على الاقل الاحتياط من غرمائه في هذه المنطقة المهجورة.

لم يحمل عناء تكهن عوامل هجر الناس للقرية التي تبدو منازلها متقنة البناء وبديعة الزخرفة بعضها موسّم بعلامة سيف في منتصفه تاج مربع ذو ثلاثة حلقات والوسطى هي الأكبر، وكذلك لم يمنع نفسه من دندنة خافتة لا تسمع حتى لذلك السنجاب القريب اليه والمتنقل عبر انقاض القرية الخالية، فقال:

- الناس يعانون من ازدحام المدن خلال ايامنا الحالية، ولو اعدنا المناطق المهجورة التي صادفتها في رحلتي لفاقت حجم أضخم مدن القارة.. غير معقول!.

وجه نظره للسنجاب قائلا:

- ليس كذلك؟.. لا بد انكم تقضون اوقات رائعة بدوننا.. ولكن لا تنسى اننا من يبعدون عنكم الحيوانات

المفترسة.. لا تنسوا هذا الفضل وعلموه للأجيال
الصاعدة.

لتوّه خال ان السنجاب سيردّ قائلًا بصوت شبيه
بصرير عجلة غير سوّية لعربة:
- معك حق، أيها البشري.

ثم انسلّ بين جوانب النوافذ متما رحلة البحث عن
الطعام كما اتم الابن استكشافه حيث خرج من محيط
القرية المهجورة ليروح له في الافق مرتفع عالي جدا
لا يظهر ما يوجد ورائه، وتكسو تربته الصخور
والاحجار من شتى الانواع تزيد من صعوبة الصعود او
على ما بدا له الاضطرار للتسلق حالما يقترب من
القمة.

بدون مناقشة مع نفسه على الاستئناف او العودة
اتكأ على سيفه بغرض الاستعانة به اثناء صعوده في
الهضاب المتصلة مع بعضها كأمواج البحر العاتية.
يوشك توقف قلبه عندما تعثره صخرة وكذا انجراف
بضعة حصوات جراء ثقل الابن عليهم مما يؤدي به
الى انزلاقه وفقدان توازنه بالتالي وقوعه على انفه.

حدث معه الامر مرتين فصار ينزف من فمه وصدغه
ثم السيل الاحمر يلطخ انفه المستدير. حدثت معه
تمايلات من كلا الجانبين ادت الى سقوطه للخلف،
فاتسخ شعره الاشقر ذو الخصلات الطويلة يبلغ حدّ

رقبته وتقلت منه خصلة كثيفة تغطي عينه اليسرى لكنه اعتاد إعادتها الى الرأس عند صويحاتها في حالة احتياجه لعينه معا.

عاد للنهوض مجددا بعزيمة على عدم السقوط ثانية ووضع سيفه خلف ظهره يثبتته في سرواله الاحمر الفضفاض ، لربما ألف السير في ارض منبسطة اكثر من المشقة مع البقع المتصدعة والمنحدرات السحيقة تسحق من خطى خطوة غير ثابتة .

تفقد امامه زافر في سخط لم يرى من بعد المسافة، ولحد اللحظة ما تزال الهضاب تغطي ما وراء المرتفع بواسطة استدارتها العمودية والافقية، وهيئات ان يثبط هذا من عزيمته لا سيما وهو قد اقترب من النهاية.

لبرهة تجمدت قدمه اليمنى التي يتعثر بها دائما وهنا كادت عزيمته ان تثبط وترغمه على الرجوع من حيث اتى، غير ان عادة ما يكون للعازم عامل قوي يحفز له عمل المستحيل، اما هذا ظن انه سيرضى عنه والده من ثم يطلعه سبب دفعه للرحيل معه تاركا أمه وحدها.

كز اسنانه من الغيظ متسلقا بحذر وخفة كان ليلقي المرء عليه اسباب افعاله واسراره كلها لو شاهد تسلقه الثائر. مع جريان الدم في شرايينه واوصاله كسر تجمد قدمه مندفعاً كالسهم غير عابئ بالانزلاق حيث يركض بأقصى سرعة ممكنة له فسقط على كفه الايمن ثم

عاود النهوض ليندفع هذه المرة للأسفل واقعا على
ذقنه.

انحرف صاعدا في تعرج للأمام حتى بلغ خط تكسوه
الرمال البيضاء ينطلق من المنحنى السفلي الى آخر
الطريق على عتبة بوابة فولاذية لقلعة سوداء مغلقة
الوشائج وأوراق الشجر والنباتات الزاهية، ولكن
الغلاف رديء ومتسخ، على جوانبها أنقاض مختلف
العربات المتكسرة والدروع ومنجنيق لا يعرف أوله من
آخره.

تحتم عليه الزحف الى الطريق وقرص عند وصوله
ثم حذق في الانحدار المخيف الذي لا يريه ما في
الأسفل، فكر استحالة بلوغ ابيه الى هنا ومحنة هبوطه
هو من هنا. سُمع وقع حوافر دابة يقدح الارض في
إيقاع مثير، ويتضح من خلال صوت أقدامه انه يصعد
مسرعا فلا يتوقف عن اللهث او الصهيل الخافت.

أحكم قبضة سيفه الذي أتكأ عليه يقرفص ومنتظرا
القادم بصبر نافذ، وحاذى لهثه لهث الجواد إذ تنفس
الصعداء وحمد الله على توقف العاصفة عندما كان
يصعد في الهضبة:

- تبا!.. كيف فعلت هذا؟

بجانب لهثه استطاع إبلاغ صوته لأبيه الراكب،
التقط الاب هو الآخر أنفاسه وردّ قائلا:

- بالتأکید، لم أرحف مثلك.

- لست ارحف لأنني احب ذلك، الامر انني لم اجد طريقا آخر

- هناك طريق آخر.. اسمه العودة اليّ والجلوس كالناس خير من الزحف.. مثلهم.

- كلا، ذلك يسمى استسلام.

ويسمى ايضا العودة الي والجلوس كالناس خير من الزحف.. مثلهم.

ألقى الاب ضحكة ساخرة وقال متهكما:

- تخيل لو كان البشر جميعا يزحفون اثناء تنقلهم كالسفر او الرحيل.

قهقهه ثم أردف قوله:

- لكنت انت اشهر مبتكر في القارة.. ابتكرت للناس طريقة تغنيهم عن تكاليف السفر.. لو ربما زحفت الجيوش حرفيا زحفا لا يكبدهم عناء السير.

- كفى، يا أبي.

نطقها بخفوت مطأطئ الرأس لكن لمح جروحه ونزيفه الغير المتوقع فعلق متهكما وصارخا:

- ربّاه!.. لهذا لم يقدر للإنسان ان يكون زاحفا.. ذر الزحف للمتخصصين فيه.

- أجل، مثلك تماما.

- أصبت، لقد زحفت مع جيش عزمٍ إبان الحرب اللعينة.. زحفنا وافرغنا كل انفسنا غير اننا لم نصب بتلك الجروح التي تزيّن جسدك.. يا الله، مال هذه الاجيال تصير ناعمة جيلا بعد جيل.

جاء دور الابن في التهكم بدون قيود ستمنعه لكون المتهكم هو اباه، لكنه ابتلع قهقهته قائلا:
- من سمعك ظن انك...

بتر عبارته فيما اعتدل واقفا وتوجه بخطى مثقلة الى القلعة تحت السحب الداكنة والمكثفة حولها. وكز الاب حصانه ليخبّ منطلقا خلف الابن الشارد الذهن، وفي قرارة نفسه قال: {مالذي دهاني؟ كدت ابوح بها}، بينما قال الاب: {ما باله؟}. يتصرف بغرابة خلال هذه الأيام.

طرق الابن عدة مرات في بوابة القلعة الضخمة الى ان فتحة مستطيلة أطلّت منها عينان واسعتان، ثم خرج صوت لا يعلم مالذي يكتمه حيث خاله الأب قناع يرتديه فيما ظنها الابن البوابة هي الكاتمة لصوت الفحيح الذي قال:

- باسم الدواب من أنتم؟

حتى اوشك الابن الانفجار ضحكا قاطعه اباه قائلا بحبور:

- كم اشتقت لهذا.

والظاهر انه لم ينوي إيصال كلامه لأحد بل جعله كحديث النفس، أما الابن فقال:

- لسنا بأحد، صادفنا قلعتم العجيبه فتحرك فضولنا لرؤيتها عن قرب.

خالفه اياه قائلا:

- تتحدث ن نفسك يا بني.

-م-م- أولم نكن نستكشف دائما اي مكان نصادفه؟

- كنا كذلك، وهذه أول رحلتنا مذ كنت غلاما.. أنسيت؟

كان صاحب الاعين يتقل بينهما متتبع حديثهما بشغف ولما استفاق من تتبعه هتف مقاطعا:

- كفى!.. اذهبا من هنا واحظيا بثرثرتكما بعيدا.

هدأ من روعه ليعود للكلام بنبرة هادئة:

- حسنا، ماذا تختاران؟

تساءل الابن :

- نختار ماذا؟

اجابه صاحب العينان متأففا:

- أف لك!، هل هذا ابنك يا صاح؟

ردّ الاب بعدما هزّ كتفاه:

- إنها الأقدار ومشية الرب من تعطينا ما نستحق وما لا نستحق، فأما الأولى نبتهج بها خلاف الثانية التي نتأفف ساخطين منها ولاعنين وضعنا المقدر والمقدور.

سمع صاحب العينان يتثاءب اثناء حديثه وعندما انتهى خاطبه كالكسلان:

- نعم، نعم، نعم.. انال ان اخوض في كلام مطول مثلك وإنما سأعطيكم المختصر المفيد.

اعتدل الضيفان من وقفتهما ثم استقبلا سؤال المضيف بتحمل لزعيقه المتواصل:

- من أنتما؟.. من أنتم في الحقيقة، نسيت ان اعد الدابة ايضا لأنكما تبدوان مثلها تماما.. لذا كونا عاقلان واجيبا سريعا.. لقد ضقت ذرعا بكم.

لم يفوت الاب فرصة التهكم عليه حينما قال:

لا - اعلم كيف سنجيب في آن واحد.. بني، أمستعد للإجابة معا.. عندما اعد لثلاثة قل معي نحن.. اقترب لأخبرك.

ا لقي في أذنيه ما سيقولانه وعلى نفس الايقاع صرحا قائلان:

- نحن محبي الحيوانات جننا ل...

بتر عبارته لما وجد اباه لا ينطق ببنت شفة إذ كان هو والمضيف يثقلان من الضحك بسبب ذلك قال المضيف ضاحكا:

- كم انت مجنون!.. لم اضحك هكذا منذ سنين.. يا إلهي، ما لذي حدث لنا هنا؟.

حدج اباه بنظرات تظهر قلقه في حين مط ابوه شفثيه تمطيطا لدرجة سيقلعها بأنيابه، ثم زمجر للمضيف قائلا:

- لست وحدك إذن.. كم تبقى منكم؟

- ليس هذا من شأنك، أيها العجوز.

- كان هذا شأني من قبل.. من قبل ان يطأ الغرباء أرض الأصلاء.

- يا صاح، ما لذي يبصقه اباك؟.. لم افقه شيئا من قوله.

- ولا أنا.

نزل الاب من جواده اعقبها زفرة غليظة وبلا مقدمات ركض نحو الحطام المتواجد تحت مظلات الألواح المثبتة في جدار القلعة ذو النتوءات. تجاهل عمل والده ملقيا نظره لأعلى القلعة فوجدها ليست بتلك الضخامة التي اعتاد رؤيتها في باقي القلاع اثناء رحلاته في صباه.

فجأة اختفت العينان بإغلاق الفتحة ما أشعر الابن بالخفقان في نيل مبتغاه، عقب شهيقه وضع قدماه على صهوة الدابة حتى اقترب من حافة اللوح الخشبي العريض الذي كان اسفل السور قليلا.

توتر من حركات الدابة المترنحة حيث كاد الوقوع منها غير انه فكر بخفة حينما قفز رافعا يده ليحس بأصابع تمسك حافة اللوح وتوشك على الافلات منه جراء الألم، صفر للدابة بالاقتراب تماما كما درّبها أبوه، وقد تطيعه لذلك دندن لها وصفر ثم دندن فشعر بمشطيه يلامسان متن الدابة عندها ضغط جيدا عليه من ثم دفع جسده فوق اللوح، ولكن فاق وزنه اللوح حيث سمع صوت تكسر اجزائه الجانبية المثبتة مع الجدار فشارف على الانهيار وعلى شفا السقوط انتقل الابن الى اللوح التالي عبر وثبة ما إن استقرت قدماه حتى قفز الى حافة السور وقد تحطم اللوحان اسفله متناثرة شظاياها.

استل حارس سيفه فتبعه زميله مخرجا مطرقة صغيرة من حزام حول خصره فيما تمسك يده الاخرى ترسا دائري كبير. اوشك الابن على الوقوع في فخ الضحك القاتل حالما شاهدت عيناه رؤوس حيوانات يرتديها الرجلان، فصاحب المطرقة يرتدي قناع الجاموس بينما ارتدي زميله قناع النسر.

أطلق الابن ضحكة خفيفة تلاها قائلا في اندهاش:

- م- ما.. هل تعرضتما لصدمة في حياتكما جعلتكما في هاته الحالة؟

صرخ فيه صاحب المطرقة قائلا:

- أتجدنا مضحكان؟.. لا، لا، لن تجدنا كذلك بعد ان اهشم رأسك.

منعه صاحبه واضعا يده في صدره في حركة حادة ثم قال:

- نحتاجه سالما، يجب الاستخراج منه ما ينفعننا.. لكي لا يطلع اصدقائه على مكاننا وعلى منظمنا.

تساءل الابن مستغربا:

- منظمكم؟!.. أوه!.. هل هي ذائعة الصيت؟

اجابه الجاموس متهكما:

- بل ضائعة الصيت.

لما ضحكا الحارسان وجد نفسه يضحك معهما ايضا معتقدا الامر من قلة الادب ألا يُجاري اناس في ضحكهم وما هو إلا دخيل عليهم. صاح النسر موجهها صياحه لمن في البوابة:

- يورام!.. يورام!.. لا أدري لم يتأخر في الرد دائما.. يورا...

- ماذا.. ماذا؟!!

ظهر له يورام في الاسفل خارجا للساحة الواسعة
والعريضة، بعدها خاطبه النسر غاضبا:

- يا دجاجة، كيف لك ان لا ترى هذا القادم؟

وجهه الصغير المتلائم مع حجمه يمتلأ تجاعيدا
وبثورا وانكماشات تجعله كدجاجة منتفخة او شخص
تعرض وجهه للحريق، اجاب يورام:

- بل رايتيه ومنعته من الدخول، لكن جدّه ركض الى
الحطام بشكل مريب فظننت...

- لا، لا تظن.. اخبرنا ما تراه ولا ترتجل هذا طلبي
الوحيد لك دائما.

اكمل يورام كلامه في تجاهل تام لغريمه:

- كما قلت ظننت انهما يريدان البحث في الخردة علّهما
يجدان شيئا يبيعهانه او يُفيد في شيء.. ودائما اقول لك
ظني معه حق.

همس الجاموس للابن:

- ماذا عن ظنك.. ألا يجدر بي قتلك لأنك تغيظني؟.

اراد الابن الحديث فقاطعه النسر قائلا:

- معك جدك ولم تخبرنا..

- أجل، كأننا حظينا وقتا طويلا في الحديث.. لتوي
صعدت.. وايضا هو ليس جدي بل ابي.

اقترب منه الجاموس متلهفا لقتال ويقول مزمجرا:

- ماذا إذن؟

- ماذا ماذا؟

- ماذا؟!!

اخرسهما النسر قائلا:

- كفا عن هذا.. ماذا ماذا ماذا.. تتصرفان كطفلين
رضيعان شربا من حليب الحمار.. كونا راشدان.

قال الابن بخفوت:

- تقصد الأتان انثى الحمار.

التفت النسر لزميله ممتعضا فقال:

- لنقتله احسن.

- أو افكك الراي لأول مرة.

بحثت يد الابن عن سيفه فلم يجده معه مما اضطره
للوقوف على حافة السور، وحذّره النسر ناهرا:

- إياك.. إياك!.. اعفنا من تكبد عناء حمل جثتك الى
سيدنا.

- سيدكما؟!..

قال الدب ساخطا:

- من اول مرة رأيناك تتصرف مثل كائن غريب جرب العيش مع البشر.. لهاته الدرجة لا تعرف شيئاً عنا او تسمع.

أخض النسر صوته قائلاً يبتغي مخاطبة زميله لا غير:

- ببساطة لأننا حزننا انفسنا كالجرذان داخل حجرات القلعة المشؤومة.. في عزّ زماننا كنا نخرج للعالم عوض العيش عيشة الخرفان.

أيده صاحبه قائلاً:

- أجل، لهذا سميننا بالدواب، بالأخص الحيوانات المفترسة التي نتقمصها ونرتدي اقنعتها.. فالأصح ان نرتدي رؤوس الغزلان والماعز.

خيم صمت طويل عليهم قد جاء في لحظة مناسبة لان كل واحد منهم اراد مساحة للتفكير، وبعد برهة اتسعت حدقتا عينا النسر ليعرب عن تفكيره قائلاً:

- كدت انسى.. يورام يورام!.. يورا...

- ماذا، ماذا؟

- دوما يقاطعني.

صكّ اسنانه في حنق وصاحب بسعاله كلامه لحارس البوابة:

- يورام، اذهب لأبيك وق...

بتر عبارته ثم أردف قوله:

- اللعنة!.. اذهب لسيدك واخبره عما جرى.

- وماذا جرى؟.

- اذهب وحسب.

- ربما يسألني عما جرى فماذا أجيب وقتها، اخبرني.

تطفل الابن عليهما قائلاً:

- استطيع الذهاب بنفسي اليه لأخبره بم احدث، ثم الاياب اليكم بنفسي لأخبركم الجواب الفصل..

من نبرة الابن تبين ان صوته لم يبلغ الى يورام ولم يطق الحارسان فقال الجاموس مقهقها:

- حقيقة تؤنسنا قليلا كوننا مللنا من تكرير نفس الاحداث والاقوال كل يوم مع نفس الشخص.. لو انهم بدلوه الى حارسة لكان افضل وانوع.

رمقه صاحبه بجمود وارتبكا حينما قال الابن:

- ..ولكن..

صمت مثيرا شكوكهما ومحركا فضولهما فقال النسر متلهفا:

- .. ولكن ماذا؟!.

أطرق الابن في التفكير مليا قبلما يجيب:

- ..ولكن ماذا جرى حتى اجد ما استهل به الكلام؟.. لم يجري شيء كما تريان.. الامور على ما يرام والله الحمد.

فور نطقه اسم حارس البوابة صاح قائلا:

- ماذا؟.

ضرب النسر جبينه بكفه هامسا:

- استطاع سماعه رغم صوته الخفيض.

اندفع بغتة الجاموس نحوه هاويا بترسه الذي قبل حافة السور مفجرا فتات حجارته حينما أفلت الابن من الهجمة مطلقا ركبته المثنية نحو صدغه الايسر ثم التفت صوب الثاني يسمع وقع سقوط الاول المدوي.

أشار النسر اليه بسيفه قائلا:

- هزيمتنا لا تعني استحواذك على القلعة.

- ليس لي رغبة فيها وإنما أشفقت عليكما من تكرير نفس الاحداث والاقوال كل يوم دون حدوث امرا جديد.

- شكرا لاهتمامك، هيا نصنع واحدا إذن.

دار على عقبه اليسرى ملوحا سيفه كقوس له هدف واحد حنجرة الخصم الذي ارتمى للأمام متشقلبا وسدد لكمة وهو مقرفص في بطنه فرأى موضعه عيناه تجحظان الماء، واعقبه لكمة تحت الذقن صاعدا الى هدفه مع اللكمة حتى ارتفعت قدماهما عن الارض.

لمست قدما الابن الارض في رقة بينما خُبط ظهر
الخصم معها فجزته مكسرة عضلاته وعظامه. لمح
الابن الحارس الآخر قادم من شماله فوثب الى حافة
الصور متحيا عن الثور الذي كاد نطحه راكضا: { هكذا
إن.. كل واحد يؤدي دور حيوانه }.

ثم شاهد النسر ينهض مرتعشا وتلاقت عيناهما
فأشاح الابن نظره عليه لكن سرعان ما اعادهما مراقبا
اياه يركض لهنيهة ويقفز ممدا جسده كالنسر يحلق
عاليا صوبه، خلفه الهاوية وامامه سبيل اليها ومن
يمينه ثور على حافة الصور يركض ببطء حانيا الرأس
لا توقيرا له لكن توفيرا للوقت ريثما يصل اليه النسر
بينما يلقيه هو عن الخطر الحقيقي.

امسك كتفا النسر كما فعل الاخير مع خصمه وشعر
الابن انه يهوي الى حيث اتى وقد منح لنفسه بصيص
أمل: { لن أستسلم! }، وادار الى اليمين النسر الذي
ارتطم جسده فوق لوح فيما يتشبّث الابن في كتفه
محاولا الاسراع في النهوض فتزعجه اصوات تكسر
الخشب وتمزقات شظاياها.

دفع جسده فوق اللوح بل فوق جسد النسر ثم هويا
ثانية على الأرض، عذّها الابن لعبة ممتعة كونه لم
يمس بضرر عكس النسر يئنّ ويتأوّه، اقترب الجواد
يشمشم في الابن وابعده منرفزا:

- ابتعد.. انت من تبقيت لي.

خبّ الجواد وصهل لتفتح البوابة خلف الابن المعتدل
في وقفته بجواره مكان سقوطهما واللوحان الآخران
يوجدان بعيدا عن الاسوار، فظن ان الجواد هو من
جرهم فهذا طبع دابة ابيه، التفت يحملق في الواقفين
امامه عاقدين أيديهم فابتسم يحك شعره وقال:

- أهلا، لتوي جنّت اتفقّد الوضع عندكم.. لا تقلقوا
فلست مبعوثا من اي دولة.. ولست عدوا للحيوانات.

بدأ الجواد يحك انفه في وجه الابن الذي ابعده
بيده حانقا:

- ابتعد ايها العين التافه.

ثم استدار اليهم يهدّئهم قائلا:

- لا، لا، لا.. هذا الجواد لا اعتبره حيوانا بتاتا.. كانه
شيطان ملعون أو انه تعرض للمس من طرفه.

استلوا سيوفهم وحرابهم وفؤوسهم وبلطاتهم
والتروس التي اكتفى البعض بها، فهبّ متوجها لالتقط
بدوره سيفه من الارض لكنه عالق تحت اللوح يزيد
من ثقله جسد النسر، راح يجذبه راکلا اللوح:

- تعال، اخرج!.. كيف وصلت الى هنا فلقد القيتك بعيدا
و... أوه!

قالها ناظرا الى الدابة فقال:

- لبيتك سرقت ايضا.

وقف متحفاً للقتال بكلمات يديه فاراد لكم الاول
حتى وجد نفسه جالسا بينهم يستقبل الضرب والشتائم
ويصرخ بصعوبة:

- إما.. تضربوني.. او تشتموني.. اختاروا!!

توقفوا مبتعدين عن الابن فابتسم رغم الكدمات
والجروح، قال أحد الدواب:

- ائى لك هذا القناع؟

خاطب رجل يرتدي قناع الأسد ويحمل قناع النمر
الاسود فرفعه ليهم قائلا:

- تقصدون هذا.. وجدته في الخربة اي في قلعتكم.

- ترتدي قناع زعيمنا وتسمي مقرنا بالقمامة.

- كلا، لقد قلت خربة او خردة هما وجهان لعملة
واحدة.. وهذه العملة هي القمامة.

انطلق نحوه المخاطب بخلاف رفاقه الواقفين في
صمت الى ان اجفلوا من سماع لزوجته وتمزقا مريب
صادر منهما والتقط احدهم راس رفيقهم، كما اشار
الاسد الى الابن قائلا:

- اتركوا شبلي في سلام.. هو لا يدري عنكما او عما
يجري.

قال الابن لاهتا ومتأوها:

- وما لذي يجري؟

غرز الاسد سيفه في تربة الارض قائلا بنبرة ملؤها
الحزم والجد:

- يجري إعادة الملكية لمالكها.. ومحاكمة السارقين
مهما كانوا.. يجري صنع حدث جديد قلّما تكرر،
سيغيب المشغولين بالملكية وحتمًا.. سيعجب المألين
من اللعبة.. لانهم على وشك صنع لعبة اخرى
جميلة وغير رتيبة.

لم يفقه الابن شيئًا فهتف:

- ماذا؟!..

الفصل الثاني عشر:

يوجد في اغلب المدن اكتظاظ سكاني ملحوظ، لكن مهما قلّ عدد الناس فيهم فلن تخلو الأسواق من القادمين من ربوع القارة لا سيما من الممالك المتحالفة مع سيميريا. صعبٌ عليه الامر في ايجاد البضاعة المنشودة واستغرق منه ذلك وقتا وجهدا طويلا لئلا يجد السوق ويصل الى محل الملابس وادوات السفر.

مباشرة طلب من صاحب المحل ان يبتاع له قانسوتين
مبطنتان بالصوف، لما اشتراهما عاد ادراجه الى رفيقه
بسرعة إذ كان عبوس الوجه من هذا العمل الذي اوكله
اليه.

كان الآخر ينتظره بوقفته المستقيمة والابتسامة التي
تخطو وجهه على عتبة باب منزل مهجور غير انه
يحافظ على نقاء جدرانه ونظافة نوافذه الخشبية. خطف
منه رفيقه القانسوتان ثم دلف الى الداخل بعدما ركل
الباب يفتحه كمدك وصفقه بعنف حتى دوى الصوت
عاليا ومخترقا صمت المكان المهجور وسط العاصمة
المهولة.

بالطبع قفز فزعا من صفق الباب وسرعان ما توجه
الى صندوق بجانب الباب، اتخذه مقعدا مسندا ذقنه الى
قبضة يديا محاولا كتم غيظه المستعر. كاد ان يصيبه
سبات لولا جفله المفاجئ إثر خروج رفيقه مهرولا.

انتفض عليه صارخا واللعب يتطاير على رفيقه:

- ما بالك تتجاهلني؟! .. انظر الى ما تحمله يداك .. لا،
لا، لا..

لبرهة التقط انفاسه واخفض صوته في حضرة
الصمت المطبق تحت ظل جدران البيت ثم عاد لحديثه
بصوت خفيض:

- لا تقل اني قطعت معك كل هذه المسافات وجبت
المدينة بأكملها من اجل إحضار غرضك كي تربطهما
مع بعض.

ظل رفيقه محدقا ببشاشة وتعالى ضحكاته في
الارجاء، واقترب منه قائلا:

- الله! الله!.. يا معاذ، هكذا تحدثت سيديك.. في المرة القادمة سأحرص على إحضار سوط معي حتى أخضعك كالعبد.

تراجع معاذ نافرا منه وراسما على محياه نظرة حنق وحيرة في آن واحد، ثم خاطبه بنبرة كاتمة:

- لكي تخضعني قلت.. أو تخدعني بخزعبلاتك، يا بدر.. اسمك هو بدر.. بدر التيزي كما أخبرتني، صحيح؟

- لا أتذكر اني أخبرتك.

- خذ شارتكم السخيفة التي تدل على كونك شواحي قد سقطت منك سهوا فقرأت اسمك عليها.

- سقطت سهوا؟!!

التقط الشارة مبتسما وحدث معاذ في السماء مطولا ليستأنف قوله:

- ليست هناك مرة قادمة.. كذبت عليّ من قبل حينما اطلعتني عن خطتك التافهة التي يصعب تصديقه لكني

قلت انه شواحي لعين وطائفهم سوت المستحيل عدة مرات في التاريخ.. لكنك لست كذلك، أهاه؟.

- لم اكن اعرف عن الطائفة انها عملت امورا مستحيلا.

- ربما لأنك انضمت لهم بالغش او الرشوة او الخداع او هم معا.

- انضمت عن طر...

قاطعها صارخا:

- لا يهمني سيرتك التافهة كخطتك.. لو هلة ظننت انني سأخرج للعالم واتخلص من رتبة تلك القرية.. كما

فعلت من قبل بيد انه حدث ما حدث قبل.

اطرق بدر في التفكير ثم قال:

- ماذا حدث لك؟

- لا شيء يهكم.. فلم نصر رفقاء بعد الآن.

أطلق بدر قهقهة متهكمة فقال:

- ولم تكن ذلك بل كنت مرافق.. اتعرف معناه؟.. هو

الذي يرافق شواحي ويساعده تماما مثل مرافقي

الفرسان او الملووك او التجار الذين يستأجرون مقاتل

للحماية.. الواقع هو انني هنا..

رفع يده قبالة وجهه قبلما يردف:

- وانت هنا.. نعم هنا.

قابل اليد الاخرى امام بطنه ثم اخفضها الى الحجر

قائلا:

- او هنا.. عفوا، لا يصح.. ابقى هنا افضل.

قالها فيما يعيد يده قبالة بطنه، وفيما يبخلق معاذ

مستغرب وممتعض فقال:

- لعله هذا هو سبب مقت الناس لكم حيث صرتم بلا

قيمة او منفعة وإنما مضيعة للضرائب.. رغم اني لا

ادفعها.. انسى ما قلت.. ادفعها احيانا.. الجميع يخالف

القانون فلا يدفعونها بتاتا ولو مرة واحدة في حياتهم.

ربت بدر على كتفه قائلا:

- لدي فكرة مناسبة لك.. ساعدني في اكمال عملي

وسأخذك الى مكان ستجد فيه من تناقشهم حول تهرب

الناس من الضرائب.

- حسنا، موافق فكرتك جميلة كتفكيرك الوردى الحالم..

هيا بنا نحقق احلامك.

وأبعد معاذ يد بدر من كتفه وابتعد عنه يرتعش

جسده فهتف فيه بدر:

- معاذ!.. هاتان اللتان تراهما مجرد قنسوتان مربوطتان مع بعضها هي سبيل خروجنا.. حاشا ان اكذب عليك، الخطة تبقى كما هي وقد تحدث تغيرات حسب الظروف.

مسح معاذ جبينه المتعرق وقال متحسرا:

- أه!.. يا بدر اسم على غير مسمى.. انت انتهازي استغلالي بلغتنا شواحي اخرق.. آخر كلامي السلام عليكم وبالتوفيق في محاكمتك كونك تظن الأمن في العاصمة كالأمن في القرى.. لن اتشرف بان اكون واحد من طائفكم.

- ومن قال انك واحد منها.

انطلق معاذ في حال سبيله بينما زفر بدر مخفيا قلقة لذا قال:

- إذا ذهب واحد انكب عليك خلق الله افواجا.. اما مثلي فصعب ان تجدهم.

ثم قهقهه لتتحول ملامحه الى اليأس فور انعطاف معاذ: {باقي الشواحيين يستطيعون إيجاد مرافق في المرة الاولى عكس انا.. يبدو تجريب مرافقة اكثر حكمة بعدما فشلت مع الاثنان}.

لم يكن معاذ يعرف وجهته التالية او يملك مالا للمبيت، بل لديه حصان يعلق فيه سرج يحتوي على محفظة صغيرة فيها قارورة مياه شبه ممتلئة وفي الجانب الآخر من السرج يثبت خنجر غير حاد النصل، لا يكفيه هذا في المبيت خارج المدينة وسط المخارط الطبيعية والبشرية لكن لا يمتلك درهما واحدا.

تمتم قائلا:

- صرت راشدا وانا قادر على تدبر امري.

وها هو رابض تحت ظل شجرة من سلسلة اشجار متنوعة تتخذ كلما هو خارج المدينة منبتا لها، ومن بعيد يرى البوابة الضخمة للمدينة مفتوحة على مصراعيها فيتوافد المئات اليها راجلين وراكبين ما عدا العربات التي لها باب خاص يمر من خلاله التجار او كل من له حمولة ثقيلة.

خيم عليه ليل تكسوه سماء متألئة بالنجوم وسطوعها منير ومبهر للأعين، فرد غطاء من صوف الخروف على الارض. خلال المدة التي سبقت الليل شبع جوعه بفاكهة الشجر المثمر، وقد احس رطوبتها داخل جوفه بفضل سكب نزر من المياه عليها وشرب ما تبقى منه، اما في الليل ساعد نفسه بغطاء من ورق الشجر وقاه شر البرد القارس.

استيقظ على اصوات المارة منهم يخلق جلبة من وقع اقدمه وآخرون بواسطة خيولهم ذات الصهيل المفجع، وغالب الامر انهم متوجهون الى المدينة باكرا ليحتلوا اماكن السوق قبل الغير. كذلك اراحت اذناه انغام العصافير المزقزقة فوق أغصان الاشجار.

قرّر الاعتماد في اكله على الفواكه مجددا فراح يقذف اصناف الحجر مجتاحة الاوراق وضاربة بعضها الاغصان حتى تساقطت برتقالة غير ان العصافير حلقت فارة من رشق الحجر الجائر..

- هذا سلوك غبي، يا بني.

التفت خلفه بغنة الى مصدر الصوت الذي هو رجل عجوز يقود عربة تحمل البضائع يحلس بجواره امرأة وطفلتها لهما شعر أحمر يمتزج مع خصلات سوداء

تبرق محياهما الأبيض. تجاهل معاذ تعليق العجوز لكنه
ود الردّ بلا غضب فقال:

- كان ذلك من اجل الطعام لا اكثر يا سي... يا أيها
العجوز اذهب في سبيلك واهجو احد غيري.

امتقع الرجل وحثته ابنته في صمت على المغادرة،
فهدأه مبتسما:

- مهلا يا بني، لا بد انه يوم عصيب مر عليك البراحة..
ولا انا محب لإزعاج الناس خاصة الحائقين.. أمل
مسامحتك لتطفلي.. وايضا ابنتي هاته عانت ايام شديدة
وحالكة حيث ان زوجها أخذو...

- ربّاه!!.. اعفني من سيرتكم.. لست طيبب الروح..
استمروا في طريقكم وستجدون في المدينة طيبب روح
في... في.. تبا لكم اذهبوا فحسب.
صرخت فيه الامراة منتفضة:

- قف عند حدّك. ألا تعرف كتمان غيظك؟.. انت الذي
ستذهب من هنا حالا.. هذا اول يوم لنا في المدينة فلا
تجعله نحسا علينا.

- أتعلمين انه لا مشكلة لدي في ضرب النساء.

- حقا؟؟.. تعال وارني لأني لا اعلم ذلك.

بسرعة جر الرجل اللجام لتتطلق العربية لنلا يقع
نزال لا يحمد عقباه، ومع ذلك ظلت ابنته في التفاتة
لمعاذ تصرخ فيه:

- سنلتقي مرة اخرى وسأعلمك من هن بنات الجبال.

- آاه!. انت من الجبال لم تعتادي على مكالمة الناس
بل مخاطبة الجبال.. وانكن خشنات كنسائنا.. رباه، كم
تحتاجون الى سطل على رؤوسكن حتى تحترمونا.

لما ابتعدوا عن انظاره حزم اغراضه ووضعها في السراج ثم امتطى الحصان ليبادر ذهنه فكرة العودة الى العاصمة فطردها قائلاً: { لن اعود الى ذلك الشواحي المريب }.

وكز حصانه مندفعاً يمر بمجموعة تلو الاخرى بضعها تجار ومسافرين وغرباء بملابسهم الملونة: { هذا ما تحتاجه المدينة مهرجين يضحكون فقط انفسهم }.

توقف قرب واد زرقاوي يلمع ضوء الشمس في سطحه البراق، عقل لجام دابته مع غصن مهتري ثم وثب يستحم في الواد بعدما خلع ثيابه العلوية وخذائه، أخذ يفرك جسده من ثم يسبح ذهاباً وإياباً ليعود الى فرك وجهه ورش الماء تحت ابطه، تسامع الى اذناه نباح كلاب الصيد المعتاد فلم يعبأ به بل غطس يبقبق ويجول بعينه في الشعب المرجانية والاسماك الحائمة حوله صعد الى السطح يتنفس الصعداء.

سبح على خطوط متعرجة ثم تجاهل صوت انكسار الغصن فمسد شعره لتتطاير القطرات ثم ارتمى يغطس وخلفه الحصان جمح وهرول راكضاً لكن حاصرته الكلاب المستعرة يجمعها جبل حول اعناقها مصدره جندي يعتمر خوذة معدنية وسترة زرقاء غامقة.

صعد معاذ يحدق في انف اخضر طويل مكسو بالحراشيف مر امامه فتلاقت عيناه المرتعدتان مع العينان الباردتان فهمس:

- تمسااح!

حضر جنود مستلين سيوفهم ولكز قائدهم المرتدي لعباءة حمراء صاحب الكلاب قائلاً:

- روضهما ليهدئا.. انتم البقية أحضروا الفتى سنعلمه طريقة إطفاء النيران التي أشعلها بالأمس.

سكن معاذ في مكانه يترك التمساح يسبح كيفما شاء كما اخفض نظره متجنباً إيصال رسالة تحدي.. ثم اثاروه الجنود وهم يلطمون سطح الماء يركضون بتثاقل وجور، ارتعش معاذ وهتف فيهم بخفوت:
- توقفوا وإلا سوف اكون الوجبة الأولى.

بدي أنهم لتوهم رأوا التمساح فتسابق نصفهم للخروج من المياه حيث اتجه اليهم راسما ابتسامة لدى معاذ نظرا لان الحيوان تجاهله. استطاع التمساح إمساك قدم جندي يسبح فأحكم اسنانه الحادة على الربلة وجره لداخل الماء يدوره كعجلة تدور بالمقبض ولم ينفعه التقاط رفيقاه ليديه وأصدر القائد أمرا حازما من نبرة صوته:

- دعوه قبلما يجركما ايضا.

دون تردد واضح افلتوه غير مباليين بتوسله وصراخه الحاد، وبعيد ذلك فارت الدماء تطفو فوق السطح خلالها كان معاذ يسبح بعيدا ثم خرج الى اليابسة وهم في شماله واستمر في الركض متخليا عن ممتلكاته.

يترنح متصادما مع جذع الى جذع كالثمل تشوش ذهنه ونظره حيث يغشاه الضباب يلهث فيقاطعه السعال، والحظة استفاق متضحة له الرؤية ليصادف رجلا يفتريشان الارض كلاهما مبتسمان في ريبة وهو يلقي عليهما نظرات الازدراء. وكان استيقاظه بسبب سماعهما يقولان:

- اشعر بالجوع.

- اشتاق الى لحم الخروف الصغير.

سار في حذر يراقبهما بغية اللوذ بالفرار مخافة ان
يفعلا معه ما خاله من كلامهما وتوقف يبلع ريقه
فوضعت يد خشنة على شعره تنتفه بحنو فاستدار ببطء
ليقول صاحبها:

- المكان موحش وذانك الابلهان يزيدان إحاشا، فما
رأيك ان تمكث معنا؟

كان الرجلان الجالسان يتشابهان طولاً وعرضاً
وشكلاً ولوناً وحتى قصة شعرهما ذات الضفائر
الصفراء تبلغ آخر ظهريهما بخلاف الرجل خلف معاذ لا
يشبهما في اي شيء، شعر اشهب عينان سوداويتان،
ابتسامة مشوّهة وهيئة معتدلة عوض نحافتها.

نهض واحد قائلاً:

- زيد والاطفال، علاقة معقدة تنتهي فوق السرير.

دندن معاذ متفاجئاً:

- زيد!

قهقه مما ارتبك زيد ودفع معاذ امامه قائلاً:

- كلا يا بيركو، احضر لي امك وساريك ما اهويه
اكثر.

عبس بيركو ثم نهض الآخر يربت ظهره ضاحكاً:

- معك حق، معك حق.. لكنه لا يستطيع إحضارها الآن
فهي منشغلة مع رجال آخرين.. انتظر دورك.

هما توأمان ولكن ليس من نفس الأم وإنما شبها
البعض، لم يعتد معاذ سماع مثل هذه الأمور ولا يريد
تقبلها رغم عنه فصاح:

- كفوا عن الكلام البذيء!.

احاط الآخر بذراعاه حول خصر معاذ ثم حملاه
منطلقا صوب فرسه السوداء وامتطاها قائلا:

- معه حق، معه حق.. لنكن جديين ونأخذه الى القائد..
عسى ان يكون مجنّد نافع.

الصق بطن معاذ على المتن فتأوه متألما وقبل راسه
يخاطبه كام حنونة في تهكم:

- اليس كذلك يا حبيبي؟.. نم قرير العينان.
رفع مقبض خنجره وهوى به على قفا معاذ فأرداه
مغميا..

.. انفتحت عيناه القريرتان تداعبه خيوط اشعة
الشمس المخترقة للمكان المجهول والمنيرة لجدرانها
المكسوة غبارا، وذلك بعدما فتح الباب رجل طويل
القامة واقفا امامه وضاما يداه الى الخلف، تعسر على
معاذ معرفته واستيضاح شكله لتشوش ذهنه ثانية
وحوام الضباب حول عيناه من أثر الضربة الفاقدة
للوعي.

اخذ الرجل الطويل ذقن معاذ يهزهزه ويحركه يمينا
وشمالا لكي يستبين مدى تعبته لذا أمر رجاله:

- صبوا ذلك الدلو عليه حتى يستيقظ كليا ويفهم ما
يجري بوعيه عندما سأحدثه لاحقا.

في خضم حديثه كان رجاله قد نفذوا امره فاخترق
الماء البارد حافة عيناه إذ صارتا محمرتان، ولفظ
كلمات متقطعة بينما يلفظ قطرات الماء ايضا:

الض-ضو..ء..اله-هواء.. ارجو-وك..م!

فهم القائد مبتغاه فردّ عليه جاهرا:

- تريد ذلك، لك هذا إن قبلت عرضي.

- ما.. هو؟

ل- ا، لا، لست وانت في حالة إغماء لا تسمح لك
بالتفكير في القبول او الرفض.. وكما يعرفني الجميع
بكرم ضيافتي سأعود المجيء إبان الغروب لنتناقش
الأمر.

هَبّ بالمغادرة أمرا إياهم:

- دعوه يرتاح، سوف اعود الليلة.. انتم لا تتركوه
وحيدا بلا اكل او شرب.

اغلق الباب على وجه معاذ المنكمش فاسترعتة
الهمهمات الصادرة من وراء الباب لحديث القائد مع
رجالہ لكنه لم يفقه منها شيء.

بخلاف ذلك استطيب وجود ضوء فانوس بجواره
حارس فارع القامة واسع المنكبين، مناسب لهذه
المهمة في حالة هروب معاذ، وكذا استطيب سلة الخبز
ووعاء فيه زيت مع كوب شاي.

فك الحارس قيده قبل ان يستند على الحائط في
جلوسه على الارض قبالة سرير معاذ المريح نوعا ما،
وترك له الحارس كلامه البادي غير مهين ولا نصيحة
حيث قال:

- اخلد للنوم، فحري بك الاستيقاظ قبيل الغروب لو كنت
في مكانك كونك ستخوض حديثا شاقا مع شخص
موهوب في الإقناع.

علق معاذ ساخرا رغم كلامه الثقيل من شدة العياء:

- اوه! لا عجب في ذلك، إذا كان قد أقنعكم في العمل
معه.. في مثل هذه الظروف.

لم يبذل الحارس عناء الرد حتى مع استئناف معاذ
حديثه بنبرة متطفلة خافتة:

- وبالمناسبة، لا زال بإمكانك ان تكون في مكاني إن اردت الاستبدال معي.

واعقب قوله بضحكة خافتة عكس غريمه الساكن ثم طبق نصيحته شاعرا بدفء رغم احساسه الضئيل ان قفاه تنزه. كان متكئا على جهته اليسرى فلما فتح عيناه محاولا تحيز فرصة يغرق فيها الحارس نوما بيد انه وجده مستيقظا يلهي نفسه عبر التحديق في السقف والنظر حواليه.

طأطأ معاذ راسه تجاه الباب متظاهرا انه نائم في حين يتفحصه لعله يكون مفتوحا، ربما بغرض ترك مجال لدخول الهواء وقد خائنه تفكيره بوجود فتحة مربعة فوق الباب لا تكفي على الاقل لمرور كلب متوسط الحجم.

فجأة بلا مبرر لدى معاذ قرر التحدث مع الحارس إذ شاهده يرتج عندما سأله:

- ولم قائدكم اراد المجيء في الليلة وليس قبل ذلك او في فترة العصر؟

تدارك السؤال المباغت، وفي خطوة لإخراسه قرر الجواب:

- ببساطة لأنك استيقظت في العصر عندما احضروك.

اصدر معاذ تعجبا طويلا اثار حفيظته فصرخ:

- أطبق فمك الضئيل وانتفع بهذه السويغات النادرة لتنام قبلما تتدم لضياعتها.. قد قلت لك أنفا * لو كنت مكانك * بقصدي اننا جميعا وباسم كل الرجال التابعين للجماعة نحسدك على الكنز الثمين الذي قدّم لك دون استحقاق وهو النوم يا جاحدا!.

ظل معاذ فاغرا فاهه يستوعب الحديث المتخلل
لنبرات الالاسى والشكوى لذا خاطبه في شفقة:
- ربّاه! هذه اوجع شكوى سمعتها في حياتي القصيرة
التي عشتها.

انتفض الحارس لقوله:

- ما لذي تتبرّزه يا مضخوخ الفضلات؟!.. انا لا اشكو
لاحد.. او تحسب نفسك قادر على تهديدي بذلك؟
- بماذا؟

- باخبار القائد اني لا اطيق المكان.

اطلق معاذ قهقهة استخفاف وقال:

- ليس امر جل.. هو ايضا لا يطيقه لهذا غادر المكان
بأقصى سرعة.

- آه، تحليل مبدع.. تعسا لك.. ماذا تعرف عنه انت؟
لتوك التقيته.

- أصبت.. لكني التقيت امثاله بما فاق عدد اصابع يداي
وقدماي.

تمكن كلامه من اضحاكه ليطرد حزنه الجليّ
والبادي في ملامحه القمحية وعظمتا فكيه بارزتان
تظهر عيناه الثاقبتان المحمرتان، وشعر اسود مشعث
ومبعثر كمثل تبعثر شعر معاذ الكستنائي.

جالت في ذهنه فكرة الغناء عبر التصفير الخافت
فراح ينسج اوتاره في صفير منخفض اعقبه اخر
مرتفع مداه قصد احساس الحارس بالملل من ثم يغمض
جفناه. لذلك استمر معاذ يرفع ويخفض من نبرة
التصفير والددنة بينما يمتعض الحارس ثم يغمض
عيناه متأففا.

لبث معاذ غير بعيد حتى سمع شخيرَه المزعج، ولم
يتردد في الزحف نحو الباب يفتح ببطء شديد متجنباً
الصرير الفاضح، خلال خروجه اعطى للحارس التفاتة
بغية التيقن من سباته ثم جذب اليه الباب في حذر
يلزمه في كل لحظة وزفير.

بعدما قرفص سرح نظره حول المكان من اشجار
تحيطه وسماء ملبدة بالغيوم، ما سمح للهواء المنعش
يلج الى رئتاه. فطن ان المكان لا يغدو مجرد مزرعة
غير كونها إقامة سرية تختبئ وراء الاشجار، وحيث
لمح زريبة الخنازير وحظائر الاغنام واسوار تحاصر
الابقار ورأى اسطبل مديد.

تحرك متثاقل يطل على المخرج الذي هو عبارة
عن بوابة مفتوحة مقوسة تحمل لافتة خشبية كتب
سواء في مقدمتها وآخرتها اسم { مزرعة الأخوين.. لا
ترحب بكم}، ينطلق من جانبي البوابة سورين من
الطوب يكتنف المزرعة بأسرها.

اكمل سيره مقرفص مارا امام منزل صاحب المكان
فظهر له رجلان مسلحان يربضان في المخرج الوحيد،
وشهد ستة من المثلثين حائمين كل جالس إما على
جذع مقطوع او الارض.

تبادر في ذهنه خطة غريبة قد تعينه في الفرار من
مأزقه، لذلك توجه صوب الحظائر والزريبة فاتحا
بيباتها وفك عقد الأحصنة وايضا فتح باب سور الزريبة
وسور الأبقار. زاد من نجاح خطته طرده لهم عبر
الدفع او استدراجهم بالطعام.

تسارعت الدواب تخرج مهرولة عشوائيا وهابة
هبوب الرياح التي لا تبقي ولا تذر لأي شيء صادفته

سواء يتناولونه او يخربونهم، فهنا نخير الخنازير
ومواء الأبقار، اما هناك ثغاء الخرفان وصهيل
الأحصنة. لحسن حظه وجد عربية بعجلة واحدة تحمل
اكوام القش لم يتأخر في الاختباء داخلها ريثما تكشف
ثغرة البوابة.

بغض النظر عن كثرة الدواب وقلة الرجال ظلا
حارسا البوابة يحدقان من بعيد في الفوضى الطارئة اما
م مرآهما دون ترك البوابة معتمدان على قلة حيلة
رفاقهما، حينها ظن معاذ انهما انضمما الى الرجال في
تنظيف الفوضى ما جعله يهم واقفا غير ان ما اقعده
اهتزاز العربية المفاجئ ثم تحركها المجهود عبر لهث
حاملها لثقل ما يحمل، فترك مقبضاها شاهقا ثم زافرا
وقال:

- هل العربية ثقيلة لهذه الدرجة ام انني..

فقلبها معاذ بجرّ المقبض الايمن للجانب الآخر،
ودوى صوت ارتطامها مع صوت ارتطام معاذ
وخشخشة القشة المكتسية لثوبه، عندها قام واقفا
ونافضا عن نفسه وخز القش ليرى الاندهاش البادي
في عيني الرجل ما لبث ان تحول الى احتقان لما اندفع
موجها قبضته نحو معاذ الذي اسرع منحيا يلتقط كومة
نثرها في وجهه بسرعة.

استقبل الكومة راقصا على منوال مجنون حيث
نفذت بعض العيدان الى مقاتلاه فرفع عقيرته يسب
ويلعن بما طاب له دون قيود. اثناء ذلك مرق معاذ من
مكان سجنه نحو حرش يقرب البوابة بضعة أقدام،
وخاب ظنه من لزوم الحارسان لها ثم صوب نظره الى
مربض الدواب فشاهدهم يمرحون ويضحكون في اعادة

الدواب إن كلما قادوا مجموعة انسلت بينها دابة
فيعودوا الى مهزلة المطاردة الممتعة بالنسبة لهم: {
هذا ما احتاجوا اليه}.

حصر تفكيره على المخرج فما رأى الا ان يسند
ظهره الى السور وحينما قفز الى حافته خفق في
التشبث بها إذ سقط على قفاه مغميا عليه تماما. وهو
في غيبوبته جاء رجل قصير يرتدي رداء يدع القلنسوة
خلف ظهره، فقال مستغربا:

- أو!.. أو كأنه متسلل اخرق.

نادى على الحارسين يخاطبهما بنبرة عالية:

- أين كنتما لما تسلق السور هذا الغبي متسللا الينا؟

بديا مشدوهان فقال احدهما محافظا على استغرابه:

- لا، لا يبدو على انه تسلل.

- ماذا؟.. لا تتجاهل سؤالي.. أجب!

- كما اخبرتك، اظنه حاول الهروب.

حدج صاحبه يسأله:

- الم يكن من الذين احضره رجالي في الصباح الباكر؟

أجاب غير متأكد:

- ربما، لا ادري فنحن لا نستطيع رؤية القادم كونه

مغطى الرأس حتى لا يعرف الطريق.

- الم تتذكر ثيابه؟

اجابه الحارس الاول:

- عادة نتذكر بيد انهم يغيرون ملابسهم.. انظر يعطونهم

دائما ثيابا بالية تليق بهم.

اشار الرجل القصير الى البيت الذي يحتجزون فيه

الوافدين فقال:

- فليذهب احدكما الى بيت الوافدين لإحضار الحارس فيما يحضر الآخر دلو بارد.
- تهامسا مع بعضهما:
- اذهب انت الى الحارس.
- كلا، لا اريد ملاقة سعد.. ألا تذكر نزالنا؟.
- آه، حسنا احضر الدلو.
- لا اظن ذلك.. يداي تؤلمان.. ألا تذكر لواها سعد خلال النزال؟.
- آه.
- رفعا راساهما تجاهه وقال الأخير:
- يستحيل تطبيق ما أمرت.
- لماذا؟.. شخص بحجمك يقدر ان يحضر الدلو في نفس الوقت الذي يحضر فيه الحارس.
- لا، اقصد انك لست قائدي.
- ثم قهقهها مبتعدان نحو البوابة عندئذ صفر الرجل القصير فخرج له زيد فأمره قائلا:
- احضر دلو والحارس سعد.. إنه يوم سعده.
- وسعدك أيضا.. عفوا.
- ظل يرمقه بجمود فانتظر هنيهة قبل ان يأتي بدلو ساخن سكبته على وجه معاذ فنهره القصير:
- رويدك!.
- احضر دلو لأسكبه.. أمر واضح وبسيط.
- انتفض معاذ شاهقا واعلن سعد مبتسما:
- سيدي، اردتني.
- كلا، اردت ما في راسك.. هل تعرف هذا الفتى؟.
- سؤال محرج يا سيدي.. حري بك مسائلة زيد.
- ابتسم مرتبكا ثم دنا من اذنه وهمس:

- لأنه يعشق الاطفال.

لكزه زيد مدافعا عن عرضه:

- كاذب، فليحضر لي امه وسأدحض قوله.

رَبَّتِ القَصِيرِ على ذراعِه مازحا:

- لعله محق.

- لا والـف كـلا.. احـضر لي.. أ.. احـضر لي الفـتي

سأقوده الى المحتجز.

هتف سعد قائلا:

- وهناك حيث س...

لمح نظرات الازدراء لدى القصير فلحق شفته

وركض مبتعدا، أمسك زيد معاذ يرفعه فوق كتفه وأخذه

الى بيت الوافدين هناك كان سعد ينتظرهما. القى معاذ

فوق السرير ورمق سعد واجما فقال الأخير له:

- بدأت اضيق ذرعا من هذا المكان البئيس.. لا اعلم ما

لذي افعله هنا.

- يجدر بك الهروب فالأخوين علما بمرسلك

- مضحك.. هل اتحدث مع عاقل؟.. ارجوك كن عاقل

لأخاطبك لعلني اجد غايتي فيك.

اغلق زيد الباب والقى نظرة حانقة وقال:

- غادر.. يا قواد الملك.. والا سأرسل لسانك اليه.

- ما-م-.. قضيت سنين معكم، كيف سأخونكم دون ان

انتفع.

عقد زيد ذراعيه قائلًا:

- ارحل حالا!.. مات الملك الذي اوكلت اما ولي العهد

فلا يدري عنك.. ربما.. لكن لم تعد لك فائدة لا لهم ولا

لنا.

-لكم؟

- أجل، اعتدنا مدك معلومات خاطئة.
- راح سعد يزفر مهدئا روعه وقال:
- إن كان ما تتفوّه به صحيح فلم تساعدني؟.. إن كان قولك صحيح، إن كان.
- انت قلتها.. قضيت سنين بيننا حتى كدت تصير بمثابة اخي.. او صديقي.. لن اخذك بسبب خلافات بين الجماعة والقصر.
- الصق كفه في وجهه يفكر مليا فقال بصوت رخيم:
- الليلة وقت مناسب للفرار.
- خذ وقتك وإياك الوشاية بي إن امسكوك ولن ارحمك لو كنت من سيطاردك.. كن حاذقا.
- غادر زيد بينما كان معاذ يصغي اليهما متكئا على وسادة ناعمة زفر قائلا:
- محظوظ أنت لوجود رفقة مثله.
- كيف استطعت الفرار؟
- لن اخبرك حتى تطلعي خطة فرارك الليلة.
- لن افر ففي الليلة سيكون القائد.. اظن زيد نصحني بذلك ليوقعني.. كما ان ذاك الحارس ان لا يغادران مكانهما بتاتا.. لا سيما ذو القرنين في شعره.
- التقط سعد خنجرا وثبته في خصره قائلا:
- سأغادر الآن.
- بالتوفيق
- نطقها خالدا الى النوم وفوجئ بيد سعد تنهضه وترفعه فوق كتفه حيث جعل رأسه للخلف معلنا صاحبها:
- وانت كذلك.. بالتوفيق معي.

خلال سيره التقى برجل يجر عربة بعجلة واحدة
يرمش كثيرا فقال له:

- ما بالك يا صاح؟

- ذلك الفتى.. إذا وجدته.. ما لذي تحمله؟

لحسن حظه انشغل الرجل بعينيه يفركها لذا لم يهتم
لمعاذ فأكمل سعد سيره وخلفه راس معاذ ارتفع صوب
الرجل هاتفا:

- مرحبا!.

التفت الرجل جافلا فافلت المقبضين مندفعاً نحو
حيث اصفر وجه معاذ مرتعدا فاستدار سعد قاذفا خنجره
الذي شق حنجرته ثم جذبته من ضحيته ليعيده الى
خصره قبلما ينطلق مسرعا.

التصق مع السور وساعد معاذ على تساقه ثم وثب
متشبثا بحافته ودفع جسده للجانب الآخر حيث حط معاذ
بسلام وارتعش فور سماعه شيئا يخرق ولحما يمزق
رفع راسه للأعلى مستقبلا جسد سعد الهاوي عليه.

استقر سهم في مؤخرة ساقه وحينما هم معاذ بنزعه
صاح فيه:

- ليس الآن!.. استطيع السير.. هيا اسبقني وتقصي
الطريق.

ذلك ما فعل يخرق صفوف الأشجار ثم يعود الى
سعد كي يريه الطريق وفي المرة الثالثة سأله:

- ألم تقضي ربحا من الزمن هنا؟.. لكنت تعرف كل
شاة وفذة.

بلغا صخرة كبيرة في وسط ساحة خالية من مظاهر
الطبيعة، وارتدى سعد الى احضانها ومزق كم قميصه
على نحو دائري فأخرج السهم بقوة صاك اسنانه على

عمود خشبي من ثم لوى الخرقة حول مكن الجرح
وشد الحزام جيدا.

ظل معاذ يراقب عمله مندهشا وقال:

- لديك الكثير من الحساد.

- إنه القزم.

- قزم؟!.. ظننته رجل قصير القامة فقط.. والاقزام

تكون وجوههم مختلفة عئا.. اما وجهه يحتوي على

تجاعيد وانكماش لعلها تعود الى قتال عنيف او ورت

عائلي.

- ممتاز.

قالها غير مكترت واغلق عيناه متضايقا من ثرثرة

معاذ الذي قال مفكرا:

- الرجل القصير ارداك بسهم في ساقك.. ما يعني انه

راك تفر وعسى الا يكون رآني.. ولهذا إما لا يهتموا

بهروبك فيذروك وشانك او سيعلمون انك اخذتني

فيرسلون الماثمين لاسـتردادي نظرا لأهميتي.. ولا

أقصد الإهانة حتى إن كنت.. تعلم، اذكرها بوضوح.

- الحل إذن، سوف اسلمك لهم لو امسكوني من اجل ان

يدعوني افر بسلاالم.

ذهب معاذ يتفقد المكان يلتقط ما امكن من الهواء

الذي سيساعده على الخروج بحل سليم، تجاهل سعال

سعد وواصل تفحص طريق قدومهم، الصق اذنه في

الارض على يسع قدح حوافر دوابهم وبعدهما خفت

وهجان خوفه وتفكيره المضطرب عاد الى سعد فوجده

مسترخيا على وضعية قد تؤذي عنقه وظهره فلكز

ساقه بقدمه ليستيقظ صارخا وثافلا سائلا احمررا يمتزج

مع السواد وجاهد للكلام:

- اصببت.. جر---حي.

تلاحقت انفاسه فيما تسارعت نبضات قلبه التي اطلقت نزيفا مهولا يسيل من انفه، ارتجفت اوصاله تتملكه قشعريرة كالتى تملكتم معاذ فاخذ يلطمه قليلا لكي يعيده الى وعيه ويقول:

- تنفس جيدا.. خذ نفسا عميقا وطويلا.

بدأت انفاسه تتأقل عبر نطقه لكلام مشوش وممزوج بحشجة محتضر، ولسوء حظه فشل في إيصال كلامه لمعاذ الذي كان يخطو جيئة وإيابا من اجل التوصل الى حل، لكن تفكيره حصره في كيفية التعامل مع جثته مدندنا:

- أسأدفنه هنا؟.. كلا سيصلون اليّ.. احرقه؟.. تبالا استطيع إحراق لحم حيوان يهاجمني فما بالك بإنسان قد ساعدني.

انتفخت اوداجه جاعلة وجهه يشحب ثم ينتفخ محمرا كبركان هائج ثم اطلق صياح تقطع الأذان لكون داخله يمزق شر ممزق فراح يتقلب على الارض وينطح راسه مع الصخرة حتى تلطخت بالدماء واختنق تنفسه يتنهد طويلا ويكتمه فورا.

طرد معاذ فكرة تقديم موتة سريعة له علما انه ذهنه انشغل بترديد اسئلة تحوم حوله كهمس: { ماذا أفعل؟.. ما العمل؟.. ماذا أفعل؟.. ما العمل؟.. }

ها هو الآن جالس في مكان قصيّ يمساك الخنجر وتداعب أصابعه نصف السهم إذ احتفظ فقط بالنصف العلوي، ابتغى بشدة إضرام تلك المزرعة عن بكرة أبيها بيد انه نسي الطريق كونه غادراها بذهنين مشوشان.

كان الزمان توقف عنده فالحظة هو في مجرى مياه يغسل وجهه ويفرك عيناه، ثم في أخرى هو لدى باب منزل مهجور كسره ولما لم يجد نفع داخله غادره شارد الذهن.

لم يلقي بالا لعطشه او جوعه او تعبته الشديد، نفخت في اذناه الرياح وضربته اشعة الشمس قبلها، اما بحلول الليل فيرخي الظلام سديله وما اهتم بزخات المطر او جلجلة الرعد مفترشا حشائش الارض تحت سطوة المطر رفقة حضرة الرعد.

بخطوات قليلة يقربه ترسم الرمال التي امست او حالاً طريقها على مدّ الافق، وعادة ما سيمر احد عبره في ظل حالة الطقس، لكن العادة لا تحتسب دائما..

.. سهيل خيلان يتصاعد ثم يتلاشى في آن واحد، لبرهة عادت الاصوات مضافة اليها صرير عجلتي العربية التي يجرها الخيلان في خطى وثيقة غير انهما يصدران ضججا احيانا.

كان من يمتطي العربية رجل ليس سمين جدا ولا نحيف تغطي قانسوة برتقالية راسه لتصد نقرات قطرات المطر الهتون، ظن بغنايه سوف ينسي عنه مشقة السفر فلم ينسيه حتى برودة المطر القارس.

يحمل في عربته دلاء غير معروف كنهها مغطاة برداء صوفي فوق ردايين جلدي الماعز بغية وقاية مقتنياته من المطر. كان يفكر فيما يشغله عن رتابة الطريق فيصفر حتى يذكي تفكيره قبل ان يقطع الامرين معا حينما لاح له جسم نحيف ومبتل راقد بجوار جذع شجرة تسيل الماء وجرّ لجامه محاذيا الفتى وجذبه اليه

لتتوقف الدابتين دون عناد كما روضت، وصفه عليه
مناديا:

- يا صاح.. هيه.. فق!

بعد طول انتظار تلمل الجسم المنكمش على نفسه
متكور ضامًا ركبتيه الى صدره ويقابل السائق ظهره
الذي التصق في القميص، ساك الرجل المنتفخ يده الى
جيبه فاخرج كسرة خبز غلب عليها العجين وقذفها
نحو الجذع وارتدت واقعة قرب بطن معاذ الذي التهمها
بنهم متجاهلا ابتلال الخبز عندما سقط فوق العشب
الاخضر المبتل، فاما هذا او لا شيء.

ناداه السائق مجددا رافعا صوته بسبب خطف حفيف
الشجرة المرفقة بنقرات المياه لكلامه، فجهر:

- اركب معي.. فلنغادر سريعا.

نطق معاذ كلامه المرتعش تتخلله الحشجة:

- الى اين؟

- ساويك في مكان دافئ.. صدقتي.

- عدني انك لن تموت ايضا.

- م-ما.. حسنا، لن اموت حتى اوصلك الى المكان.

توجه معاذ خلف العربة والتحف اريدتها ينام في
فسحة ضيقة وخذ الى النوم بعدما قال متهدا:

- سأعدّ من الآن المدة التي ستتتفّس فيها قبل ملاقاتك
حتفك.

ونهض دانيا قرب اذن السائق وهمس:

- معاذ.. هذا اسمي.

- تشرفت بك.. انا ناصر.

- جيد.

كان ناصر يشيح نظره عن ملامح معاذ المخطوفة وشحوب وجهه ما يبرز احمرار عيناه التي اغلقها فغاص في نوم بسرعة لأنه لم يتنبه لحركة السائق يخطف خنجره ويلقي نصف السهم فوق الارض.

احيانا يهتز معاذ ويرتج كالدلاء النائم قريبا كلما تعثرت دابة اذا مرت فوق ارض مموجة او متشققة، بفضل صلابة الدابتين تتمكن العربية من تخطي العقبات المؤدية الى توقف الحركة وانبعاج معدن العجلتين والتي تغوص في عمق الاوحال بيد ان السائق توفيق في اختيار العجلة المناسبة للعربة المناسبة لرحلة كهذه محفوفة بالمخاطر الطبيعية.

لا زالت الرياح تجترّ معها وريقات شجر السنديان فتلقوها بمحاذاة وجه ناصر فمنها من خطت خده البارد بخمش ضئيل ومنها التصقت في جبينه المتعرق. اعتاد ناصر على سكون المناطق التي يمرّ عبرها في رحلاته، وأحياناً خلال الجو الصافي تزدحم الطرق بالمسافرين أو المستلقين بالتالي تتعالى اصوات مبهمه تؤنسها زقزقة العصافير والبلابل بالإضافة الى النباح الطاغى لكلاب ترافق اصحابها للحماية ودوايك.

نقل ناصر أعينه بين مباحج الطبيعة ذات الرونق الجذاب وسط ظلمة الليل بخلاف زخرفها في النهار تحت سطوع الشمس، وعلى مضض قبض طرف الغطاء بعدما استدار ناحية معاذ النائم، من ثم غشاه فوقه كالكفن فكانت حركته عفوية مرتبكة واتضح الدافع بظهور كوكبة من الفرسان يقودهم رجل نحيف ذو شعر اسود فاحم يكسو اديم راسه المربع، ويلتصق جلده الابيض الشاحب مع عظامه البارزة للملامح

ممتعضة من احاديث رجاله فلا شك انه مل من حماقتهم.

كانوا يلاصقون جيادهم مع بعضها أثناء سيرهم ليتراشقوا بالصفعات تلو الاخرى وبعضهم يتدافع حيث لم ينفع معهم صياح القائد ولا زجره لهم، فبدأ الاخير يشكك في مدى قوته وسماطته عليهم مما تناطحت الافكار والاسئلة السوداوية داخل رأسه: { ما بالهم لا يصغون لي.. هل المعضلة تكمن في شخصي؟.. كلا، ملت من سماع قول الناس ان اخي ذو الهيئة المعتدلة والجسم السليم والصلعة المستديرة هو الافضل لدى والدي المغفل.. عفوا، المرحوم}.

كاد الجنون من كثرة التفكير المفرط والمبالغ فيه دون الوصول الى جواب لولا لمحاه عربية قادمة تجاهه، تسابق الرجال صوبها و أحاطوها من كل حدب وصوب بلا إذن قائدهم.

هتف أحدهم قائلاً:

- يا إلهي!.. إنه ناصر.

تبعه الجميع في التهليل والصياح قائلين:

- مرحى.. ناصر!

وحدث ما خشي القائد فور رؤيته الجنود يرتمون الى ناصر ويقتلعونه من عربته ثم يشكلون حلقة حوله ويرمونهم الى السماء بكل قوتهم مرات ومرات عديدة حتى مع ثقل وزنه استطاعوا تحليقه، لكن فرحته الغامرة لم تكتمل استحالته الى إحساس بالقيء والدوار المشتد هيجاناً.

لبثوا قليلاً مستمرين في جلبتهم الحامية وراء البرودة القاسية وتحت مظلة السحب السوداء المثقلة

قهقهه بصعوبة فلم ينفعه ذلك عن إطفاء غضب
القائد * ملهام * الذي صرخ فيه بعنجهية عمياء تطاير
معها لعابه قائلا:

- أتلّمح بانني مشعوذ؟

- حاشا.. حاشا ان اقولها لمقامك.

استرعاه الصوت مجددا كانه نخير مختلق فكرر
ملهام السؤال:

- قل ماذا هناك؟

واشار الى العربة فيما اسرع ناصر مجيبا حتى
يتجنب الشكوك المطروحة:

- انت تعلم.. مزرعتنا نقص فيها الخنازير.. فأحضرت
واحدا ضخما سيكفي لوليمة ملحمية يا سيدي.. كذلك
اعلم مدى عشق رجالك للحم الخنزير.

عجيب كيف استطرد كلامه ببرودة دون تلعثم كعادته
امام الاخوين سواء كانا معا او فرادى، وظل القائد
مبجلق في العربة حتى بدت عيناه لن تفارقها وما
ايقظه من شروده سوى إحساسا رجاله بالجوع والبرد
فصرخ أحدهم قائلا بغباوة:

- فلنكمل سيرنا يا محمود.

قاطعه محمود ملهام بصرخة أتبعها قوله:

- سيد محمود.. اسمي سيد محمودوود!.

أغلظ آخر كلمة ممدا الواو عن آخره، فما بادر من
الرجل رد عدا ان رفيقه تدخل ساخرا بنبرة حنينة:

- رويدك، لقد اخفته.. سيد محمودوود.. لكننا نريد
ملاً بطوننا والإحساس بدفء اسرّتنا فتلطف بنا وعجل
الأمر.. يا محمودوود.

صمت قليلا ثم أردف بنبرة اقل حنوا:

- أرجووووك.

- سيفر، اخرس!

حتى وإن خرس قد انفجر رفاقه ضحكا فكانت
ضحكاتهم اسوء حالا من معاذ، وعندما اعجبهم
سخريته تحمس واحد هاتفا:

- سيد محموووود.. نشعر بالجووووع.

رَقَّق كلامه ثم اطلق ضحكة مصابة بالسعال، وفي
اية حالة سيقوم أي قائد مهما كان جاهه بتعليق امثاله
فوق اعمدة مخوزقة تخترق اسفلهم صعودا الى خارج
افواههم، لكن محمود نقيض اخاه محفوظ فهو بمثابة
اخوهم الكبير الذي يمدّهم بمتطلبات العيش، وابوهم
السليم الذي يحيطهم بكنفه، وصديقهم الحليم الذي
يمارحهم ويستقبل نكاتهم أيا كان نوعها.

أي احد سيرى ذلك ضعفا غير انه في قناعته وآراء
رجالته ما هو إلا انفتاح ينسيهم فكرة التمرد او
الانفصال عن المجموعة، إنه يحتاجهم بشدة خلال هذه
الاقوات المستعرة.

صفق رجل آخر فرحا وهو يضيف قائلا:

- إذا فلنمضي قدما آخذين معنا الخنزير الشهيّ.. ينبغي
ان يكون سمين مثلك يا ناصر.

اصطنع الأخير ابتسامة من أجل إرضاءه في حين
استكمل قوله محركا رأسه على نحو مثير:

- أليس كذلك؟ هذا ما اعتدناك عليه إحضار شبيهك.

ارتجج لسانه ضحكا فتبعه خبراء الضحك الذين
يقرقرون ويكركرون ويطيخون، رفع محمود قبضته
معنا نهاية الهزل السخيف بالنسبة له ولناصر ذوي

الثوابت الجديدة والمبادئ الجليّة، فزَعق فيهم لما رأهم
مستمرين في المزاح:

- كفاكم تأنثاً أيتها العاهرات الجريئات!

وبالفعل أُطبق السكون زاماً افواههم الفاغرة نزر
منهم كتم ضحكه، اعتادوا منه الصراخ الحاد لكن
التنايز بالألقاب هو حتما حدث جديد على عقولهم
المعطلة من الإفراط في الرفاهية التي يتقنونها حدّ
القمة.

ألقي محمود نظرة الثاقبة على ناصر ثم العربة بغية
مخاطبته:

- خذ معك رجلين كي يعينوك في طريقك.. يجب الخشي
على نفسك احياناً.. استمر في ثقّتك بالجانب الطيب
للبشر وقتئذ سوف تفضل ان تنهشك الدببة على ان
يغدرك إنسان متوحش.

تحسس ناصر فكّه إذ يؤلمه واماء براسه مؤيدا
غير راغب في الحديث ومكتفيا بالإيماءات النافعة اذا
كانت تطابق كلام المخاطب غير انه عاثره الحظ في
إعطاء الايماءة الصحيحة بالأخص عندما اماء بشكل
متوالي حينما قال له محمود مودعا إيّاه:

أتركك الآن حتى تستأنف طريقك فلا أوخرِك.. دعك من
هذه الحركات البليدة.

قالها رامقا ناصر بنظرات توشي انه حازم وتؤكد
كلامه كونه لا يرمي اقواله من وحي الفراغ، بل يعيها
جيّداً، هكذا هو الامر من لدنه.

انصرف الجميع عن ناصر بنفس طريقة التقائهم
التدافع والتقاذف والتراشق بالصفحات على الأقفاف،
وتارة نسج خطاب بذيء نامي لا يصلح لمن لا يعتاد،

كالحديث عن أعضاء الانثى المتنوعة وربطها بقصته كل ذلك ركبوه في خفة وبراعة تنم عن مقدرة بالغة في وصف دقيق محبوب لسرد أحداث صادفته في مسيره..

.. وبدأت أصواتهم تتلاشى شيئاً فشيئاً فيما تمسك السماء امطارها وتنعطف الرياح مغيرةً مسارها.

تعجل ناصر راكبا قصد الإسراع في الرحيل من هذا المكان المشؤوم دون مرافقة رجلين له لعلهم استخفوا بأمر قائدهم او لم يصغوا له، انطلقت الدابتين تهلجان عبر الطرق الملتوية على طول المسار بينما التفت ناصر مطولا صوب معاذ النائم فاطمن لحاله متمتما: الحمد لله انهم تخطوك.. لو امسكوك عندها لاستسلمت للأقدار.. اما الآن سوف اساعدك.. جيد لك النوم.

تمنى انه سمعه حتى يعلم تضحيته ويتخلى عما يملك وإن كان في الاصل يملك النصف والباقي يتحكم فيه الأخوين او اكثر من النصف حيث يرسمون له دائرة يتجول فيها وحرام عليه تخطيها.

تريث قليلا في مسيرته إبان بلوغه جرف هار يطل من الاعلى على طيف المدينة المتلألئة، حط خطى عربته على حافته جاعلا كتفه الايمن قبالة المنظر البهيج ذو ندف السحب الفاسحة لبريق النجوم مجالا تتألق فيه فوق سكون العاصمة في منتصف الليل.

تدثر بغطاء العربة يقه شر البرد تظهر له نقاطا شهباء لمشاعل المنازل تتفرق عشوائيا، فآخرون أطفأوا الانارة اثناء النوم وقلّة لا ريب في انهم عاشقوا السمر يشعلون ضوء خافت من مصابيح داخل مشكاة ما عدا انهم قلّة يحترمون جيرانهم ولا يرغبون بإزعاجهم بأشعة الضوء، والجمع الغفير كأنهم اضرموا

حريقا في منازلهم وحلقاتهم في الساحات العمومية
والازقة والشوارع.

كلهم يُرون من مكان قصي عن طريق ملاحظة
بصيص الفوانيس فيفهم ان هناك من يربض قربها ولو
كان بصره ضعيف سوف يلاحظ. هذا ما استطاع ناصر
تبينه حول المنطقة الشعبية بينما تختفي المنطقة
السامية بعلو بنيان سكان المنطقة المتوسطة الخاصة
بذوي الدخل الذي بالكاد يكفيهم، لهذا يفضلون العيش
خارج المدينة.

عند تحريك نطاق نظره قليلا نحو الشمال رأى
القصر المهيب المكتسح لـ * الغابة الدغلية * والممتد
في نصف دائرة حتى تلتقي حذافيره بسلسلة هضاب
شاهقة تخترق حدود الشاطئ فتغوص داخل أعماق
البحر، اما في الوسط تكتسي الارض رمالا ذهبية
خصصت للعائلة الحاكمة على عكس الرمال المكتنفة
لعيدان مشوكة واحجار مدببة كلاهما ينتشران خارج
نطاق * الشاطئ الملكي *، وكلا الجهتان تعجان
بالساكنة صباحا ومساء لا سيما في الحرّ.

انفتحت اسارير ناصر يحرق في المنظر الساحر
للطبيعة المشكلة امام افق نظره، والتفت مرة اخرى
ناحية معاذ مرددا بخفوت لئلا يوقظه: { آه!.. لقد فاتك
هذا المشهد المريح للأنفاس.. يا لتعاستك يستحيل
الإتيان الى هنا مجددا، فلا اضمن لك النجاة من قبضتهم
.. }

قد تكون جانبية ما يقع قدامه من لوحة مرسومة
باتقان رائع فتتحرك في انسيابية تامة بديعة، هي من
تخمد نار غضبه على سلوكيات رجال الجماعة السرية

التي انضم اليها منذ عقدين مضيا كقرنين بطيان اكثر
من الحزون الزاحف على خشب العربة واشد رتابة من
حياة السلحفاة النائمة تحت العربة غير انها تمشي على
ما قدر لها بينما يتخبط هو في طريقه بين الفينة
والاخرى.

الآن شهق شهقة طويلة الامد، ثم زفر مرتخيا
بأريحية لا مثيل لها، بل يحسد عليها حيث حدث نفسه
قائلا: { راحة البال هاته سيقاتلنا من اجلها الملوك،
يعيها جيدا ليس من جربها واحس بها، وإنما من وعى
لبها فحمد الله على هذه النعمة الجليلة}.

هب باكمال حديثه الاستطراذي العفوي غير توقيف
كلامه ملويا فمه فور تنبه لتلمل جسد معاذ فوجه
نظره اليه مبتسما والآخر حائر وجهه منكمش وفمه
مفغور وخداه محمرين، ونطق عبارته بعدما تناءب:

- ما لذي جرى؟

- لا شيء مثير يستدعي الحديث عنه.

سأله مجددا يغلبه النوم:

- ما لذي جرى؟

تجاهله ناصر مكتفيا بهز كتفه قائلا:

- استيقظت في الليل.. كيف ستنام حتى الصباح؟

انتبه معاذ الى ظلمة الليل موسعا حدقتا عينيه ثم
قال يكتنزه الاندهاش:

- ما.. هل..، انت هو ناصر!

- جيد تذكر اسمي.

اشاح وجهه عنه مردفا في استخفاف لكلامه:

- العديد ينسون نسبي ولقبي.. وخاصة اسمي.

غطى معاذ جسمه بالرداءين معا فيما قال زافرا
لبخار لامس وجنة ناصر:

- لحدّ اللحظة خلت انني اعيش حلما وان كل ما مررت
عبره لا يغدو مجرد حلم او محض خيالي.. كما تعشمت
الاستيقاظ وإيجاد نفسي على فراشي وشمس سكورم
تداعب مقلتي.

تمايل ناصر مرتعشا بعد نفخ الرياح المعطف تحت
الرداء والقلنسوة وهي تهب صوب الشمال مودّعة أديم
سماء سيميريا وارضها التي لا تخلو من اعشاب
خضراء ونبات الفل والياسمين البيضاويان حتى تطابق
بياض ضوء القمر الساكن امامهما، وفي مشهد صامت
تتعلق الأسئلة المضجة لرأسيهما.

الفصل الثالث عشر:

طردت الشمس أشباح الظلام المنسوس بين جنبات
السماء والمغشي لأديمها المعكر صفوه، ورممت
بخيوطها على كل مظاهر الحياة من أشجار ونباتات
وطرق تتراقص فيها خيالات الكائنات الحية.. والغير
الحية!

اصطف ستة من الرجال يميطون اللثام، يطأطئون
رؤوسهم بايدي القلق والحيرة في ملامحهم. خطب فيهم
القائد ملهام الصغير هادرا:

- فتى ما زال في ريعان شبابه فرّ وحسب.

استنشق مطولا وزفر قائلا:

- من انتم؟.. كيف لك... ما شاء الله عليكم.

صدر كلام من احد المصطفين مرتبكا:

- سيدي، لقد قام بتضليلنا حيث اخرج الانعام و...

باغته لكمة في البطن وشاهد الغيظ في عينا القائد
وقد اخفض رفاقه رؤوسهم لما حدث لزميلهم وما تجرأ
احد على التدخل قط، اكمل القائد ملهام حديثه:

- انا وكلت بكم منذ عقدين ما رفعت خلالها يداي على
احدكم.. وانتم لا تستحقوا العيش بعد زلتكم الشنيعة..
حرّي بكم ان تخجلوا من انفسكم ابد الدهر.

رفع يده عاليا قائلا بعصبية مطلقة:

- الجندي هو من لا يغمض له جفن او يكل له عظم.

هز راسه حانقا:

- ماذا افعل بكم الان؟.. انا كذلك سأحاسب وهل هذا ما
تريدون؟.

جهروا معا قائلين:

- حاشا سيد محمود!

فتح ذراعيه رافعا راسه الى السماء وصارخا
بضحكة متخللة:

- عندما يذكر اسمي يعني شيئا واحدا.. الكثير من
الدماء ستسفك، الأرامل اللائي لا حصر لهن، لا يبقى
راس على كتف ولا يموت فشلة حتى يصلحوا فشلهم..
فهمتكم؟

بصخب عالي جدا صاحوا صيحة رجل واحد:

- لن نعود ابدا إلا وهم معنا.. هذا وعد الرجال الذين لا
يخلفون!

وبهذا استلوا سيوفهم يلوحون بها في الهواء
وينطقون اسما واحدا في تحيتهم:

- يحيى السيد محمود!.. يحيى الاخوين ملهام.

اما هو فقد بدا يقهقه دائرا كالمتعطش للمزيد..

.. امتطوا خيولهم بحيوية ونشاط ثم قدحوا بها
الارض محدثين دوامة صفراء تخللتها وريقات النباتات
والحصوات الملساء تتناثر ورائهم، وصفرت الرياح
فاتحة لهم الطريق امامهم، خلال عدوهم كان القائد
يردد في ذهنه: { إيه يا معاذ!.. إيه يا نجيب! }.

بعيد خروج الرجال مهرولين دلف الى المزرعة
غريب يخطو ببطء على صهوة خيله، ويحمل جعبة

السفر. نزل في الاسطبل ثم سار ناحية القائد ملقيا تحية
إجلال له عبر انحناءة رفيعة خفيفة، فسأله ملهام
متلهفا:

- كيف مرّ الامر معك؟.. اياك ان تقول لي فشلت ايضا.

اقرب من الرجل واضعا يده على كتفه، كان حليق
الراس يتشح بوشاح جلد الماعز ويكسو ذقنه بلثام
مرصعة فصوصه تناسب فخامة ثيابه. عيناه النجلاء
التقت معا عينا القائد القاتمتان من ثم بعثر الغريب
كلماته المزلزلة في طريقة حديثه الواثقة ونظراته
الثاقبة بواسطة بريق عينيه، فقال:

- كل شيء على اتم الاحوال.. تمت المهمة، يا سيدي..
وهيئات ان يجده كائن ايا كان ولو غاص في اعماق
محيطات العالم الثلاث.

تهالت اسارير ملهام فيما لمعت عيناه قائلا:

- جيّد!.. جيّد!.. لا فض فوك، دعني اقبل راسك
الاصلع.

تركه الاصلع يقبل راسه اذ احس القائد شفثاه
تحترقان اثر سخونة اديم الراس الاسمر والمتفصّد
عرقا. لمح ملهام الكيس الخوخي الضخم في سرج
خيله ولما اشار اليه احضره الاصلع وتبع سيده داخل
المنزل المهيب ولا يظهر على الحامل مشقة وتعب في

حمل الكيس الثقيل والقاه بعنف فوق الطاولة العريضة بجانبها اخرى مستديرة.

اخرج محتويات الحقيبة من كتاب احمر وصندوق هرمي صغير وكذا وثائق فردها مستفيدا من مساحة الطاولة، فوضع الغريب سبابته على وثيقة ينقلها من واحدة الى اخرى اثناء حديثه:

- هذه الوثائق فيها جميع الخطط رسمها الاخوة جابر وجبير وعبد الجبار بغرض الهجوم المباغت على اراض الوائليين.. ينبغي ان تصل الى الملك في اقصى السرعة تماما كما اخبروني.

مدّ الوثائق له واخذها الاخر الى صندوق كبير جمع فيها اوراق شبيهة بما يحمله، واستأنف الاصلع شرحه منقلا سبابته الى الكتاب الاحمر الخالي من الزركشة او العنوان:

- اما هذا الكتاب فبصراحة لا اعلم كنهه، لكنهم دافعوا عنه بأرواحهم مما استرعوا فضولي.

التقطه ملهام والقاه في الصندوق والتفت مستمعا بكل حواسه:

- صندوق كان والدك يتحدث عنه باستمرار وتذكرت وصفه له، ومن الغريب ايجاده عند الاخوة حيث اتضح انهم لم يعيروه اهتمام ولم يبادر منهم ردة فعل تجاهه حينما اخذته منهم.. سنوصله الى الملك كما امر اخوك.

- كلّم اذن تتجهون لأخي اولا قبلي.. حسنا افعل به ما شئت او شاء ليس تحت مسؤوليتي.. وهل اوضح لك اخي ما فعله مع الوثائق والكتاب الاحمر؟.

تكلّم الغريب ببرودة لا تؤثر فيه نبرة القائد الغاضبة فقال:

- كان متعجلا للذهاب فلم يقل شيء.. وهذا يقودنا نحو قرارك يا سيدي.. ارجو ان تكون حكيما مثله وليس كمثل والدك.

هبّ ملهّام بالصراخ فاستوقف نفسه بسبب التفاتة الاصلع وهو مغادر ومتجاهل لحركته فزفر محمود واكتفى بحمل صندوق وجاهد على فتحه غير انه خفق مما قذفه في الحائط حانقا وتركه ملقى على الارض كشيء لا قيمة له.

سمع طرقات خفيفة في الباب ودخل رجل قصير خجلا ومرتبكا، جلس على كرسي متآكل يمتنع عن ملاقة عيناه مع عينا القائد المزدرّة:

- تأتي عند فعل مصيبة كعادتك.

اخذ الرجل القصير ينقر سطح الطاولة بأنامله ويرمي نظرات خاطفة قلقة، ولما ضاق منه القائد خاطبه صارما:

- ما الخطب؟

اجاب مرتعشا ومطلقا صوتا جامد:

- ليس خطب جمل.. انما هو هروب الفتى رفقة ذلك الخائن.

- انت تعلم انه ليس خائن.. كنا نستغله لإيصال معلومات خاطئة للملك.. وقد حانت لحظة انسحاب جاسوسه فقط.

اماء راسه موافقا كلامه وتشجع قائلا ونبرته واثقة تظهر مصطنعة قليلا:

- ليس خطأي هروبهما سيدي.. لا تحسبني على أخطاء الغير.

تنهد ملهام راسما ابتسامة عريضة ثم سأله:

- هل اكلت فطورك جيدا.. يا تيمور؟

امتعض الاخير وجهه فأماء بالإيجاب وتحولت نبرة القائد الى الهادئة:

- إذا، ايتني عندما يحاسبك احد وسأنقص منة حجمه حتى يوازيك.

ابتسم تيمور متحمسا لإبداء دوره فيما حدث وبعناية فائقة نطق كلماته الواثقة:

- لو لم اتدخل لفرّ الاثنان معا وأظلم الجميع عن مكاننا وأسرارنا.

وبهذا سيدي.. بهذ-ذا سيخاله مات جراء جرح السهم
لا غير.

جملته الاخيرة تشابهت مع تمتمة الاطفال لكن
القائد ارتأى معاملته كالكبار حيث عض اطراف شفته
السفلى ودنى من تيمور المرتعد مثل القطط فقال:

- اصغي لآخر كلامي الذي هو ان تحزم اغراضك
وتلحق بقرنائك لكي تجد معاذ باي طريقة تختارها أنت
حتى لو بحث عنه في جحر الارانب.. ولا تعد خاوي
الوفاض او لا تعد أبداً.

في غمضة عين كان تيمور يمتطي خيله أمام
المخرج، على الجانبين يوجد ذاك الحارسان ينظران
إليه بسخرية وقابلهم بنظرة ازدراء: {يا لعذالة
الحياة!}، ولكز خيله مندفعاً الى الخارج حتى اختفيا عن
الأنظار.

أراد القائد التحقق من حالة المكان والتجوال فيه
ليطمئن على استقرار الأوضاع ويعرف كل شاردة
وواردة تطوف حوايه، فبعد كفاه خلفه يخطو على
رصيف الطريق المرصّف بالأحجار المتشابكة مع
بعضها البعض خالقة طرق ملتوية وملتفة عشوائياً
ذات سطح منبسط يقبل السير عليه مختلف العجلات،
وتمتد الطرق الى عتبة المنزل الضخم الرئيس، وكذا
إلى المنزل الأسود الصغير الممتلئ بمعدات وهو عبارة
عن خزينة المؤونة ايضاً، في داخل جدرانه رؤوس

حيوانات مفترسة معآقة، وأخيرا الى بيت سجن
الوافدين قبل تجنيدهم الذين يمك بهم إما متلبسين في
سرقة او المسجونين داخل اسوار مدن المملكة حيث لا
يولي الحراس اهمية لدى أخذهم فالعملة الذهبية نادرة
خلال هذه السنوات.

في بادئ الأمر فضّل محمود الدلوف الى المنزل
غير تبديل رأيه في غمضة عين، لذلك أغلق عليه باب
المنزل المتفحم وجمال بنظره يتفقد المكان كأنه المرة
الاولى له هنا، ويتوفر المكان على فتحات دائرية
للهوية لكي لا تفسد الرؤوس. أرخى أصابعه يتحسس
الحيوانات المكشّرين عن انيابهم واخرى مقطوع نصف
وجهها، ثبتت اصابعه اليمنى على راس حيوان غير
حقيقي، يبدو قناع متقون الصنع مخضب بالدم وعليه
تمزقات اقتلعت أذنه اليسرى واسفرت عن تطاول
شعيرات الجلد في حذافير الوجه التي مُزقت كل ممزق
ما يدل على خوض صاحبه لمعركة حامية دامية.

ظل القائد يحدق فيه مقشعرا فيما يسترد ذكريات
حصوله عليه عندما كان يأسر أحدهم بعد انتهاء نزال
شرس بينهما وقد هرب رفاقه نوي الأتعة المتنوعة
فلم يفارق ذهنه ذلك القتال الهمجي إذ ها هو يرسم
المشهد من جديد عبر انقضاض ممثل الذئب عليه
يعوي بإتقان لا يجادل فيه عاقل لدرجة ظن محمود أنه
ذئب حقيقي لو لم تلتقط عيناه المشدوهتان مظهره

المنتصب بقامته العريضة و صدره العاري الغزير دمّاً
من خطوط جروحه.

اثناء ذلك اهتز جواده رافعا حافريه صوب
المنقض، فأحكم الأخير قبضة مخلب يرتديه بواسطة
قفازة مبطنة بالصوف الخشن تثبت منه مخالب طويلة
وملتفة للأسفل والأهم حدثها بالغة الأثر. كان يرتديها
في يميناه بينما تمسك الاخرى خنجرا ملتويا يتميز
بالنقوش البديعة.

تراجع الذئب لما لامست قدماه الارض فور رؤيته
جسم دابة يرتفع فوقه فغشا تعمقها عليه لذا خطا
للخلف قبل ان تدهسه الحوافر الصلبة التي ضربت
التربة لتنتثرها عوض ضرب المنقض.

تمالك القائد نفسه كما سيطر على لجام الدابة كي
لا تجنّ وتهتاج وتجمح مثلما فعل الذئب ورفاقه الاربعة
من قبل محاصرته من طرف جنود ملهام الكبير الذي
صعد ربوة تنقل له المشهد كاملا وترك بقية الامر
لأخيه وجهها لوجه مع الذئب المزمجر، وصدح المكان
بصوت محفوظ المججل:

- تراجعوا ايها الرجال!.. دعوا فردا من ملهام يلتقه
درسا لئلا يتجرا احد ثانية على عمل فعلته تجاه رجل
ينتهي اسمه بـ*ملهام*.

لا زالت تلك الكلمة منقوشة في خلدّه ليومه هذا. اكتفى من التحديق وانطلق مهرولاً الى الساحة لسماعه همهمات الرجال واصوات عجلات عربية متيقن من ركبها خاصة والاسم المتوارد بين أسنة الرجال هو:

- ناصر!.. انه ناصر.

فاقترب منه متسائلاً: {مالذي أخرّه الى هذا الوقت؟}، وكانت الظهيرة دنت منهم ساطعة اشعة الشمس الحارقة كمن يلصق عينا في فانوس مشتعل، ولطالما تساءل الجميع هنا عن سبب عدم حجب الاشجار الكثيفة للخيوط الصفراء كحجبها للمكان ولتعتس حالهم لن يجدوا شخصا سيجيبهم.

نزل ناصر من العربة التي التقطها رجلان قصد تفريغ محتواها في الخزينة، خلالها كان محمود يقف قربه عاقدا ذراعيه في صمت قطعه قول ناصر مبتسما:

- عذرا، سيدي.. تختلف الاجواء في رحلاتي.

- لو كنت دعوتك الى وليمة ساجدك جالسا تنتظرها حول طاولة الطعام.. فلنتحدث في الداخل.

دائما يعودون الى المنزل الرئيس لجاذبيته المخفية ففيه السلال الدائمة الامتلاء بالفواكه المتنوعة. روى ناصر عطشه بالماء فهو لا يفضل العصائر او الخمر كثيرا، وزفر مرتاحا رافعا كوبه:

-ما لذي فاتني؟

- كل شيء.

- مثل ماذا؟

- مثل اي شيء.

نوى القائد تجاهل إطلاعه على مجريات الاحداث
الاخيرة لسبب معين لفظه قائلاً:

- منذ متى وانت تهتم بما يحدث؟

مسح ناصر الماء المنساب من فمه بكم ثيابه
المهلهلة نظرا لحر الظهير، وقد ترك في العربة رداءه
الشتوي الصوفي. تذكر القائد لقائهما البارحة فحاول
توسيع ادراكه متسائلا على نحو هادئ تتخلله ابتسامة
تخفي ما لا تبين:

- أين ذلك الخنزير؟

ارتجف ناصر محاولا اخفاء الامر عن طريق
الشرب ومرتبا افكاره المتسابقة لرؤية النور، فقال:

- اخذته الى دار الايتام في العاصمة كما طلبت مني
بالأمس.

طفق محمود يسترجع الحدث ثم قال:

- كنت سأذكر الطلب ببسر لو قلتة حقا.

- وكذلك امرتني ان اشترى معدات الصيد، ستجدهم في
العربة او الخزينة اذا أفرغوها هناك..

- لا اذكر ذلك ايضا.

- واظنك لا تذكر ارسالي لإحضار أطفال بغية تدريبهم من الصبا.. وكذلك فعلت وقمت بأخذهم الى مأوى آمن حتى تأتي شخصيا للاطمئنان عليهم.

أمسك محمود رأسه يعصر عقله ثم أرخى نفسه هامسا:

- حسنا لا تضيف شيئا آخر قبل ان تجعلني افقد ذاكرتي اللعينة.

نهض ناصر مقهقها وقائلا:

- ليس عيب نسيان بعض الامور لأنه لا يعني كونك عجوز أخرق بل رجل لديه أشغال مهمة ولا يبالي بالأمور الصغيرة.

انتفض القائد صارخا:

- من اين حصل تيمور على السم.. هل انت من صنعه فهذا مجالك؟.. و مستحيل ان تفعل شيئا او تملك شيئا بدون علمنا.

ارتشف ناصر قليلا: {أوه! هذا صحيح!}، وبعد سخريته الصامته قال:

- انت الاول الذي سيعرف ان كنت صنعته.. ستعرف قبل اي احد مهما كان.. اعذرني ينبغي قضاء امر سخيف مثلي.

خرج تاركاً القائد هائلاً ومبتسماً كالطفل، وفي الخارج رأى ناصر الفرسان يأكلان فتوجهها اليهما ولا تزال العربية متصلة بهما ولما ركبا استوقفه إسطبلِي:

- لا ترغهما على الجري لان بطنهما ممتلئ فيرجى السير ببطء او استخدام فرسان اخران.

اثناء حديثه كان ناصر يفكر: { الحمد لله لم ينتبه للفتى كما ظننت البارحة.. لكنت تركته لمصيره وافلتت نفسي باي طريقة غير عابئ به.. أها!.. هذا هو طبعي. }

بدون الالتفات الى الإسطبلِي قال:

- يجدر بك الاهتمام بنفسك اكثر منهما.

وانطلق يعدو خارجاً وعلى عتبة الباب وقف محمود: { أنت وتيمور من تهاباني.. لا أعلم هل لأنني يخشاني الضعفاء ام أنكما تتملقاني؟ }.

امتلات المزرعة على غير عهدا بالرجال ذوي الطباع الحادة او الجادة او كلاهما، وقد عجت بقع فيها حلقات كونها بضعة ملثمين لأفواهم غير انهم يتراشقون الالفاظ البديعة. وهناك لوحات كبيرة عليها خطاطيف صغيرة والتوائها متقن توضع الرماح والسيوف والفؤوس بشكل مثبت حيث تربض بجوار دكان عبارة عن خيمة متوسطة الحجم مبرقشة، كما هناك دلاء خشبية مغلقة رصت على بعضها ومتجاورة لبعضها، فيها النبيذ المعروف بالطلاع الاحمر القاني،

ثم الحليب المستخرج مباشرة من الانعام قد طلاه الاسود الخاص بالأبقار والبني المنوط بالنعاج.

لديهم نظام يحدد اوقات الاكل المتفرقة وكذا اوقات شرب سائل واحد فقط اختياري، كما ان اغلبهم يفضل النبيذ المعصور من العنب فهو ينسبهم ويرقي إحساسهم فيتصعدون الى السماء، لكن القائد يرفض شرب الجميع له جملة واحدة، وقد حدث هذا ايام ابيه صابر فترة قيادته للجماعة السرية قبل انتحاره المفاجئ، يستعصي على ابناءه تقبل ذلك ولحسن حظهما انهما الوحيدان من يعرفان نهايته البئيسة وخادم بالصدفة كان موجودا خلال الحدث وقد وجد جسده بعد أيام ممثل بأبشع الطرق!.

ظل القائد في الخارج يستأنف تنزهه مستنشقا هواء حار حيث اعتادت رئته وحنجرته على لفوحة الجو الساخن المغلي كقدر فوق جمرة نار حارقة.

قام احد الرجال المتحلقين حول موقد عليه وعاء فارغ بفقس بيضة عليه مناديا رفاقه لمشاهدة البيضة تقلى بلا حاجة الى النار معتمدة على شدة حرارة الشمس البازغة على وجه كامل.

أخفى القائد ابتسامته من المشهد رغم تقلب البقية ضحكا وقرقرة مضجة للأذان، وقد طغت اصوات جنوده الخاصين به الذين رافقوه في رحلة الأمس كما كانوا ظلهم طوال السنين، حينها لم يبد همًّا لشكاوي الناس

البسطاء منهم أو لنصائح أخيه بشد الحزام عليهم حتى يحترمونه هو بالذات فلا يعصونه في شيء أمر به وإلا سوف يضعون الاصفاذ حول عنقه من ثم يحركونه كدمية تسير بالخيوط الغير المرئية والتي تعرض في العروض الترفيحية المقدمة داخل المدن الكبرى.

ولطالما سأل أخاه عن اذا قد حضر مرة لتلك العروض المشهورة المتهافت عليها من طرف الجمهور في ارجاء القارة للوقوف في الصف الاول.. كان جوابه النفي قطعاً.

في زاوية معزولة عن الجميع افترش الغريب الاصلع الارض ضاماً سيفه العريض الضخم الى صدره ويتوفر على مقبض نحيف بثلاثة ثقوب، كما يسند رجلا فوق الاخر مستريحاً تحت ظل شجرة وارفة يستعمل الكيس الحنطي كوسادة خشنة ملائمة لشخصه. ملامحه تشبه الكيس ذو وجه مستدير يطابق صالغته وجسمه المنتفخ باعتدال، نومه على الارض يظهر كخيال مسلّهب ممدّد فقامته توازي ثلاثة اضعاف الرجل القصير.

رمقه القائد بجمود لا يرغب في الحديث معه رغم ان الغريب يمتنع عن الكلام مع اي احد سوى الاخوين وسابقاً الأب صابر، وايضا يفضل تركه بسلام فلا دابة تجراً إزعاجه ففي ايامه الاولى معهم حاول جنود محمود استفزازه لحمله على الكلام لكن حدث ما لم يكن

في الحسبان ورأوه يهشم رأس المستفز الذي حفّزوه
بالمال ليجد رأسه الصغير ما بين صخرتين ضخمتين
يحملهما الغريب بلا كلل ففجر وديان حمراء منه،
استحسن الأخوين موت الضحية على بقاءه حيا معذباً.

قرقر بطن محمود فنادى على الطاهي المتواجد
ضمن الرجال مرتديا نفس الثياب، وأحضر الأخير وجبة
الغذاء الى المنزل المهيب بينما ضرب رجل قرصا
نحاسيا رقيق مطلقا جلبة هي نداء للغذاء، بعد هنيهة
تسابق الناس نحو مائدة الطعام توضع وراء المنزل
على بساط مديد فوق الأرض، وبغياب القائد عمّت
الفوضى من خطف شرائح اللحم والقتال من أجل الخمر
الذي يفضله الاغلبية وتبادلوا اللكمات واللعنات
والقهقهة والضراط والتجشؤ بخلاف الطاهي الساكن
في مكان قصي ياكل الهنيهة.

وينعم القائد بهدوء يتخلله صراخ من الخلف يطرده
عن طريق شراب إرم المهديّ والمسكّن والمريح فيما
هو جالس على مقعد وثير ناعم ويسند ظهره الى
الوسائد الحريرية عكس البساط الاحمر الذي يداعب
بعنف شديد مؤخرات السادة الجائعين.

الفصل الرابع عشر:

خطوة خاطئة وسيهوي بنفسه الى السفح ذو الصخور المدببة والمسننة، اما هذا الحارس فقد اعتاد على تسلق جانب الجبل بغرض التبول كلما امتلأ مرحاض برج الحراسة بزميله الذي يسبقه دوما بعدما يتسابقون في شرب كمية ضخمة من النبيذ..

.. يتواجد الحارس فوق سطح غير عريض وملتصق بوسط الجبل المكون للسلاسل جبلية أخرى عن اليمين والشمال الى افق بعيد، افرغ مثانته على الشقوق الناتئة في حائط الجبل الأصفر يتخاله لون فاقع وبني فاتح.

كان الحارس المرتدي بنظون قمري اللون ملتصقا في فخذيته ومكونا انكماشات تحت سترة معدنية ذات كمان ضيقان على رسغيه، يجهد نفسه لضخ بوله بقوة ولما شعر مئنته فارغة راح يرش آخر القطرات الصفراء التي فتت التربة الصفراء وانشق عنها دخان ساخن.

ربط حزام سرواله قبلما يعود أدراجه، يهبط من المرتفع بجذر أقل كونه ثمل، غير أنه معتاد على الصعود والهبوط مما حفر ذلك في ذاكرته، وما اقترب من المدخل الضيق الذي تحيط به جبال متصلة على قمته أسنان حادة تمنع اي احد عن الوقوف في السطح، والى آخر الممر الضيق يقع برج ضارب طولاً له نافذة مفتوحة وسط قمته، مثبت فيها مشعل يضيء الممر وما وراءه ليلاً، لكن الوقت ما زال الظهيرة فتجبب الجبال ضوء الشمس الحار عن المكان بالأسفل.

اثناء عبوره للممر الضيق تفحص ما خلفه جيداً حيث كانت ارض منبسطة قاحلة إلا من نباتات الصبار المتناثرة في ارجاء تعد على الاصابع، ثم انحنى ليعبر المدخل تحت اللوح المعدني الصاد لعمالقة الصخور الساقطة فوقه من اجل منع اي احد الدلوف الى المخرج السري للقلعة المتوارية عن الانظار بفعل الجبال المحاطة بها دائرياً على منوال بيضاوي.

على الطريق المقابل لبوابة القلعة تفتح الجبال أذرعها للمرور، ولفعل ذلك يجب تجاوز الأخدود الشاسع الذي يرسم خط الابتسامة لوجه القلعة الرمادية الشبيهة بلون القمر، وتسهل العبور الجسور الخشبية

الثلاث المتراسة جنباً الى جنب تفصلهم مسافة قصيرة حيث ترفع وتخفض من الداخل.

قام الحارس بإغلاق مدخل الممر بباب حديدي دائري يستعمل قضيب نحاسي مثبت فيه لإنزاله ارضاً حتى يصد الثغرة المستديرة تحت اللوح المعدني تحت الصخور الجارفة.

أخذ يركض ناحية البرج لكي يسرع في الوصول اليه قبل اكتشاف امر خروجه الغير المبرر، ودائماً يفلح في ذلك، فدفع الباب الفولاذي ثم توجه نحو الدرج وحلق الى الاعلى مهرولا كلما وطئت قدماه الألواح الخشبية ترجها فيتساقط غبار.

حينما بلغ القمة لم يجد زميله بعد ما فاجأه الامر إذ كان في كل مرة يتسلل لقضاء حاجته فيما يذهب زميله الى المرحاض الكامن في قبو تحت البرج الذي يفصله عن مدخل القلعة جسر صنع من حبال غليظة توضع عليها الألواح خشبية غير قابلة للتزلق، تميل وتترنح خلال العبور وتبقى كذلك لمدة طويلة.

لذلك زاد اندهاشه فور رؤيته للجسر ثابت لا يهتز فاستنتج ان زميله لم يعبره: { إذا اين هو؟.. ذلك الاحمق يحاول ممازحتي مجدداً.. أه لن تفلح في الامر كما وقع سابقاً }.

اطل من النفاذة على الممر ثم المخرج ثم الارض الشاسعة، لكن دون جدوى كل شيء على ما يرام، تناطحت الاسئلة في راسه المربع ذو الشعر الأشعث القصير.

قرر الاخير النزول للعبور الى القلعة فاستقرت قدماه فوق اللوحة الاولى من الجسر وقد مر زمن طويل عبر

خلاله لذلك كان يرتجف ويفكر في التراجع وما يحفزه سوى النيل من زميله بإخبار وكيل القلعة عن غيابه حتى يعاقبه وإذا حالفه الحظ وكان القائد الأعلى هنا فسوف يرميه الى الخوازيق التي حافظ بعضها على اثر دماء ضحاياها اسفل الجسر.

ثلة قليلة سقطوا غفوة او عن طريق الخطأ اما معظمهم القاهم القائد الاعلى جراء إخفاقاتهم و أخطائهم وفي الغالب ما يكون تحديهم له. ترتفع نبضات قلب الحارس في خطوته الثانية، واستنشق بصعوب في العاشرة، عدّ ما تبقى له فوجد أربعين خطوة متبقية ما يعني اربعين روحا سيلفظها قبل بلوغه لخط النهاية.

في الخطوة الخامسة عشر ونصف اي قبيل وطئ قدمه الاخرى فوق اللوح ترامى الى سمعه همهمات مستتجد فظن انهم الضحايا الاحياء يصارعون الموت ويطلبون النجدة وهو ما لن يستجب لهم لان الشفقة عليهم ستودي به مرميا الى جانبهم تماما كما حدث مع زميله الأسبق.

ارتفعت الهمهمة بعد الأخرى حتى ارتفعت شكوك الحارس المرتجف فزعا لرؤيته القريب لمشاهد القتلى المبتورة اعضاءهم واطرافهم والمقطوعة رؤوسهم، وهناك من اخترقت الخوازيق ذقن احدهم فخرجت شفرات ماضية من قفاه فيما سقطت ساقى وذراعي شخص فوق اربعة خوازيق والخامس نبت في صدره، وآخر رفعه خوزق طويل من فمه المنفغر دهشة وعيناه الباعثتان خوفه.

خلال سيره جفل في كل نظرة خاطفة ألقاها الى
مرقد الضحايا، وكاد السقوط عندما سمع صوت نعيب
الغربان الحائمة حول الجثث، والصقور تقطع اللحم في
وليمة افتقدها جوعى المملكة * الفانية *، وسطعت
الشمس فوق اديم راسه مما تفصد عرقا.

اسرع من خطاه عسى يبلغ الضفة الاخرى في اقرب
وقت ممكن، فينبغي إطلاع المكلف بالقلعة غياب زميله
وهو امر يفضله في قرارة نفسه إذ كل يحاول إيقاع
الآخر واستغلال زلاته لصالحه. أراد إيهام نفسه بعدم
سماعه لتلك الهمهمات ولذاك الأنين المزعج الصادر
من أسفله.

تجاوز الثغرة الموجودة في الجسر المتأرجح بشكل
مريب، فلقد كان هناك لوح انفلت من الحبل وسقط الى
الهاوية على الخوازيق فتشظى، وراح يحث خطاه
متشبثا بالحبلين الممتدين الى العمودان في الضفة
الثانية ثم يلتويان حواليهما ليرفعا الجسر عن حدّ
الارض.

تجاهل التآرجح المفرط والتمايل الذي سببه المعبر
المتهالك وطرد عن نفسه انه الفاعل الذي يحركه
بطريقة عنيفة كما طرد عن نفسه وجود جسم آخر
يسير خلفه مما يزيد الضغط.

ثم التفّت فجأة خلفه لعله يؤكد فكرته ولا كائنا
وراءه بل لا حياة حوله ما عدا الضحايا المحتضرين،
وكادت قدمه اليمنى وطأ الخواء حيث وقع لوحان غير
تداركه للأمر عبر تمديد القدم للوح الموالي، حينما رفع
قدمه اليسرى لعمل الامر عينه سحبته يد طويلة
ومتسخة للأسفل فانزلقت قدمه حتى ضغطت الحبال

على خصيته وما أنقذته سوى قدمه الاخرى التي
صارت تتأرجح في الجانب الأيمن للجسر وحباله ملتفة
حول فخذه وضاغطة بشدة إياه.

التقط أنفاسه من هول الحادثة تتناطح افكاره عن
الفاعل فيما هو يلتف في مسارات متعددة بغية البحث
عنه، واهتز الجسر بعدما وطأته قدما تتردي الحذاء
الخمري المفترش تربة سوداء فرفع الحارس راسه
ببطء دال على اندهاشه تجاه الشخص الفارع قامه
والممشوق جسما.

اقترب منه الاخير رويدا رويدا بينما يجاهد الحارس
لإخراج سيفه المثبت في حزامه من جهته اليمنى، لكنه
علق بواسطة الحبال الملتوية جولته فأخذ يستله جانبا
اليه بعنفوان تغطي خوفه البادي على ارتعاشه جسده
المستمرّة.

لما فُتح باب مدخل القلعة في الضفة الاخرى تكبد
عناء الالتفات الى الرجل الضخم الخارج منه، وعندما
هم بتوجيه نظره الى السيف كان وجه الآخر دانيا منه
الى حدّ رأى عيناه القرمزيتان فانخلع قلبه، امسكه
صاحب العينان من راسه وذقنه ثم جعله يطل على
الهاوية السحيقة.

قطع الرجل الحبال السفلية بحيث اكتفى بأخذ جزء
منها لا يؤدي الى سقوط الجسر ثم لفها حول عنق
الحارس قائلا:

- رأيت ماذا يقع في الأسفل؟.. أظنك ترى زميلك
هناك.. انظر جيدا.

بلا حاجة لان يخبره قد كان يحرق من ذي قبل في
زميله الملقى على عدة خوازيق في عدة اماكن إلا ما

يقرب قلبه ورأسه، واستعرتته تلك التفاحة الخضراء
المندسة الى فمه حتى تسكته فعرف الآن مصدر
الهمهمات لكن بعد فوات الأوان.

تعالى صوت الرجل المنتفخ صدره الى صاحبه
يخاطبه جائرا:

- كفاك تعذيبا له كزميله، هيا بنا نلحق الآخرين فأظنهم
قد أتوا.

لم يعره القرمزي ذرة اهتمام وهو يحكم ربط الحبل
حول عنق ضحيته الثانية دون الاكتراث لصراخه
الصادح بالأرجاء أو نهر الرجل الضخم، فأحكم قبضته
على الحبل يرفعه اليه قائلا:

- اختر يا صديقي طريقة موتك.. إما الشنق أو
الخوزق.. أسرع!

نطق آخر كلمة بعنجهية ألمعت عيناه الى ان
انطفأت بغتة فور إحساسه يدور هاويا للأسفل فيما
ترتفع قدماه عن اللوح وتلتف ملتصقة بالجسر الى
الشمال بيد انه بسرعة بديهية افلت الحبل مادا يداه الى
حافة الجسر ثم أمسكها كانه يعتصر برتقالة متعفنة
حيث تخدرت يداه إثر شدة القبضة.

بعد لحظات من التأرجح والارتجاج استطاع الثبات
في تسلقه للجسر الذي تساقطت الواحه تباعا ما جعله
ينطلق صوب الضفة الرابض فيها رفيقه، ينتقل فيما
بين حذافير الألواح حتى استند الى جسد الحارس
يتسلق فوق كتفاه مما زاد ضغط الحبل الملتف حول
عنقه والمربوط فوق حافة المعبر الخشبي.

لبرهة امتد الحبل نازلا بالحارس الى الشفرة خوزق
تلمع فيها بزوغ اشعة الشمس فسمع المتسلق صوت

الزوجة يختلط مع تمزق دموي شنيع، فهذا هو رأس
الخازوق الأرجواني يرى النور من خلال فوهة فم
الحارس الذي قضى نحبه فيما كان الآخر يقفز الى
حافة المنحدر الذي في ضفة القلعة حيث ساعده
صاحبه على الصعود مانحا اياه كفه.

وصل الى السطح الآمن ذو الأرضية الرخامية
الصلداء، بصوت رخو لفظ الرجل الضخم كلامه :
- دائما تدهشني حركاتك وخاصة قدرتك على تسلق ما
أسفل الجسر والزحف ثم جذب قدم الحارس.
- كيف انقلب الجسر.. هل انت من قطعت هذا الحبل؟.

استنادا الى الفأس الذي يحمّله والحبل الذي كان
ملتف حول العمود الأيمن فطن ان صاحبه هو الفاعل
فانتفض يمسك درعه الاسود صائحا:

- أهاه!.. تريد التخلص مني.. لأنك وعدتني بصندوق
الذهب وهو امر صعب منحه لشخص لتوك عرفته.

- صحيح، لم اكن احتاج ان اوضح لك وها انت تتكلم
بلساني.

رسم نجيب ابتسامة بينما ابتعد نزار يلتقط انفاسه
في هذا المكان الخائق حيث أينما وليت وجهك تقابل
هضبات الجبال البنية تحيط البرج المنيع وتفصل اسوار
القلعة الرمادية التفافها الحاد والمتذبذب.

استقام قرمزي العينان مصمما على استكمال المسير
وموجهها كلامه للجبابي فيما توجه هو ناحية الباب
المفتوح:

- أخبرني عن في الداخل.

دلفه في حين اجاب نجيب متأخرا رده:

- لا اعتقد بوجود جنود في القلعة لان معظمهم سيتوجه الى الساحة عند سماعهم نفخات الأبواق.. لعله نداءهم.
- ماذا قلت.. ابواق؟!!

لم يتأخر رده كالسابق حيث قال مطمئنا:

- لم تبالي؟.. ربما هو نظامهم الخاص يستدعي النفخ في الأبواق للتأوب او لتناول وجبة.. او عند قدوم شخص مهم.

اطل راس نزار قائلا:

- عجب لشخص بدوي معرفة هذه الأمور.

- نحن من اسسنا الحضارة.. اقصد البدو لا انا.

- وانتم من تدمرونها لتؤسسوا أخرى على أنقاضها.

ثم دلف ضاربا الباب بقدمه فغلق على وجه نجيب فأثار حفيظته مما لكم الباب بلامح متجهمة، فحاول نزار تهدئة روعه لكن بنبرة باردة:

- آسف، سأذهب للمطبخ.. لا بد انه قريب منا.

وانطلق في الاتجاه الايمن فراح نجيب ينقل بصره بين الاتجاهين المتبقيين وقرر ملاحقة رفيقه لكي لا يوقعه في مأزق عويص، فمرّ من صفوف الشموع المعلقة في جدران الدهليز المقوس سقفه وتكتسيه حجيرات صفراء ضئيلة تنمقه وتزينه.

صاح نجيب في صاحبه فتردى صوته كموجة غاصت في الاعماق الى آخر الممر عند الدرجات المستطيلة تمتد من جدار الى جدار وترتفع الى الباب البرونزي ذا المصراعين الحديديين.

بيد ان نزار تجاهل صياحه نجيب المتواصل مستمرا في سيره المترنح، احيانا يرقص قافزا ليلمس حافة

السقف التي تتفصل عنه حواف متباعدة كثيرة ما يعني كثرة رقصه وقفزه المنرفز لنجيب.

كان على وشك القفز مرة اخرى ففوجئ وهو الذي يصعب مفاجأته بيد خشنة عريضة تحط على كتفه فتمنعه من القفز. بضغطه الزمته الارض وصاحبه زفر حانقا حنقا شديد وقال:

- اتفاننا سار الى اجل مسمى.. ولا حاجة لنا ان ننقضه حالا بلا داع حقيقي.. مساعدتي مقابل إعطاءك نصف محتوى الصندوق.. نصف اي ما فيه من ذهب من اجل دفع مهرك وعمل زفاف والفوز بعروستك.

لا جدال في كون نزار مرهف الحس تجاه الحب يتهادى خيلاءه بنطق كلمة تدرج ضمن حقول الحب فتلامس بشاشة قلبه، فأزرد ريقه قائلا:

- أحقا ستعطيني ثمن المهر وكل شيء؟

لاح شبح ابتسامة على محيا الجبلي قائلا:

- هذا وعد الرجال الذين لا يخلفون.

ثم صافح يده كتأكيد على سرعان الاتفاق بعدما كان نزار يرفض اللحاق بالقافلة المأسورة معتقدا ان مهمته انتهت فحثه نجيب على المواصلة كونه يعزم اتمام ما لم يتم، أيا كان إلا العودة الى زوجته.

أرعى الجبلي قبضة يده قبيل تربيت كتف نزار قائلا بنبرة تأسف:

- ارجو مسامحتي لقطعني حبل الجسر و وشوكك الوقوع الى حتفك.

- أها، انه انت.

- لدي اسبابي.

- اسبابك تتضمن قتل زميلك.

جحظت عينا نجيب قائلا بسخط:

- تتحدث كأنك بريء، لقد كدت تؤخرنا عن المهمة من اجل تلبية غرائك الحيوانية والتلذذ.

بُهِت نزار من قوله وأزاح عن كتفه يد غريمه بينما يزفر الأخير غيظا وصدره ينتفخ وينكمش. هذّأت الاجواء المحمومة انفتاح الباب يعبر منه هواء حار يحمل بين طياته ذرات التراب المنشق من فجوات الباب الطويل العريض.

بخفة جر نزار خطاه تجاه ممر آخر لا يؤدي للخارج، بل يسوقه الى غرف متقابلة، تبعه نجيب دالفان داخل غرفة واسعة بلا باب يذكر، ولم يشكا قيد انملة انها لا شيء غير المطبخ.

بدت على ملامح نزار فرحة عامرة غمرته كموج في وضوح النهار بينما ظل نجيب يتفحص المكان حذرا لمفاجأة في هذه القلعة المشؤومة كما اعتبرها.
ناداه صاحبه متهكما:

- هيا يا ضخم الجثة أملئ بطنك بما تشتهي.. عجيب امرك شخص مثلك لا يغرنه الطعام فكيف صرت هكذا.

اندفع يبحث عن اي وجبة كيفما كانت غير منتظر إجابة منه، فتح ادراج مثلثة اسفل منضدة واسعة مربعة ومائلة تصاعديا، تحوي ادوات تخص إعداد الأكلات، فانتقل الى درج يضم سلال الخضر والفواكه والحبوب وما شابه واواني سوائل من عسل مصفى وحليب بالإضافة الى مشتقاته.

التقط نزار بضعة حبات الكستناء وكسرها مع حافة المنضدة ثم التقم محتواها كما هي دون تسخينها وسمع فرقعاتها المسيلة للعب، وهمس له نجيب:

- فانختبى داخل هذه النوافذ قبلما يرونا.. واكيد ان شخص دخل الى الممر عبر الباب البرونزي والا من فتحه غيره.

أشار اليه نزار قائلا:

- فتح الباب من طرف خادم ماله مبتغى هنا.. ألم تقل انك سمعت أصوات الأبواق؟.

تعالت وقعات أحذية القادمين، واقترب مدى الصوت الى مجال المطبخ الذي زحف على ارضيته ظل القادم الاول فبرز جسمه بأكمله واقف امام مرأيهما قد بدت ملامح نجيب حائرة ومتعجبة في حين ارتسم محيا نزار مظهر اللامبالاة والهدوء عكس صاحبه يكور قبضته في حذر نابع من عيناه الثاقبتان.

بلع القادم ريقه ليظهر خلفه رجلان يرتديان زي قطاع الطرق مشابه لرداءيهما غير ان الاخيرين متسخان اكثر، فقطب الرجل المرتدي لملايس الطاهي حاجباه ولباسه عبارة عن معطف ينتهي عند الركبة ويضيق عنقه جيدا، له زخرفة منمقة بنقط زرقاء على اللون الأبيض السابغ.

سألها بنبرة تشي تبدد خوفه من شكلهما:

- مستجدان ام قديمان؟

اجابه نزار ببرودة دم:

- سؤالك مبهم اكثر من شكلك.

ليس هناك عيب في شكله القصير المنتفخ بظنا وصدرا وذراعا لكنه يقصد نحافة ما اسفله حيث لا يتناسب مع نصفه العلوي بتاتا، حدق الطاهي في ابتسامته الفاترة فقال موجهها كلامه للذين خلفه:

- أتعرفانها؟

نفيا الامر عن طريق صوت نافي باحّ لذا خيم صمت
هو اصل المكان يتناسب مع مظهر المطبخ المظلم
تغزوه اغصان الاشجار متسللة الى نوافذه بينما تتدلى
وشائج حبلى بالتربة السوداء من السقف عبر تشققات
كما اكتسته الطحالب الخضراء المبللة تسيل قطرات.

قطع نزار الصمت المريب قائلا:

- شكرا على طعامكم، يا سادة سنترككم بسلام الى
المرّة القادمة.

فتح الطاهي ذراعاها امرأ لمن خلفه بغضب متشكل
في تغضن وجهه وجبينه المتعرق:

- خذاهما الى القائد عسى ان يغفر لهما فعلتهما
الفادحة.

بلا تردد قطعا المرتزقان شوطا قصيرا لبلوغ موضع
الأخرين، حلق المرتزق الأيمن في نجيب فيما تلاقى
نظرات الايسر مع ارماق نزار الخامدة كاستهزاء من
كلا الطرفين.

بادر نجيب ردة فعله قائلا:

- لن اقاوم يا رفيقاي.. انا مثلكم شاركت في معركة..
مع-ع-عركة.. ماذا أسموها؟

اجابه الطاهي فورا:

- اسمها معركة اسخف تمثيلية في التاريخ.

- عجبنا بلغكم خبرها سريعا!

فغر المرتزق المحقق في نزار فاهه مستغربا إذ
عبر عن ذلك ملتفتا نحو الطاهي قائلا:

- أكنتم هناك تراقبوننا؟

لم تفارق عيناه الطاهي المرتبك المتراجع فيما
يقول:

- علي الذهاب، استمروا في امركم وانتظروني ريثما اعود رفقة القائد الاعلى لعله وصل هنا قبل قليل.

ثم اختفى راكضا نحو الساحة الكامنة خارج الممر الضيق تاركا الاربعة متفاوتي التخمين، لا يدرون ما يفعلونه خلال اللحظة الراهنة، اثناء تخمينهم اختطف نزار حبة تمر من سلة قربه وفي لمح البصر طحنها بين اسنانه البيضاء تتخللها بقع صفراء محدودة، كما اختطف نجيب من ظهره فأسه الرصاصي المقبض والفولاذي النصل يضعه داخل ثيابه المجزة من صوف الغنم الكثيف والناعم ذو الفرو اللصيق به.

تنبه المرتزق المقابل لوجهه فأحكم قبضته على مقبض السيف ذو الحلقة الحاوية لحجر كريم اسفل المقبض الخشبي ونادرا ما سيكون الحجر حقيقي ولكن باعه فاغتني.

اما المرتزق المراقب لسلك نزار المنرفز قد اغتاز من التحديق فيه طوال الوقت يشاهد خفة حركته ودمه، فتارة يقشر تفاحة وينهيها في قضم مقتضبة، وأخرى يلعب بالبرتقال ككريات يتقاذفها في الهواء مما ظهر ابله امام الثلاثة الساكنين كأن على رؤوسهم الطير.

رفع نجيب صوته حتى يسمع الكل:

- افعلا ما شئتما بنا وسنلتقاه بصدر رحب، او خذانا الى باقي قطاع الطرق ننضم معهم وانسيا أنكما رأيتما، وكذلك كذبا الطاهي ان شكى بنا للقائد.

صمت هنيهة من ثم اكمل مقاطعا اي صوت آخر:

- ولكما من عندي عملات ذهبية لن تحصلوها ابدا هنا
مهما عمرتما في الارض.. اسألا هذا الذي وعدته بذلك
ولم اخلف وعدي لحد اللحظة.

وحدق في صاحبه يبتغي تأكيد كلامه، فتجاهله تماما
مشيحا نظره عنه فابتسم نجيب لهما متوترا ثم قال:
- ادعى نجيب، حان دوركما.

صمتا حتى بدأ انهما سيبقيان هكذا دائما غير
استهلال الواقف قبالة كلامه:
- مجرد زيف بلا كنية..

- زيف؟!!

- إنه زيف، لا معنى له كما لا معنى لشيء في حياتنا
البئيسة.. لذلك أسمتني زيف لأننا عشنا اياما نحوس
ولحظات فارغة لا قيمة لها.

اتم كلامه المتأسى ورمق زميله بسرعة قبيل
طأطأة رأسه، فألصق زميله اصبعه في صدره فاخرا
وقائلا:

- وانا مشتق من فاكهة حمراء شهية.

تهكم نزار قائلا:

- آه الطماطم.

تغضن وجه الرجل مدافعا عن نفسه:

- ليست فاكهة أيها المختل.. فكرا قليلا سوف
تعرفونها.

هتف زيف قائلا:

- إنه فراولة!.. أليس كذلك؟.. حقيقة لم اكن اعرف
اسمك الى الآن.. آسف، يا صاح.

وأنهى نجيب الجدل بقوله الفصل:

- اسمك فراول.. انتهى.

تعجب الثلاثة من نبرته الخامدة وإن كان نزار اقل
تعجبا إلا انه اول مرة سيسمعه يتكلم هكذا. ربت الجبلي
على كتف زيف يمنحه نظرات الصارمة ولفظ نبرة
ملؤها الجد:

- أقسم بالله انني سوف ادفع لكما ثمن عونكما.. فقط
اقبلا بلا شروط تعجيزية فلسنا في حرب.

مساء براسيهما موافقان وقد زفر فراول مبتسما، ثم
قاد الطريق الى الساحة وسط الدهليز الخانق إلا بعدما
فتح الباب فتدفق الهواء الرطب منه وتغزو الرياح
عاوية، فاخترق فراول الضوء الساطع من الباب خلفه
الاثنان يمشيان على حذر وتثاقل تخلص منه نزار
عندما اسرع في سيره مخترقا الضوء العامي للأعين
حيث كان نجيب منكمش الوجه، يغطي وجهه بكفيه.. ثم
خرج الى العن ، الى العالم، الى الساحة الضخمة
المربّعة.

على جوانبها سوارى وأعمدة ترفع الأطباق العلوية
التي تجمهر الناس وبضعة حراس يطلون على القادم،
ففي الأسفل اشد عواء الريح نافخة الغبار المنشق عن
الارضية الصخرية ذات الأحجار المربّعة القصيرة طولا
فتكوم الغبار يحوم في دوامة حول نفسه.

بغض النظر عن الحشد المتجمع في الساحة عبارة
عن جنود القلعة بثيابهم الرمادية الأدرع والواقيات
السوداء في كل من أعناقهم وأكواعهم ومقدمة ركبهم،
يعتمرون خوذة مربعة تخرج ريشتان سوداء وبيضاء
من جانبيها. هناك يحضر الطاهي بوقفته المائلة يخفف
توتره عبر تحسس لحية ذقنه الحمراء وقد غزاء

الصلع قليلا في منتصف رأسه البيضاوي الأسمر الكبير.

رفعت البوابة المعدنية ذات الأسنان الحادة المحفورة في التربة مكونة حفر دائرية غارقة في عمق شديد حينما يتم رفعها فأدى ذلك الى نثر التراب من اسنانها وبرز دويّ العجلات مع صكك السلاسل الحديدية الطانة للأذان.

ثم انقشع الغبار معلنا عن كوكبة من الفرسان يعدون نحو المدخل المتسع لأربعة رجال متوسطو الحجم على خلاف فرسان القائد الاعلى الذي دلف كالسهم فوق فرسه المسلهبة الرمادية صاحبة الأعين الحمراء تكاد تحجب بؤبؤها المسودة فتبعه رجاله الأشداء والغليظين واسعو المنكبين مثني مثني يقدحون الارض فيخلقون دوامة الغبار الاصفر قبل ان يتلاشى امام الاعين المحدقة في ارتياب في الوفد الجليل.

ترجل القائد الاعلى عن دابته الكثيرة الصهيل بينما ظل رفاقه الكثر الممتطين دوابهم مما انحصر تفكير الطاهي حول كيفية إطعام هؤلاء الجثث الضخام ودوابهم العظام بل إشباعهم، تنشق القائد الاعلى هواء القلعة الحار مبتسما كالخفاش بأذنيه الطويلتان والوجه الشاحب المخيف، له شففتين ترسم خط طويل من ثغر الى آخر، ينسدل شعر اسود فاحم الى قفاه.

نحفت قامته الطويلة المكتنزة صدرا والمضيقة بطننا، طويل الحاجبان السوداويان يظلا عيناه الزيتيان استعرها من عينا القطط كما انه أفضس الانف، كذا على شعره الاسود خصلة حمراء قانية.

علق نزار هامسا لنجيب:

- يا له من مخلوق!

أطال الآخر في التحديق غير عابئ بقول صاحبه، لكنه لمح يد تشير اليه وتناديه من اجل الاختلاط بقطاع الطرق المصطفين في الجانب الأيمن للقائد، وامامهم يركع الأسرى ظاهرين في حالة مزريّة، كدمات على اجسادهم العارية ما عدا تمزق السراويل الفضفاضة، ما يزال بعضهم يحافظ على اثر الدماء النازفة من انوفهم وافواههم، اما اعين بعضهم قد طليت بزرقاة بارزة في بيضة وجوههم المتسخة وملابسهم البالية الرثة.

كان المكلف بالقلعة المعتدل جسما يقف امام القائد الاعلى فيما اصطف القادة الآخرين في الجانب الأيسر للأخير، في حين رحب به المكلف بحبور مرتسم على شفثاه قائلا:

- مرحبا بالخير كله، ومرحبا برفاقه..

ثم حصر نظره على وجه القائد الاعلى بالذات فقال مثبتا نفسه ما استطاع:

- أهلا بك يا سيد أزيرو.. أثلجت صدورنا بقدمك في الأصيل.

اسرعت الإسطنبولية الفتية تهتم بفرسه فور فرقع المكلف اصابعه بينما عقد صاحب الفرس كفيه للخلف يتحرك تجاه المكلف قائلا بنبرة كالفحيح:

- ولا أهلا بمن خانونا.

توقف نجيب عن السير للانضمام الى موقع زملاءه بل عاد ادراجه الى موضع نزار فلكزه يخاطبه بصوت خفيض:

- ما لذي يتفوه به؟

اجابه بأريحية:

- كل من في القلعة مختل اكثر من الآخر.. لا تحتاج الى تمحيص لفهم كلامهم.

تفحص أزيار ما حوله تلازمه نظرات بشوشة مستخفة ارتعد معها اي شخص جاء في مجال عينيه الثاقبتين فيزفر مرتاحا بعدما تفارقه نظرات هذا المخلوق، واستقر نظره اخيرا ناحية عربات القافلة بجانبها المرتزقة خلف الأسرى، فهدر ضاحكا:

- انظروووا.. إلى.. أبطااالنا... أجل!

وغاص بنظره في الجميع رافعا عقيرته:

- كونووووا.. هكذا مثل.. هم!.. مالذي تأكلونه غير الطعام وتشربونه غير.. الشراب؟

يلفظ كلماته على منوال بطيء فخم إذ يتلذذ بنبس حروفه ويخرجها بترو، ثم اردف محمما:

- سوف أسرحكم جميعا وأستبدلكم بهؤلاء الأبطال.

اشار الى قطاع الطرق الذين اخفوا ابتسامتهم سوى بضعة أشخاص منهم قد تأرجحوا في وقفاتهم وداعبوا بأقدامهم اي شيء رآته اعيينهم دالين على افتخارهم ونشوة النصر رفقة التقدير.

ثم عاود الإشارة الى احدهم يناديه للإقتراب منه فتقدم بلا تردد من ثم أرهف السمع اليه يلتقط كلماته السريعة فجأة:

- كيف قبضتم عليهم، وماذا تريدون، ومن انتم؟

- أ-أ-أ، اننا لا ادري.. كل هذه الامور لا تخصنننني..

و...و.....

كان يتأتى ويتلثم وقال ما طاشفتيه بعنف:

لأ-ني.. لست.. بالقائد.. أفهمت يا سيدي؟

- توقف عن عض شفتك قبل ان تقلعها فستحتاجها فما بعد.

ظهر احد القادة الاربعة مخترقا الصف وبارزا امام اذير غير ان حراسه استلوا سيوفهم خوفا عليه فرفع يده مهدئا اياهم فاغمدوها بسرعة، وقال بمرارة:

- كم مرة على اخباركم الا تقلقوا جدا كأي طفل في امس الحاجة لحماية العين؟.. كنتم لتستعملوها مع من سبقني واغتيل امامكم بسبب تهاونكم.. من انت؟

قد يكون مرد خوف حراسه دوما على سلامته ان القائد السابق اغتيل بصورة مهينة جعلت الحاكم يعدم نصف حراسه ليغدو البقية والمستجدين متشوشين وفزعين من كل صغيرة وكبيرة صادرة عن أيا كان.

رد القائد الهائل حجما البارز في ثقة فارطة:

- انا صديق القائد الذي مات في المعركة من اجل إحضار القافلة والأسرى.. المنطقة الوسطى ليست فارغة بنا وبأمثالنا، ولسوء حظهم قد مروا عبرها اي عبرنا.. نعم نحن ابطال ونريد المكافأة فورا.. لا يهملك من نحن وانما اهتم بما نريد..

حرك سبابته يهزها تجاه الارض مضيفا:

- نريد حقنا.

خلف القائد دلفت عربية تحمل قفص يستلقي فيه اربعة كلاب سوداء شرسة ومخيفة المظهر وضخمة الحجم، فابتسم صاحبها يلوي عنقه قائلا:

- انتظر حتى تستيقظ مكافأتك.. ششش.

ووضع سبابته في فمه هامسا:

اياك ان توقظه الآن.. تفضل الإفاقة تلقائيا.

لمح أذير القائدان المتبقيان فوسع عيناه مناديا:

- تعالاي.. أنتما كذلك قادة.. ألا تعلمان ان المركب بعدة ربابنة سيغرق في الرحلة الاولى؟.
برز صاحب النمر رفقة آخر يرتدي خوذة بقرني
الآيل قائلا:

- لكل منا تخصصه.. ولسنا قادة بنفس الرتبة.
رفع اذير سبابته خاطا ابتسامة صفراء وقال:
- لهذا سأساعدكم وابقى على قائد واحد لن يأخذ
مكافأته.. يمكنكم القول ان القيادة هي مكافأتك لكن خذ
بنصيحتي القيادة او السيادة...

نطقها يزعرع راسه ساخرا ثم أتم:

- هما عقاب او جزاء لا مكافأة.

لم يلتفت للاستماع الى كلام القائد الاول:

- تقولونها لتتحكموا في الناس وتوهموهم ان الحكم
لعنة لا يجب التفكير في حيازتها.. حتى يتسنى لكم
الاستمتاع دون ضجيج.

- تتحدث عن نفسك.

ثم صفر فاستيقظت الكلاب بعد برهة تزمجر وتبج
هائجة تكشر عن انيابها اثنان منها يعضضان قضبان
القفس الحديدي فيما يسيل لعاب لزج لاحدها فوق
عجلة العربة وينشغل الرابع مع عظمة بين انيابه.

اتجه أذير الى داخل القلعة يرتدي الدرجات الحجرية
المستطيلة على شكل هرم مبتور القمة، مارا امام نجيب
الذي اتبعه بنظره بينما يرمقه نزار وجسده صوب
البوابة، قرب باب من خشب العرعار له دوائر سوداء
القلعة الضخم الطويل استدار اذير مترنحا ومبتسم
فصاح قائلا:

- اليد التي صفعتك بالأمس لا ترجو ابدا ان تمد لك العون في اليوم.. بالمختصر المفيد قوموا بعملكم المطلوب.

ثم دار على عقبه دالفا الباب ما إن فتح مصراعه الحارسان يحملان رمحا في اليد وتمسك الاخرى ترسا بيد ان الذي على شمال اذير ثبت رمحه في منتصف الترس الدائري النحاسي حتى يتسنى له جذب مقبض مصراع الباب فاصدر صريرا مجلجلا.

فوق الدرجات صفان متوازيان يقدحان الارض في انتظام تام ينسجون اصوات متناسقة بوقع احذيتهم الممتدة طولا والملتفة للأعلى ممزوجة مع خشخشة دروعهم الرمادية المكتسية للأسمال، ويحمون ركبهم بواق معدني كما على ارساغهم اسورة عريضة من جلد النمر.

يعتمرون خوذة دائرية تضيق في الاعلى وتثبت ريشة الغراب سوداء كبيرة، وعلى منتصف جباههم تلتصق بهم دائرة صغيرة متصلة بالخوذة عليها نقوش متشابهة من زخرفات الافعى الاسطورية الملتفة حول نفسها وترفع راسها النابت للحية مسننة، ترفعه قبالة ذيلها ذو الشفرات الماضية كخوزق مخرومي.

كان الحاضرون بلا استثناء مندهشين وإن ظل نزار الاقل بينهم حيث وسع حدقتا عينيه بازدياء لما مر *الرفقاء* غير انه عاد الى ملامحه الباردة والجامدة في لمح البصر.

لوى نجيب عنقه محاولا إخفاء ارتبائه الضعيف فيما يتحسس رقبتة ممتعضا حيث يخشى ان تؤول الامور

الى غير نصابها، وان تنقلب الخطة المعلومة الى حادثة ملعونة، فلکز مجددا صاحبه بعنف وهو يهمس:

- أظن معك حق حول ما قلته سابقا.. أتذكر؟.. حينما كنا نشرب من الوادي القابع بن سل..

قاطعه مضجرا:

- أجل، أجل!.. فات أوان تصديقي

لبث نزار غير بعيد ليكز نجيب وقد فاقت ضربته فقال مصوتا:

- بدا لي مؤامرة تحاك بين ظهرانينا وهي توشك البروغ في أية لحظة.

ثم عاود لكزه برفق قائلا:

- فاستعد بكل حواسك الستة..

واصل كلامه متجاهلا استغرابه:

- نعم، حالا ستحتاج الى سبعة لتتجو من المأزق.. ولا تعول عليّ فانت من اقحمتنا وبنفسك ستخرجنا.. أها!..

..أخذ جنود القلعة الاسرى الى زنزانتهم المجهولة، في حين قادوا المرتزقة الى باب على اليمين عوض الباب الذي خرج منه نجيب ونزار واقفان قرب دكان حداد يتظاهران بالعمل بعدما تخلصا من ثياب قطاع الطرق المرتزقة في آن واحد ولكن حافظ نجيب على فاسه خلف ظهره.

راح يضرب نجيب نصلا مصقول على سندان بمطرقة بجواره نزار جالس يركب انصال الاسهم ويربط ريشة سوداء وبيضاء في آخرها، قد فعل ذلك بمجرد تفرق الحشد ونصح نزار له بعدم الانخراط مع المرتزقة بفعل شكوكه المثقلة على راسه الطويل.

لمح نجيب الطاهي رفقة فراول يعاودان الدخول الى نفس الممر، وخال زيف سيكون مع زملاءه فغدت الساحة خالية إلا من نفر متناثر هنا وهناك يقفون تحت ظلال أسقف الاطباق العلوية قصد تجنب حر الشمس.

يستقر فوق الاسوار ثلثة من الجنود ذوو الخوذات المعدنية الصلبة، على ظهورهم تغمد سيوفهم، وثلثة يركز في وظيفته عبر مراقبة ما وراء السور فيما يتجادل عدد غير قليل منهم في اللعب على القمار والتحديات المجنونة من قبيل قذف السكاكين نحو منتصف التروس الخشبية او رمي الحصى على سلال في اماكن مختلفة في الاعلى وفي الاسفل.

ظل صاحب الدكان يلقي باله على الاثنان الجديدان في غمرة عمله ونقاشاته مع الزبائن، لكنهما لم يترددان في التصرف على طبيعتهما والاستمرار في العمل وكذا التحدث معه بلا حرج غير ان نجيب كان يخفق عند فعل ذلك عكس نزار الذي تأقلم حتى صار كأنه يعمل هنا منذ عقود بكلامه المسترسل وإتقانه لشحذ السيوف وطرق النصول.

كان الجبلي يخشى بادئ الامر اتباع فكرة صاحبه لكون الدكان يملك عامل غير صاحبه، وقد نجح نزار في إقناعه بدون عمل شيء يذكر ما عدا الارتجال معتمدا على لا شيء، فهذه ليست مرتته الاولى بالنسبة له إذ استطاع الانسلال الى مخيم المرتزقة قبل تنفيذ الهجوم بلا حاجته لمقابلة الشجيرات وإعطاء كلمة المرور.

تذكر الجبلي كيف كان نجارا في أسران ظانا ان المهمة ستفشل عند اول خطوة وها هي الاقدار تنقله

من والى دون استشارته، ومن قبل ذلك عمله الدائم قطع الخشب وصنع أدوات الفلاحة والصيد لدى قريته القابعة قرب سفح جبلي لا يقطن فيه عدد غفير لهذا اعتاد العيش مع أسرته منعزلين وغير مختلطين بالآخر.

ارتعش بمجرد استذكار هذا وعض شفته السفلية غضبانا اسفا: { سأنهي عملي ثم اعود الى اسرتي العزيزة.. هذا كل مبتغاي الآن.. كفاي تصرفا كالأطفال ورفض عودتي لهم }.

ثم هوى بالمطرقة على منتصف النصل الساخن الملتحف بحمم باهتة اللون فأحدث طنيناً صك آذان من حوله لما التفت اليه كل من نزار والعامل دون صاحب المحل الذي حمل سلة ممتلئة أصفاذا وقيود حديدية مصقولة جيداً، لا بد من انها للأسرى لأنه اتجه صوب مدخلهم.

قال العامل لنزار لاهثاً:

- لا تحاول انت.. وصاحبك.

التقط انفاسه بصعوبة من شدة العمل فقد كان ينجزه لوحده وبالرغم من رفقة هذين لا زال يتعبه، وكذلك تصفد نجيب عرقاً موازياً غزارة وجه نزار المبلل، فزفر الأخير قائلاً للعامل:

- ماذا كنت تقول؟

- هاه؟.. لا، لا شيء.

استغرب نزار ساخراً مستقبلاً كلماته التالية:

- وماذا عساي ان اقول.. سوى مرحباً بكما.

- الشكر لنا، اما انت قريباً ستطرد.

ثم اعقبت قوله قهقهة صعب إطلاقها نظرا لأنه تعب
ايضا بعد مرور ساعة من العمل المضني تحت سطوة
الشمس الحارقة لا يقهم لوح الدكان الذي هو عبارة
عن سقف خشبي. بغرض تلهية نفسه تذكر نزار مقتل
الحارس فضحك مدندنا:

- سحقاله، نال موتة ملحمية لكنه لن يشكرني.. تبا،
تبا لقد افتقدت ذلك حد الجنون.. مات بواسطة الخوزق
والشنق.. هاهاها مدهش!.

امتعض العامل لصراخه لا يكاد يستوعب كلامه
المليء زفرات وشهقات تبهم معناه، حدق نزار صوب
نجيب الذي ضرب النصل بعنف مجددا فهتف له:
- نجيب!.. الحب هو من يسخطك.. أعي ذلك.

فحدق فيه نجيب بدوره لكن بعينين متقدتان غضبا
وشعر يغطيها فارتعب العامل غير ضحكة نزار التي
قلبت الموازين ليهدأ العامل يتبعه نجيب.

أدخل نزار نصلا نحف إثر الطرق المبرح في سطل
مياه باردة ممسكا اياه بملقط كي يتجنب حرق يده
المتسخة سوادا، فتصاعد دخان يلحف الوجوه المكفهرة
الى السماء ليعتنقها لكنه يتلاشى في غمضة عين.

لطالما تمنى امتلاك قدرة التحول الى بخار اسود
وقتما شاء من اجل الفرار من مآزق لن يلبث قليلا إلا
وسيجلبها، سيما انه ترعرع يرضع بجانب الحليب
قصص والده او خرافاته عموما حول مغامراته داخل
الممالك السبع والمحيطات الثلاث حيث صادف ما
تخرج الاعين من موضعها فور رؤيته.

صدق ذلك لمدة عقدين فقط ومردّ هذا الزمن الطويل
الذي قضى شبابه مؤمنا لما سمعه من فم اقرب الناس

الى القلب هو ان امه كانت تؤكد اقوال ابيه حينما يلتفت اليها فتموء رأسها إيجابا.

عندما بلغ الرابعة والعشرون تراكم عليه الامر فمسحه من مخيلته الى الأبد حيث قد أثر فيه سلبا وخسر أصدقاءه وزوجات ونساء عزم على الزواج منهن فكان سينال من ذلك فرص تغنيه وتوفر له عيش كريم وحياة هنيئة. وبعدما كذب اقويل والداه إذ حشر امه مع والده فترتب عنه كرهه الشديد لهما من ثم الهروب الكبير ليس فقط من المنزل او القرية او المملكة الجنوبية بل من اعتبارهما أبويه.

جلس رفقة نجيب ولؤي الذي هو العامل قد عرف نفسه لهما أنفا، فارتشف الشاب المعتدل جسما وطولا شاي ساخنا يتناسب لونه البني مع شعره وعيناه الداكنتان كأنهما وحل، كما يشبه جلده لون الشاي تماما. كانوا يستريحون ريثما يأمرهم الحداد الكبير بالعمل، وكان الأخير عجوزا منتفخ قليلا لكنه مرن وصد قوي يتقن طرق الحديد في دكانه وأيضا طرق الرؤوس في المعارك.

بدى على نجيب ندمه لتورطه في عمل شاق كهذا يتطلب جهدا لا يكافأ بطعام مغني ومشبع للجوع أو شراب مرطب لجفاف جسمه وقلبه أيضا، ففضل التوجه نحو مكان المرتزقة ليعن انه واحد منهم فاستوقفته يد نزار ما إن حمل نجيب فأسه، فقال نزار:

- هذا بالضبط ما يفعله أمثالك.. يلبثون ساعة ثم يياسون.

- لقد بتنا ساعات في العذاب المبين بسبب حماقة خطت...

ابتسم نزار فور ان بتر عبارته قبلما يحدق في
لؤي: { لا يجب ذكر هذا امامه .. غبي! }. وقف المبتسم
قبالته مرتبا ذراعه وراسما ابتساما معاقة بثغريه،
وقال بصوت يشبه الفحيح:

- كما أسلفت سابقا.. إنها ليست...

ودنا من أذنه هامسا:

- ..خطة إنما ارتجال يا عزيزي.

نطق آخر كلامه على مضض وزفر نجيب حانقا ثم
انطلق عازما التحرك لا غير فيما عاد صاحبه يهب
فوق مقعده كورقة شجرة حملتها الرياح ثم وضعتها
بهدوء كقبلة.

تمتم لؤي:

- ألا تخاف من .. غضبه؟ .. احذر هذه المرة القادمة ان
يبرحك ضربا.

وضع نزار قدمه فوق ركبته وأمسك بكعب حذاءه
ينقره للهو وحسب، أما لؤي احمر وجهه مختقا
وأنفاسه أخذت تتلاحق الى ان شهق مطولا حتى قال
بعد ان هدا:

- قل بجديّة .. أتريد معرفة مصير أولئك الأسرى .. أم
قطاع الطرق؟ .. هيا، اختر واحدا فقط.

حدق نزار عاليا صوب السماء يتمعن صفاءها
الجليل وخفوت شمسها رويدا، فقال بأريحية مفرطة
على اللازم بل مزعجة للبعض:

- لن اقول لك، هاهاها!.

خلالها كان نجيب يسند ظهره الى حائط قرب مدخل
المطبخ يرهف السمع لحديث الطاهي مع المرتزق

فراول وإن كانا يخفضان صوتهما بيد تمكن نجيب من التقاط بضعة كلمات متقطعة من قبيل:

- فقط واحد.. لا تخف.. سوف أعطي ظهرك..

أما فراول فما التقط منه سوى:

- كيف أفعل.. ليس عملي.. كلا!..

إفرنقع نجيب دالفا الى غرفة مقابلة للمطبخ حينما سمع وقعات أحذيتهم تقترب منه، فكتم أنفاسه بيده حتى غادرا فأطل بعينه ليطمئن من عدم وجودهما وفي رأسه يفكر: {ماذا كانا يخططان؟.. لا، لا أهتم بهما حتى لو أراد اغتيال القائد الأعلى لأنها ليست مهمتي على الإطلاق}.

التفت خلفه بعدما أغلق الباب ببطء فوجد الظلام الدامس يبتلع المكان لذا سار نحو فانوس موضوع فوق منضدة خشبية مهترئة ومليئة بالخمش والخدش ثم جاهد لإشعال الفانوس لتغزو خطوط النار جدران الغرفة وتطرد الظلال السوداء، فكان هناك سرير أسوء حالة من المنضدة يستلقي عليه رجل لم يتبين ملامحه جيدا رغم تسليط الضوء على وجهه.

شكله يناهز الاربعين سنة من خلال تجاعيده الأخدودية وشامة في خده الأيسر، يبدو شعره ابيض يسمح لنزر من السواد كان قائم على ظهره ويدها معقودتان على بطنه.

بفعل الضوء استعصى عليه تحديد لونه لكنه تجاهل ذلك محاولا التركيز على الفرار متواريا، تحرك على اطرافه حذر إيقاظه وقد شغل ذهنه فكرة ماذا لو كان رفيقه هنا: {لا شك انه سيخنق الرجل او ينام بجواره.. آه!.. كم أتمنى ان يأتي ذلك الأحمق الى هنا؟}.

وفجأة ترمى الى مسامعه صوت أنثوي قادم صداه اليه فاعتقد انها آتية الى هذا الرجل: { كلا، أظنها زوجته او عشيقته فالمجنون لا يبدو متزوج }. القى حكمه كونه لمح طبق فضي فوق المنضدة يحتوي على كوب نبيذ شبه فارغ وعشبة مخدرة.

باغتته بدفع الباب بعنف وكان لحسن حظه قد وضع الفانوس في مكانه منطقي واسرع الى خلف الباب ففتح عليه والأصقه في الحائط لكنه أخفاه عنها. تمايلت سائرة نحو الرجل تناديه باستهتار وخيلاء حجبته قلنسوة سوداء تغطي فروة رأسها خاصة وسط الظالم تظهر كجنينة، أكملت خطاها صوبه وجلست على طرف السرير من شماله ومسدت شعره بلطف تهدد بعذوبة وتصفر بلين.

فاض صبرها فانتفضت متوجهة الى المنضدة فحملت الفانوس قبلما تشعله بسرعة دال على خبرتها ثم قربته من وجه النائم وراحت تميله ليسقط سائل الشمع الساخن على وجنته الباردة من ثم الى ذقنه قبل ان ينساب اسفل عنقه فلم يلبث غير بعيد حتى قفز صارخا ولاعنا بأقبح الصفات.

ضحكت واقفة جواره فعادت للجلوس بنفس الوضعية بعيد وضع الفانوس فوق سطح طاولة مربعة مرتفعة الطول تلاصق السرير، مطت المرأة شفرتها وقد ظللتها القلنسوة غير ان ضوء الفانوس تسلط صوب وجهها الصغير ذو العينان البنيتان والفم الصغير يعلوه أنف أصغر مستدير وخدان منتفخان قليلا.

خلعت القلنسوة فظهر شعر بني تغوص فيه الأعين كأنه قص من شعر فرس كستنائية، كانت رقيقة النبرة

وممشوقة الجسم كأنما ركب درع ضيق حول خصرها،
أما قامتها قصيرة تناهز الفتیان على عتبة الشباب.
قال الرجل موجهها كلامه لأي كان:

- كم نمت في هذا اليوم فقط؟

رغم ان السؤال غير موجه لها اسرعت مجيبة:

- لا عليك، يا أبي.. السيد أذیر قد أتى وعلیک تعديل
نفسك لمقابلته.

صاح مفزوعا:

- حقا.. هل ناداني؟!..

- لا، ليس الآن.. لكنه ينادي بالترتيب على الحاضرين
في قاعة القلعة.. ولا مجال للشك في ان دورك آتی لا
محالة.. هيا، أبتی.

تلفظت كلام عذبا غير متناسب مع كنه آخر ما
قالتة، والظاهر انها لا تحدث احدا بتلك النبرة غير
أبيها. قبضت كفه ضاغطة فلما حدق فيها باستغراب
أشارت بعينيها تجاه الباب المفتوح عن آخره.

كان هناك صوت أنفاس مضطربة صادر من خلف
الباب لذلك نهضت مسرعة نحوه ثم جذبت مقبضه
المعدني إليها في خفة فكان الحائط الرمادي في
انتظارها فقالت غاضبة:

- لم تتعشموا حتى إصلاح الشقوق.. يا لكم من بخلاء!

وما وراء الحائط ظل الجبلي مسندا ظهره اليه،
سمع صوت باب المدخل يفتح محدثا صريرا مزعجا
ليهرول نجيب الى داخل المطبخ قبل خروج الابنة من
غرفة أبيها حاملة وعاء عريضا فيه بقايا ما أكله
البارحة من فتات وكوب فرغ إلا من رشفة بقيت هناك،
وفي لحظة تخبط نجيب محاولا البحث عن مخبأ بينما

لمح ظل يحمل شيء ما إن اقترب الظل زاحفا اليه حتى
توقف فجأة ملبيا نداء القدام الذي صاح لتوه:
- ندى!.. انتظري..

لم تلتفت اليه لأنها تعرفه من صوته الخشن
وعندما صار خلفها دارت نحوه بخفة قائلة:
- ماذا تريد؟

- ماذا اريد؟!.. وماذا عساي أريد؟!.. جئت لأطمئن
علي... على والدك.. على حالته..

امتعضت من نبرة صوته كونها تعلم عذوبة صوته
لكنه يخجل التحدث بنبرته الحقيقية فيفضح نفسه
بالخشونة التي لا تليق به، فكرت كثيرا طريقة تجنب
الحديث معه ولا واحدة تتضمن البوح بما يجول في
خاطرها تجاهه دون خجل من ردة فعله فتظنه سينتحر
فور بوحها.

وهذا امر ترفضه بسبب العلاقة الوطيدة بين والده
وأبيها فاغتصبت ابتسامة قائلة:

- إنه في الداخل.. تفقده يا لؤي..

رفع يده تجاه ظهرها مستعملا نبرته الطبيعية قائلا:

- رجاءًا، لا تذهبي.. او فلنذهب الى البرج سويا.

- كلا، لست ذاهبة الى هناك.. إني س...

قاطعها هاتفا:

- وأين بحق الله ستذهبين؟

منعت نفسها عن ضربه بالوعاء نظرا لكونه تمقت
من يصرخ عليها كأنه يأمرها فحتى والدها لا تستجيب
له دوما، وعوض ضربه رفعت عيناها نحو السقف
المقوس زافرة:

- إن لم ارتمي الى الخوازيق فسأذهب لإعداد حوض للقائد الأعلى من أجل الاستحمام والراحة.

بغض لؤي ذلك فهو لا يرد رؤية حبيبته تخدم شخصا غيره ولو لم تخدمه إطلاقا، فابتسم ساخرا والتفت الى شيماله قائلا:
- حسنا، يمكن... مهلا!.. نجيب!.. هذا أنت.

خرج نجيب من نافذة منضدة المطبخ حيث هم بالاختباء داخلها بعدما فشل في إيجاد واحدة غير ممثلة أو متسخة فحك رقبتة مبتسما بخجل ولما دلفا اليه قال مرتبكا:

- أحضر-ري الطبق.

- ماذا؟!..

استوقفها لؤي بيده قبالة فمها الشفاف الناعم، وبالطبع استاءت من حركته المبالغية لكنه ظل محققا بشغف في نجيب فقال متلهفا:

- هل تريد الطعام؟!.. أستطيع إعداد وجبة لك ولصديقك.

- أين هو؟

تريث قليلا متوترا في البحث عن إجابة شافية فبتر كلامه فور خروج أب محبوبته من جهة يمينه فالتفت موسعا عيناه من ثم طأ رأسه موليا دبره لهم إلى الساحة.

كان ابوها يمشي متثاقلا وماسكا رأسه من شدة الاضطراب كونه مر بليلة هوجاء جراء ذلك الشراب المسكر للأذهان رغم عدم رشفه كاملا، فرمق نجيب الخارج من المطبخ والواقف قرب ابنته ثم جهر صوته يخاطبه:

- كل يوم يأتي مستجدون.. أها، عجيب!

قاداته ابنته الى ممر آخر غير مؤدي للبرج فهي
تدري ان اباهما سوف يوبخه تلبية لطباعه المتممرة
والمتمذمرة، تشابه لونها مع ابوها اللذان يشبهان لون
قشرة البيضه غير ان جلد والدها انكمش وشحب
ببلوغه الخمسين سنة عكس ما خاله نجيب ان لا
يتجاوز الأربعين.

قرر نجيب الإسراع الى موقع الخوازيق بغرض
تفقد المكان وتجنب دراية اي شخص بما وقع سالفاً،
فجر خطاه على هدى ثم اندفع كالسهم المنطلق من كبد
القوس والمخترق لخيوط الرياح الى ان يستقر في
الهدف بلا ادنى ذرة اعوجاج فاستقر نجيب امام الباب
البرونزي.

اخترقه دون انتظار انفتاحه كلياً واغلقه بهدوء
كقبلة ناعمة على خد بارد: {يا للهول!}.

قد صدق تعجبه في خلده لما رأى كل زملاءه
المرتزقة ملقون على الخوازيق التي اخترقت مختلف
مناطقهم بلا حرج ففارت نصالها سيول حمراء قانية
حتى بدت كأن السماء تكثفت سحبها وترمدت لتبصق
قطرات حمراء وابلة في حين انقطع الحبل الثاني
للجسر حيث وقع متشنج على حافات الخوازيق. وما
أفزع نجيب اكثر هو الأنين العالي صادر من زملاءه،
همهمات متحشجة ومتقطعة، صراخ مكتوم بفاكهة
التفاح الاحمر، لمح الجبلي المرتعد يد متشبثة بحافة
المرتفع الرابض فيه فأسرع اليها ماسكا الكف ثم سحبه
للسطح بشق الانفس.

امتلاً صاحبها كدمات ازرققت في مقاتا عيناه،
وتنفس الصعداء متجاهلاً اندهاش نجيب القائل:

- زيف!.

كان لزيف على خلاف لون شعر فروال الأصهب شعر اصفر يشوبه سواد ينحصر مدى شعره عند عنقه ولحمتا أذنيه. راح الجبلي يصفه على التوالي برفق كي يعيده الى وعيه بيد انه غطّ عوض ان يفيق واصدر خيرا متأما فعزم نجيب على معالجته في الخفاء، لذا حملته فوق كتفاه هارعا الى اي غرفة ستصادفه، فانعطف شمالا عكس الطريق الذي سلكه سابقا مع نزار، ويؤدي الطريق الاوسط مباشرة الى المدخل.

لم يصدر ضجيجا اثناء السير رغم تململ وتثاقل انفاس زيف وتدلي راسه مما جعله يطلق نخيرا وصفيرا عبر انفه ما ازعج اذن حامله، خلال هرولته بدأ صوت الابنة رفقة ابوها يزداد شيئا فشيئا، ففكر حائرا: { سأضعه داخل هاته الغرفة.. كيف لي نسيانها يسلكان هذا الطريق؟ }.

بعد برهة صاح زيف بغتة:

- توقف!.

تردد صوته الى عمق الممر المظلم ما عدا بصيص اشعة الشمس يتسلل خجلا فلا يكاد يضيئ سوى الارضية الرملية. أدّى صياحه المباغت الى ارتباك نجيب الذي افلته فسقط مرتطم مع الأرض على نحو عنيف ليبرز صوت ندى القائلة في استغراب:

- من هناك؟!..

اخفض نجيب صوته بينما يخرس زيف المتألم واضعا كفه في فمه ويقول:

- ما بالك؟

فابعد زيف كف الجبلي ثافلا ثم قال:

- إنه نفس الممر.. الذي قادونا اليه نحو حتفنا.

- لما لم تقلها من قبل؟

اسند زيف ظهره الى حائط بجوار باب الغرفة وشهق
لافظا قوله:

- كفى أسئلة ارجوك.. دعني أستعيد عقلي.

ثم زفر مرتاحا ليستأنف كلامه لاهثا:

- لقد خدعونا بالطعام في قاعة متوارية عن الأنظار..
ولا شك في أنهم خدرونا بالشراب.. آه! لا اعلم كم
رشفتم منه.

اقتربت خطوات ندى من موضعهما حيث كان
الطريق بينهم ملتويا وهذا ما منح نجيب فرصة خلع
ثياب قطاع الطرق من زيف وفتح الباب المجاور للأخير
ثم قذفهم الى المجهول إذ اصطبغت الغرفة بالظلام
كشبيهاتها، بعد ذلك بلغت ندى معتقة ذراع ابيها فلما
لمحتهما أبدت انزعاجا ممزوجا باندهاش خلق احمرار
في وجنتيها، فحاولت تخطي ذلك عبر قولها:

- أنت مجددا!.. هيا اذهبا الى عملكما قبل ان يلحظ
السيد أوزير غيابكما.

عدّل الجبلي وقفته محمدا اسفله تجاه ندى يتفحصها
متمعنا الى ان قال:

- ما سبب قدوم أوزير؟

تعالت نبضات قلبها متجاوزة نبضات ابيها فصاحت
فيه:

- لا تذكر اسمه فقط، ايها الاحمق!.. قل السيد أو
القائد.. حتى لو كان أبوك فلن يغفر لك ذلك في التقليل
من شأنه.

عقد ذراعيه مستهترا بوجهه متجه فعاود خطابه الجاور:

- هل أتى لاستقبال القافلة أماذا؟

تقدم أبوها قبالتة قائلا بنبرة تشوبها التهديد:

- أخفض صوتك أمامها ولا تتحد هكذا معها.. تكلم معي، مع من في حج--.. عمرك..
ضحك زيف قائلا:

- أها، ليس هناك فرق بينكما.

حدجه الاب بوجوم ثم أشاح وجهه عنه صوب عينا الجبلي الغامقتان كبحر لجي، فدنا منه متمايلا فيما يقول:

- أخبرني.. ما حاجة خادم بائس مثلك في معرفة أحوال القلعة؟

التفت الى ابنته ثم قال:

- لا أظن، وإنما متأكد انه جاسوس لعين آخر.

لفظ آخر كلماته منتشيا بينما اتسعت حدقتا عينا ابنته التي كلما اندهشت او استغربت او انزعجت اعطت تعابيرا براقية وجذابة فيزداد وهجانها اللأمع، فأخمدته قائلة بحنو:

- يستحيل ان ينسل بهذه السهولة أو ندري عن حقيقته بنفس السهولة، يا أبي.

هتف الجبلي مصفقا:

- كلام حكيم، أحسدك على ابنتك يا عمّاه!

ولما التفت اليه كان الناطق منذ قليل يملا محياه بابتسامة ساخرة ومثلذذ في رسمها غير حيول ندى بينهما لئلا يقع شجار فنظرت الى نجيب مشيرة برأسها نحو زيف قائلة:

- إن كان صاحبك مخمورا فأحضره معي الى القاعة..
لا تسأل.. نفذ ما قلت وحسب..

قهقهه زيف لما حمله نجيب ووضع عنقه تحت إبطه
في حين تأبطت ندى ذراع أبيها تقود الطريق صوب
مكان وصفته انه سهل عملية إيقاظ السكارى وبلغوا
بعيد لحظات من انطلاقهم وسيرهم بين الجدران
الصخرية الصامته تصطف جذوات نارها خامدة..

دلفا وراءهما على مضض فأطلق الجبلي عنان
عيناه يتفقد ما حوله وهو ساكن فلكزه زيف باسماء
وقائلا:

- حرّك أردافك.. لا تجعلني مخبولا..

- اصمت فصوتك مغيظ..

كشفت المرتزق عن أسنانه البيضاء على انها
ابتسامة فتقبلها نجيب لقلّة حيلته بيد انه مندهش من
بياض أسنانه، أشارت له ندى بالاقتراب من بركة
توسطت القاعة العريضة والمرتفعة طولا، تصاعد بخار
يخفق الانفاس من البركة المستديرة التي رُصّ حولها
رخام احمر زُخرف ببقع سوداء وفي كلا الطرفين
تمثالان لفيولين يضخان الماء الساخن من خلال
خرطوميهما الملتويان .

تفكر الجبلي شيئا فاعرب عنه قائلا لها:

- لقد قلتى للوئي بانك ستحضرين حوضا للقائد.. ارجو
الا يكون هذا الذي نحن فيه..

- بالطبع لا..

واتممت بخفوت:

- يا لعقل الرجال!

- ماذا؟

أماءت براسها نفيا على انها لم تقل شيء فخرجت
مسرعة ليتسنى للمخمورين نزع ثيابهما كما ولدتهما
أمهما حيث اشماز نجيب من منظرهما العاري بجلديهما
الشاحب وهما يحترقان سخونة الماء اللافحة للوجه
والحارقة للجلد.

هب نجيب لمغادرة ليتركهما على راحة متجاهلا
نداء الاب من اجل الانضمام اليهما إذ غزا ذهنه مشهد
نداء زيف في الساحة للانضمام الى موضع المرتزقة
ولحسن حظه أفلت من الامر عوض ان يكون مرميا
على الشفرات المخوزقة الأرجوانية المرعبة، كما فكر
فيما يغادر القاعة قائلا: { صدق المثل، كما تدين تدان..
وضع زميلي تفاحة في فم ضحيته وكذلك فعلوا هم مع
زملائنا لكن كيف بلغوا الجسر؟!.. لعله ممر سري..
سحقا، قطعت حبل العمود الاول بغية الانتهاء من
الحارس فسقط نزار }.

أمسك رأسه ضاغطا إياه بينما يسير محاولا طرد
أفكاره الناطحة له غير تغلبها عليه: { لم حاولت
التخلص منه؟.. لا، لا يكون الامر بسبب استفرادي
بصندوق الذهب الذي وعدته به فلكنت تركت زيف يلقي
حتفه او منحته ذلك.. أجل!.. أجل، إنه كذلك.. لقد
صرت كأي أناني يحب مصلحته.. كلا! ليست مصلحتي
إطلاقا إنما من أجل عائلتي كيف سأعود إليهم خاوي
الوفاض بعد كل هذا الجحيم }.

انحنى ضاغطا كفه في حائط فيما تعصر يده
الأخرى رأسه، جحظت عيناه الواسعتان وتفصد عرقا،
ثم نطحته افكار في موجة ثالثة: { تبالي!.. لم وعدت
ذلك المهرج السادي بالذهب وايضا لذائك الغيبان؟..

هاها كي يدفع الاول ثمن المهر والزفاف اما عائلتي فلم
أعرها اي اهتمام.. ما لذي دهاني؟! {.

وصفع الحائط على منوال صاخب حيث تعالت
همهمات مستغربة من الداخل مما استعر انتباه نجيب
فواجه الامر عائدا الى وعيه من ثم أحدث الباب صريرا
حين انفتح وأطل منه وجه يعتمر خوذة معدنية تثبت
فيها ريشتان سوداء وبيضاء، فقال له الجندي جاهرا:

- كدت تكسر الحائط يا رجل.. تعال وقدم عذرك.

نظراته الثاقبة مع صوته الغليظ الثابت كانتا
تحدثان عوض فمه، فسار الجبلي خلفه بوجه منتفخ
الأوداج، تطايرت نظرات الحاضرين في الغرفة
المختلفة عن نظيراتها إذ هي أكثر شساعة وطولا كما
ان جدرانها زخرفوا بأبهى الصور والنقوش، ولها
أسرة عريضة منخفضة وناعمة ترافقها وسائد حريرية
متعددة الألوان والأشكال يغوص فيها المرء لشدة
رطوبتها.

دلف نجيب حذرا ومترددا بادي على تعابيره التوتر
الحائر، حلق بسرعة في الحضور القليلين فعرف منهم
الطاهي والمكلف بالقلعة توسطهما شاب قبيح الصفة
والشكل تحمل يده مشروب يملأ به كأس أزيز الرابض
خلفه كلما أنهى مشربه.

كان الأخير يرتشف بلا صوت في حين يبدع
الأخران في التلذذ بشراب الـ*إرم* بينما اكتفى القائد
الأعلى بالماء، أدى الجندي فارغ القامة التحية ثم قال
بصوت منتظم:

- أحضرت لك من أزعج راحتك، سيدي.

ارتشف مرة اخرى لا يترك أثر للماء في فمه ولا يذر قطرة واحدة تسكب على هدامه الأنيق، فقد نزع درعه وسيفه فوضعا فوق وسادتين عند زاوية الغرفة المبهجة.

تكلم الطاهي ووجهه ملتصق بكوبه فسمعت بضع كلماته واندرت أخرى، فكرر كلامه بعدما حدجه أزيير بوجوم:

- أعرفه أنفا.. احزرا المكان الذي التقيته.
مسح قطرات من فمه باستعمال كفه الطويل وشبع ضحكا منتظرا الإجابة منهما، فكر المكلف مليا ثم قال:
- في القلعة؟

امتعض الطاهي ملقيا نظرة اشمئزاز ليضع كوبه جانبا من بعدها دفع نفسه على النهوض بصعوبة تامة جراء بطنه المهترئ، فلم يكن لينجح لولا عون الشاب مرافق القائد الأعلى. بعيد التقاط أنفاسه توجه نحو الجبلي الواقف كغرايبب سود منفرة المنظر، فعبس له قائلا:

- في المطبخ.. واضح جدا من حجمه اين سنلتقي.
وباغت نجيب عندما لوى ذراعه المنتفخة حول عنقه ممازحا إياه ثم نتف شعره بقبضته المكورة ليهمس بخفوت شديد:

- لا تخف، لن اخبرهم حتى انتهي منك.
وافلته دافعا نجيب صوب ازيير فتعثر ساقطا على ركبتيه من ثم كاد تقبيل حذاءه لكن ازيير امسك ذقنه محذقا في عيناه المتقدتان وملامحه كأنه يمر عبر فترة النقاهة بعد مرض مهلك. وكانت عينا القائد تشبه القطط السوداء التي لها اخضرار في البؤبؤ.

لعق اذير اسنانه البيضاء الحادة مثلما لعق نجيب
لثته فاستمرا هنيهة ليتحدثا في آن واحد ويصمتا على
التوازي، حرك اذير راسه قائلا:
- تفضل.

- حاشا ان اسبق..ك.

نطقها مرغما وبمرارة توازي الى حد ما وضع
نصف حامض على شفثيه ثم الطلب منه التحدث، اغلق
النصف عيناه رافعا حاجباه ثم خفت نبرته قائلا:

- ما دمت لن تتكلم فلن تخرج من هنا أب...دا.

أعقب قوله بدنوه الى اذنه ببطء ليهمس له:

- وليس من المفروض ان تتجو بعدما دلفت الى هذه
الغرفة.

كان الجبلي يلتقط الكلمات كاتما غيظه دون ان
تخيفه قيد انملة حيث أمسك نفسه عن خنقه فهو غير
مقيد والقائد الحقيير رابض قبالتة، تسارعت أفكاره: {
ها هو يعلي وجهه بعيدا عني.. ينبغي انتظار الفرصة
القادمة.. خبت شجاعتي؟!.. أو متى كانت لي الشجاعة
في يوم من الأيام؟.. لكنت رفضت المهمة من بادئ
الأمر.. آه، نسيت قبلت بها من أجل عائلتي.. مجددا
عائلتي.. لييتي ما... }.

بتر تفكيره لَمَّا استقبل صفة من الجندي في رقبتة
فأعطاه سبب فعلته جائرا:

- لا تغفو امام حضرة القائد الأعلى.. وأجب عن سؤاله.

استعاد نجيب رباطة جأشه او انه حاول ذلك فأخفق
في باطنه عكس ظاهره الثابت إذ لا يستطيع التركيز مع
اذير كونه يخطط للقضاء عليه، فكما خال نجيب إما

الإجهاز عليه أو سيفعل هو بلا لاشك، كرر اذير سؤاله
رافعا حدة صوته بيد انه مبتسم بامتعاظ:

- كيف حدث لك ما حدث؟

- عفوا.. لم.. أفهم.. ما تقصد.

- خذ موضعا تجلس فيه وارثشف ما احببت.. ودعنا
نتبادل أطراف الحديث.. يا سداة، انتهى مجلسنا
تستطيعان المغادرة وأنت معهم.

فأشار الى الجندي الذي غادر فورا معتدلا الوقفة
خلف الطاهي الغير المبالي فيما همس مكلف القلعة
لسيده:

- ندعك مع شخص لم تره أعيننا من قبل.. لا أجزم أنه
امر صائب.

همس السيد بدوره:

- لست ابنك.. هل علي مناداتك ابي بعد الآن؟

أصابت المكلف قشعريرة مباغثة وشعر بحرارة
متصاعدة لا سيما العينان تراقبه ولا تفارقه، لذا اندفع
مغادرا ملقيا نظرة خاطفة تجاه موضع الجبلي العاقد
لرجليه ينتظر ملاً الشاب لكوبه الساخن.

ظل اذير ينقر على حافة كاسه الفضي بجواره
مرافقه صاحب مهام فعل كل شيء فلم يقتصر دوره
على الحراسة البسيطة او خدمته، بل بلغ مستويات
عدة، واما نجيب فأنهى كوبه سريعا وقد غشته الرجفة
عبر يده المرتعدة حتى تكاد ان تفلت قبضته الكوب لكنه
فارغ فلا يبالي.

ازداد ارتباكاه وتوتره حينما رفض اذير ان ينبس
ببنت شفة ما جعله هو بالذات لا يفكر في المبادرة
بالكلام. استمر القائد في الصمت تغيظ افعاله حفيظة

نجيب فقد طلب من مرافقه العزف على الآلة ليسارع
الاخير ملبيا امره.

فشد اوتارها ببراعة في نفس اللحظة التي تشتد
اوتار الجبلي وترتج اعصابه مع كل نغمة حادة ورنة
طانة ثم يهدأ قليلا مع النغمات الخافتة الرقيقة لتتصاعد
حاملة معها سيل العرم من غضب الجبلي الذي فار
غليانه باحمرار وجهه فتفجر كوبه الخشبي كرمانة
متعفنة بعد ضغطه الشديد بواسطة قبضته الضخمة.

لم يعطي اذير بالا للأمر رغم هرولة الشاب لتكنيس
الارضية من شذرات الكوب وشظاياه ثم قدم للجبلي
كأسا فضي لونه، قد ملأه بالنبيذ فمده له قائلا بابتسامة
منبجعة:

- جرب هذا وسيرخيك ويهدئ اعصابك.. لن تندم.

واخيرا تكلم الجبلي صاكا اسنانه:

- احضر لي الاقوى لديكم.

فتح اذير ثغره لسماعه ذلك وكمتم ضحكته التي ما
تزيد الطين إلا بلة حيث انتفض الجبلي قاذفا كوبه نحو
خد الشاب ثم خطف منه قارورة النبيذ ففتح سدادتها
بأسنانه ليذر السيول الحمراء الباهتة تسري في حلقه
الجاف محدثا صوت المختنق بشرابه بينما قعد المرافق
في مكانه يتحسس الدم المنسل من فمه جراء ضربة
الكوب الذي حافظ على اثر الدماء تغطي فضيته.

منع اذير مرافقه من إحداث ردة فعل لما اشار له
براسه ويده بالسكون، ثم حملق وبحلق في جسد نجيب
المبتل وشعره المتطاير..

..كان يمشي بخيلاء عاقد يديه خلف ظهره ووراءه
المرافق يحمل نجيب عبر وضع ذراعه فوق عنقه

النحيف كما جسمه وحجمه القصير بالمقارنة مع طول سيده وضخامة من يستند اليه، احس بعضلة كتفه تنزّه الما لكن عليه الصبر قليلا والا يظهر تعبهُ لسيدهِ لِمَا لَهُ من تبعات مشؤومة.

عبروا الردهات المضئية خاصة القريبة من الساحة في المقابل تغلف الأروقة الداخلية بظلام لا تكفي طرده صفوف المشاعل الغير النافعة سواء ليلا او نهارا، فكانوا يخترقون الظلام فيكتنفهم بحفاوة ويغمرهم الى ان يتسلل الى أذهانهم ليثير مخاوفهم غير اعتياد القائد الأعلى على ذلك لكانت حالته مثل مرافقه المفزوع.

في حين توالى رموش نجيب السادر والمرتخي إذ لا يدري اين يكون فقد غاب حسه واختفى وعيه حيث ارتخى كثيرا على كتف الشاب الضعيف فقام حاملة بإفلاته ليسقط أشد عنفا من سقوط زيف سابقا، ولو كان يحمله على كتفاه عكس هذا الذي يجره فقط.

توقف أزيير عن السير دون صدور التفاتة او هممة، بل التقط كلمات مرافقه الساخط بإرهاف:

- سحقا!.. اوشكت ذراعي الانفصال عن جسدي.. تبا لك!.. فقت البقر والثور.. كم تأكل خلال اليوم الواحد؟!!

اخذ يلهث متحسسا ذراعه يرجها كي يرى مدى سلامتها، اما سيده فوجهه سمعه الى طقطقة نيران المشاعل ينسج في مخيلته اصوات اشخاص يتعذبون من لفوحة النيران وسخونتها او ذوبان اللحم والشحم والعظام بفعل الحمم الحارقة، فقال سرا: لم اجرّب في حياتي مثل هذا العمل الشنيع قط.

لعق اسنانه العلوية ثم وجه خطابه الى مرافقه:

- سِرَّتِكَ!.. أحضر ذلك الجندي ليعينك في حملته..
أسرع، انا سأبقى معه.

قبيل إكمال كلامه كان المخاطب في طريقه للبحث
عن الجندي يركض سابقا ظله، أصدر الجبلي أنينا وهو
ساقط على بطنه يدندن ويتمتم بكلمات مبهمه، وضع
أزير قدمه على ظهره ضاغطا جذعه الصاد مما اتسخ
قميصه الصوفي بالغبار المكتسي لبياض الصوف
وسواد الدرع.

تفحصه القائد يتمن فجال في ذهنه: { يشبه القائد
الثرثار تماما.. ولا يجدر ان يكون مصيرك مثله..
سوف أجد لك نهاية تليق بحجمك أما ابنائي فربما
شبعوا من ذلك الجريء }.

زاد من ضغط قدمه على الجذع ففغر الجبلي فاهه
زاعقا وصائحا كالديك المخنوق، وهدر أزير قائلا:

- اصرخ عاليا.. اعلى!.. صوّت كما تشاء على من
تشاء.. سأحرص على ان تكون نهايتك أسوء من
رفاقتك.. الشج..عائ..!

فأطلق قهقهة متهكمة ليواصل حديثه العنجهي:

- تخالني لا ادري عنك وعن زميلك الطويل.. هاهاه،
يتحداني في قامتي.. لا احد يجروء على ذلك ما عدا
سيفي اللازب.

صك اسنانه غاضبا من ثم اردف صائحا:

- هيا.. ابكي أحسن لك!.

لم يفكر نجيب في البكاء للحظة واحدة رغم تشوش
ذهنه وكان المه غير واضح المعالم إذ انه تمنى النوم
وحسب، لكن أزير هو جلاده الآن حيث قبض خصلات
شعره فتخللت الخصلات السوداء الفاحمة بين اصابعه

ثم جذبها اليه فيما يحفر ركبته اليمنى في ظهره، راح الجبلي يثقل محمرة اوداجه اكثر من اي وقت مضى.
بهذا الصدد دنا أزيز مجددا من أذنه الاخرى ولم يهمس بل اصدر نبرة فحيفية ثعبانية:

- لدي لائحة بأسمائكم وصفاتكم.. وحتى خصالكم!..

قهقهه ساخرا بينما يشعر نجيب ان شعره مقبل على الاقتلاع من جذوره فجحظت عيناه محكما صك اسنانه يكزها بغلظة فارغم نفسه على قول متقطع:

- لست.. واحدا.. من.. ن.. ه.. م.. انا جند.. د.. ت.. من طرف.. ملهام!..

أرخت أزيز قبضته واعتدل واقفا يلهث، كما ترددت جملة نجيب تطن اذناه حينما لفظها زاعقا حتى تأرجح لسانه وتطاير لعابه، اثناء ذلك وصل المرافق مع جندي آخر ففسر لسيدة قائلا باندهاش:

- لم اجد سوى هذا.. اما الآخر فلا اعلم مكانه.

- احملاه الى الزنزانة السفلية.. قيده جيدا.. وانت راقبه ريثما آتيك ولا تفارقه إلا بأمر مباشر مني تشهد عيناك عليه.. فهمت؟

كان يلفظ كلماته بحنق شديد وقد استغرق جلده برهة لكي يعود الى بياضه بعيد الاحمرار والتعرق خلال جر نجيب مع الارض تجاه مصيره يأن بخفوت.

اسرع جلاده نحو الغرفة المبهجة ليدلفها راکلا الباب، توجه مباشرة كالسهم نحو إناء يحتوي على ما تبقى من الماء فارتشف عن آخره محافظا على وقوفه ومتلها للشرب على خلاف ما كان سابقا.

ثم انتقل زاحفا فوق السرير الناعم الى الوسادة التي عليها درعه الرمادي المعدني الصلب، ولما

لامست ركبته الحريـر: { لمن الاحسن نزع ثيابي
والاستلقاء حالا.. لم ازعج نفسي بأولئك الحقراء؟!..
لكن هذه ليست شيمي، لن الين ابدا.. ومع ذلك سأكافأ
نفسي بحمام ساخن داخل الحوض المريح.. يفضل
لتلك الفتاة ان تعده في اسرع وقت وبأنسب طريقة..
والاهم جعله انيق بالورود وضوء الشموع الحمراء..
آه! ينبغي قضاء عملي لیتسنى لي بعدها الهناء.. فكما
سجل التاريخ ان الممالك تسقط لما يغدو جلد ملوكها
رطب أكثر من الدقيق }.

ارتدى درعه عاقدا حزام غمده المزخرف ثم اغمد
فيه سيفه الطويل مثله الذي احبه عندما اقتناه في
عاصمة الوائليين *إذرا* وهو يقول فاخرا:
- هذا الوحيد الذي سيتحدى طولي.. ولا احد سيجرؤ
على منازعتي غيره.

بالتأكيد طوله فريد من نوعه حيث جمع بين
القامة الفارعة والجسم النحيل المشقوق فيظهر
عملاق لكن انحف، أما سيفه فبلغ طوله جذع ظهره
وشفراته حادة وأمضى من وخزة الإبرة، ينحف نصله
ويبرق مثل صاحبه.

غادر الغرفة بنفس دخولها، غاضبا ساخطا وكذا
عازما إتماما عمله متجاهلا مغريات وملهيات الغرفة
التي ستبعده عن هدفه فهو سابقا سجين هواه لم يتم
عدة مهام طلبت منه بسبب كثرة ما يشوش ذهنه فكان
ينحرف الى وجهة غير المطلوب منه الثبات فيها.

لذلك تعذر ترقيته الى مناصب اكثر شأنًا مما هو
فيه، وكان حلمه ان يصبح قائد قوات *الرماح
المشتعلة* فهي التي انضم اليها اولا بشق الانفس بعد

تسببه لمتاعب حتى يبلغ مناله لكن سرعان ما حوّل الى دور المراقب لمعاقل الوائليين وأرغم الجميع على دعوته بالقائد الأعلى الذي ليس منصبا ولا يعني شيء.

فتح الباب القلعة الرئيسي على مصراعيه من طرف الحارسان الرابضان في الداخل فزامت الرياح الحارة العاتية حاملة غبار لطم وجه أزيير مما استعر انتباه الحاضرين في الساحة العريضة ذات الاعمدة البنية الرخامية المنحوت حولها افعى حمراء ملتوية وملتفة تصاعديا الى الاعلى.

نزل أزيير على الدرجات حتى كاد التعثر في الاخيرة غير تحكمه لذاته وجسمه في آخر اللحظة ثم انطلق مخترقا الازدحام وصولا الى دكان الحداد فوجد لؤي وحده لينقض عليه قابضا تلايبيه فرفعه والصقه في سارية خشبية تحمل سقف الدكان صارخا:

- أين ذلك المهرج؟! .. كنتما تجلسان معا.. لقد شاهدتكم من النوافذ كلها.. قل بسرعة ليس لدي متسع من الوقت لجزعك.

ظل لؤي صامتا وساكننا حاله كحال المتفرجين الذين تعالت اصواتهم العالية والمنخفضة تدريجيا، دوى جدالهم لدرجة همس احد لصاحبه:

- هل جن مجددا؟!!

فأجابه جاهرا:

- لا اتفق معك.

- اصمت قبل ان تفضحنا.

كان لا بد لأزيير في تسديد لكمة صوب خد لؤي حتى يخفف روعه ثم عاوده الثالثة في فمه بعد ضربة على أنفه فكانت الأعنف، والناس يتأفون ويدندنون

بأنزعاج، لكن سيدهم انزعج اكثر منهم إذ التفت صائحا فيهم:

- توقفوا عن الحديث!.. فليحدث من سينفعني، اما الثرثار المهزلق سيكون مصيره كذلك المرتزق.. لن تفضل حدوث الامر لعدوك واي ناهم شره سيلقى حتفه تماما كرفاق المرتزق اللعين.. إذا...
لوى عنقه تخفت كلماته:

- انفعوني او اهتموا بشؤونكم البائسة وحياتكم المنحطة.

ساد الصمت اثناء حديثه وبعده فزمت الافواه واطبقت، من زاوية قصية اخترق قائدا المرتزقة التجمهر بوجهين متجهمان متعشان للدماء، فوقفا امام القائد الاعلى العصبي حيث إذا اجتمعت كفة غضبهما فلن تغلب كفة سخط أزيز الذي استل سيفه وراح يضرب محتويات الدكان بعنفوانية ويكسر ما صادفه بلا استثناء.

رفع سيفه للأعلى وهم بان يهوي به على راس للوي الشاب الوسيم من منظوره الخاص.. ثم دوى نفخ البوق وقرع الطبول ليترد الصمت المريب وقد ثبت حدّ السيف على شفا شعيرات بنية.

تردد الزعيق الصادر من الجنود فوق الاسوار مرددين جملة واحدة:

- ارفعوا الجسر الأوسط وافتحوا البوابة.. رسول قادددم!

اتسعت حدقتا أزيز فور سماعه لرسول المملكة قادم اليهم، بل اليه يزف له خبر مفرح يحلّقه في السماء فباغتته هواجسه: {يا إلهي!.. مرت سنوات على

إرسال فرمان يخصني بالذكر.. لا تتسرع!.. ربما هي رسالة تضم امر ملكي {.

لا بد ان الرسول كان بعيد عن المدخل ممطيا جواد خاص للركض طويل الامد، لذلك استمرت صرخات الجنود المصطفين على شرفات القلعة يطالبون برفع البوابة او إحضار القائد الاعلى او مجرد الصراخ فقط.

كان القائدان مغتاضان متسمران في مكانهما بينما صكت الاصوات المتعالية والطبول المطبأة لأذنا اذير والزعيق المزعج القاتل والخانق فالتفت صوب الاسوار صائحا بالصمت فلم يسمعه بل انضم معهم صوتا القائدان يصرخان فيه:

- ما لذي فعلته برجالنا؟!!

والآخر يزعق مكورا قبضتاه:

- أين هو القائد الآخر.. اين ثرثارنا؟!!

جاء ذلك التفت اذير خلفه مغمضا عينا شاقا حنجرة الشاب بنصل سيفه فسمع لزوجة الدماء الفائرة وتفتق العنق محدثا صوتا خفيضا لذيذا، كما تليذ بانسكاب السائل الاحمر على الأرض كصوت المطر، وفتح قصد الاستمتاع عيناه ليرى عينا ضحيته تغادرها الروح.. لكنه.. جفل عوض الابتسام!.

الفصل الخامس عشر:

كادت عجلة عربته الانغماس في الوحل لولا قوة
الفرسين اللذين يجران العرببة الممتأنة ببراميل حمراء
وسوداء وبيضاء، كل لون يعود لمشروب معين، وهو
ما يحفظه السائق الاصلع البدين عن ظهر قلب.

لم يعد السائق ينزعج من رحلاته الشاقة المتطلبة
لركوب العرببة العريضة والثقيلة عوض استعمال فرسه
المريحة، فبعد مرور سنوات على عمله لهاته المهمات
اضطر الاعتياد على خشونة المقعد الذي يترك أثر في

دبره وكذا مسند ظهره رغم تركيب وسادة طويلة يتكى عليها ويجلس فوقها.

كان سابقا يحضر معه عازف ينشد له ما يلهيه عن الطريق ويريحه من رتابة رحلاته في مختلف الأجواء والأماكن أما الآن فتخلى عنه لفراغ كيس ماله وغلاء أسعار توظيفهم فما كان من السائق إلا ان يقول:

- اذهبوا واعزفوا في القبور، فلا أحد سيدفع ذلك الثمن الباهظ من أجل سماع ثغائكم.

وقد كان معه الحق في وصف أناشيدهم التي خلت من الموعظة والعبير كم ضعفت عنوية اصواتهم وروعتهما مع بروز العازفين العجائز خلف الشباب الذين اندثروا في هذه المهنة بعدما ملأوا الأرض بأخبارهم وشهرتهم.

أحيانا ينسى السائق وجهته ظاناً منه أنه يتنزّه أو يرتحل كأسراب الطيور المحلقة تحت أديم السماء الصافية والجو الهادئ بعد ليلة هوجاء محملة بالمطر الغزير.

يكتفي بشرب نزر من الماء وتناول وجبة خفيفة تجنباً للهزات المرتجة المفاجئة التي تحدثها عقبة صادفتها العجلات العادية من ناحية القوة والجودة، فتلك الهزات هي ما تخلق دوامة مشكل في بطنه معظمها تقوده الى الغثيان أو ربما فقدان الوعي حسب شدة الهزة.

يجول في ذهنه طوال الطريق مشهد رؤية الرجل القصير خارج من عند القائد الثاني للمجموعة، ويرتسم على محياه ابتسامة خبيثة، قبيل دلوفه للحديث مع السيد محمود ملهام وقبلما يرسله لإحضار ذلك

الخنزير الى المزرعة: { كم هذا مضحك؟! .. أسافر من أجل خنزير واحد فقط }.

رغب قولها له وقتئذ، لكن الأمر يعني وضع حدّ لحياته بيداه المنتفختان، حار بين العودة إلى الفتى المسكين أو إحضار خنزير حقيقي ما سيجعله يخاطر في كون القائد قد يعتبرها مزحة مهينة تستلزم فصل رأسه عن جسده المنتفخ بشكل يظهره قوي ولا يقف عقبه أثناء القتال الفردي وحسب.

{ كلا، لا زلت أريد العيش لسنين طويلة وأحمل مطرقة في يدي في المعارك دفاعاً عن سيدي.. وسوف أبقى كذلك، أظن ان سيدي لا يطيقني كما كان سابقاً بسبب افتقاري لتحمل المعارك الحربية الضخمة.. وماذا بعد؟.. نحن لا نحتاج لأيّة معارك طاحنة ما دامت السياسة خير بديل.. قلت له هذا.. قل له، أجل! }.

التفت يمينا لعله يجد فتى آخر ملقى على جانب الطريق ويحتاج مساعدة سيتلقاها منه بالتأكيد، ثم اندهش لما رأى كلب رمادي مشعر ممدد فوق عشب الأرض لا يظهر وجهه تماماً كوضعية الفتى قبل التقاطه.. { سبحان الخالق! كم يشبهه اليوم البارحة.. البارحة؟.. متى التقيت به؟! }.

تنفس الصبح فاتحاً أذرعه ليذر نفحات الهواء البارد تداعب أذنا الكلب ويرفرف فروه الطويل، صفر له السائق فلم يستقبل ردا البتة فقال مبتسماً وساخراً:
- ادعى ناصر فما اسمك؟.

وأطلق قهقهة خفيفة مقرراً رمي كسرة خبز التي ارتدت مع جذع الشجرة وسقطت ضاربة بطنه الذي

تتصاعد فيه أنفاسه وتنخفض ما أراح ناصر لكونه حي يرزق.

ومجددا لم يبادر منه اية حركة ففهم ناصر بمجرد وقوفه أمام الشجرة ورؤية بطنه المنتفخ مثل بطنه أنه حظي بعشاء دسم ليلة البارحة او فطور متخم في الصبيحة، انحنى يلتقط الكسرة الملقاة فوق عشب مبتل سرعان ما تناثرت قطرات المياه منشقة عنه ومحلقة الي الهواء في دوامة حائمة كمن يصنع مروحية بمنديل مبتل.

استغرق من الكلب اقل ما استغرقه ناصر ليتنبه السهم الذي نبت في الارض من نصل الي آخر الجذع، اما في الوسط تعلق الكسرة آخذة في التفتت والانزلاق الي الأسفل، فالكلب انتفض مفزوعا ومتراجعا يزمجر وينبح بعصبية فيما دفع ناصر نفسه للوراء أيضا مدننا ويتأني بخفوت حيث علقت كلماته وسط حلقه، وبلع ريقه مستديرا يمينا الي الرجل المتوسط طولا لكنه واسع وعريض، له شعر أشيب مسدول الي عنقه، وتنزل لحيته سوداء إلا من شعيرات بيضاء.

يتمنطق بحزام يحمل خنجرا معمود ومحفوظة صغيرة مفتوحة، أما ظهره التصقت به كنانة شبه ممثلة بالأسهم فيما يحمل قوس يبدو من صنع يدوي تقليدي عكس الأنواع الحديثة المنتشرة في أرجاء الممالك، كل هذه اللحظات ظل ناصر كاتما اندهاشه من اجل فحص الشخص الواقف قدامه، متجاهلا النباح المستفز.

سبقة الرجل الذي فهم ناصر انه صياد بلا ادنى شك، حيث قال الصياد بصوت أجش:

- أعرف ما يخصك وابتعد عن ما لا يخصك.
- فهمت انه كلبك او حارسك الذي يعينك في الصيد...
- كلبك؟!.. توقف عن لفظ الشتائم هنا في مكاني.

لاح شبح ابتسامه ناصر قائلا:

- الارض للجميع، يا سيدي.

شد اوتار قوسه مصوباً ناحية الصلعة ثم أطلق نحوه دون تردد، وعلى الرغم من علم ناصر أن الصياد شد الوتر بلا سهم في يده غير انه ارتجف ظاناً سيموت من اختراق السهم لجمجمته، وحمد الله على توقف الكلب عن النباح.

ابتسم الصياد ببشاشة ثم قال:

- المرة القادمة سأستعمل سهماً حقيقياً لا الهواء.

أخرج زفيراً مطولاً ليردف بنبرة أخف قليلاً:

- لا أريد سماع مقولتك أمامي مجدداً.. تذكر تحذيري أولاً فلن يشكك فارقاً عندي إلا أن سهمي العزيز سيكون لك بالمرصاد.

- لماذا غضبت؟

تمكن الصياد من سماعها رغم أن ناصر نطقها بخفوت فأجاب على مضض:

- الوطن للجميع، أو قل لأسيادكم.. أما الأرض فله ثم للمالكين فقط.. لا يجدر لأي غبي أرعن يريد العيش طويلاً وطأها.. إنها ملكيتي.

{ صراع الأراضي فيما بين الصيادين، أه! سمعت الحكاية عدة مرات لكن لم أصدقها }، طرد عن رأسه المندي عرقاً فكرة إعطائه برميل من النوع الذي سيختاره لكي يتجنب القتال، وفي نفس اللحظة ظهرت فكرة لخصها: { أين مطرقتي اللعينة؟! }.

بشكل مبالغت مخالف أشار الصياد بيده الى خلف ناصر ثم قال موضحا:

- استمر يا بطل في سبيلك.

وصفر لكلمته منطلقا الى حيث أتى كما تفاجأ ناصر بحمل الكلب المتوسط حجما للسهم عن طريق فمه ليركض خلف سيده متحمسا، وظهر له من بعيد شخص رفقة حيوان منسجمان في اتزان لم يره أبدا في أي إنسان.

عاد لعربته وخلال الطريق ظل باله منشغلا بالتفكير فيهما حتى بلغ كومة أوراق الشجر مكونة قبة خضراء فوق صخور حمراء ملونة، اتجه بعربته الى اسطبل ضيق تخفيه أغصان الأشجار المنحنية له وعليه، وبعدهما وضع للدابتين مأكلا ومشرب سار في اتجاه القبة ملقيا التفاتة يمينا وأخرى شمالا من ثم ارتدى محتضنا الشجيرات النابتة فوق الصخور أو موضوعة من طرف ناصر فاخترقها ملصقا جسده في التراب الموحد لينزلق غائصا في العمق ولو كانت الرياح تجد سبيلا الى الممر للفحت وجهه مما سيزيد من حماسه عكس رتبة الأمور بالنسبة له.

بعد برهة سقط على كومة قش مغطاة بحصيرة مجزة الصوف لئلا يؤذي وجهه أثناء الوقوع، نهض نافضا عن ثيابه ما التصق به من وحل بني وأوراق خضراء فتوجه الى برميل حملة وسكبه على نفسه، وبدل ملابسه بسرعة ليدلف غرفة مفتوحة، قام في داخلها بإعداد وجبة شهية وساخنة تعينه على الجوع المتراكم عليه طوال الرحلة.

أتم أكله اللبِق والرزين، وشربه المتزن لشرابه
البارد وأكله لكمية قليلة من طيور السمان فأعدّ منها
أخريات مضيفا وجبات أخرى وغدت الأطباق جاهزة
للأكل بعد تسخينها وملئها بالتوابل حتى صارت طعام
مقرمش كاد ليلتهمه كله تماما كما اعتاد فعله مع باقي
حيواناته الأليفة، ومع الوقت تمكن من ضبط نفسه
وكبح شهواته البطنية، فلما انتهى من التحلية طفق
يقتحم غرفة مغلقة تلو الأخرى ليضع الاطباق ويغادر
صوب المطبخ فيعدّ وجبة ثم يقتحم غرفة وهكذا
دواليك.

لم يهتم بالتساوي في الطعام أو حتى إطعامهم وجبة
واحدة، المهم عنده هو إيوائهم وإشباعهم، فمن ناحية
الإيواء بنى لهم عريضة وطويلة من الأرضية إلى
السقف المثبت فيه فانوس للإضاءة يستلزم الوقوف
على كرسي لإشعاله لكن الأمر يستحق العناء من أجله،
وفي كل غرفة نافذة متسعة لا تملك قضبان حديدية
وتطل أغلبها على المحيط اللازوردي اللامتناهي
ففهموا أنهم داخل جرف لا يغدو أن يكون هار.

حاول ناصر وضع قوانين توطر حياتهم فما فُرح إلا
في تحديد قانونين بسيطين: (لا للعلاقات الحميمة، لا
للخصومات التهديدية).

رغم اعتباره للقانونين متناقضين غير طمأنة نفسه
بكونهما تحدي وامتحان سيكافأ فيه بالبقاء ويطرد من
خفق فيه، وصل دور الغرفة الأخيرة التي اقتحمها غير
مبال بإنزعاج المقيم أو لا، ولا يهم الأمر ما دام
يطعمهم وحينما يكون المقيم مختفيا مما اثار شكوك

ناصر: { أنى له الاختفاء.. أين يكون قد هرب؟!.. مستحيل، فلا يوجد مخرج سوى هذا الباب }.

قرر رفع نظره للأعلى عسى ان يجده معلقا ما بين الجدران الضيقة تصاعديا كهرم، وفكر في تنظيف السقف الذي بدى مكسوا بالطحالب الخضراء المبتلة وهو ما سيؤجله لاحقا.

اقترب من النافذة مستقبلا لظمة رياح جعلته يلتفت بغتة ما إن سمع صوت جسم يقع على الأرض بعنف، فانفجر ضاحكا على الموقف وعلى نفسه لغبائه حيث فتح الباب وإصاق المقيم مع الحائط، فهدر مقهقها:

- آسف جدا.. هاهاها!.. أعتذر بشدة، يا معاذ على قسوة اقتحامي.

حمل جسده واضعا إياه على الفراش ثم قرب وجبته ليغزو الدخان المنشق عنها فتحتا أنفيهما، شعر بالقلق لفشل طريقة إيقاظه فهو يخال الجميع ينتفضون فور شمهم رائحة طعام شهى.

كان معاذ محافظا على ملامح شاحبة وشعره المنتفش كأنه ما زال متأثرا بالحادثة القاسية فرفض لحد الساعة إخباره عنها، وكذا احمر أنفه إثر الضربة التي تلقاها منذ قليل فتحسس ناصر قفاه راجيا عدم إيجاد قطرة دم واحدة ولم يخب رجاه.

بدا معاذ شبه ميت لا من الداخل ولا من الخارج، لو كان ناصر يعرفه قبل الحادثة لتعجب من سلوكه الانطوائي أكثر حيث انعزل عنهم طوال فترة مكوثه رافضا الحديث أو إبداء ردة فعل شفويا، ربما حتى وإن عُرز في جسمه سكيننا فلن يصدر منه بنت شفة، ولقد حاول السمين تجربة ما يقارب ذلك لما قدم له مشروبا

ساخنا بل حارق فاستحالت حمرة لسانه الى سواد قبلما يعود لطبيعته لحد ما بفعل مرهم لا يعلم مكوناته سوى البائع.

أغلق عليه الباب تاركاً إياه يرتاح بيد أنه لم يبذل مشقة تستدعي الراحة غير نوي ناصر إعطاءه راحة بال لا غير، وتمتم معاذ قائلاً:

- بدر

فكان ناصر يجيبه دائماً:

- نعم، صحيح.

لا يعرف من هذا الشخص وما سبب نطقه له كل يوم، وكل ليلة يصرخ باسمه فيعتبره ناصر يمر من كابوس وحسب ثم يخلد للنوم، وخلال قيلولته فاق فزعاً لصراخ معاذ باسم ذلك الشخص ثم عاد للنوم كما جرى في ليلة البارحة، ولكن هذه المرة حلم أنه يمشي وسط غابة محفوفة بالأشجار الباسقة، جذوعها تلتف حوالها وشائج كما تتدلى وشائج سوداء من فروع الشجر.

يسير ببطء شديد في دائرة حول موقد مشتعل تحيط به ثلاثة صخور صلداء كبيرة بما فيه الكفاية ليتخذها شخصان مقعداً بما فيهم كلب مفترش الأرض المغطاة بعشب برّاق يجاور فتاة رشيقة وشابة ليست بالقصيرة او الطويلة جداً، قبالتها رجل لا شك أنه صياد..

- إنه هو!..

بمجرد نطق ناصر لكلامه رفع هو سبابته الى فمه لافظاً صوت خافت: (ششششش!)..

الآن أحس بعدم تحكمه في ذاته فالشخص الواقف والحائم حول الجالسان كان يرى انطلاقاً من عينيه، يشعر بما يشعره ويفكر ما يجول في ذهنه.

أخيرا جلس الشخص على مقعد صخري يلف حول جسده رداء ملون بمربعات حمراء وبيضاء تتوسطه وردة، واستطاع رؤية الرداء كونه طرد من ذات صاحبه محلقا في الهواء ليدفع نفسه دانيا الى وجه الشخص لعله يتعرف عليه.

قد بدا الشخص متقد العينان السوداويتان مع شعلة نارية في الحديقة متجهم الوجه وفريد في ملامحه الحازمة تارة والباسمة تارة أخرى بخلاف وجه الصياد العابس ذو الجلد المتشقق الممتلئ تجاعيدا بينما للشخص سحنة رطبة ووسامة جذابة خصوصا بتسريحة ذيل الحصان للأسفل المعتمدة من طرفه دائما، شعره الأحمر الطوي في حين يسود للأسفل ما يزيد من بريقه عبر ضوء الموقد المشتعل والمسائط عليه.

تمعن النظر فيه وتعمق في تفحص قسّمات فكّيه وخديه الملتصقان بالجلد والعظم، ثم اتى ذكر اسمه على لسان الفتاة ذات اللون الأسود اللامع بامتزاجه مع زرقة عيناها الواسعتان، فقالت بصوت يشوبه زعيق:

- متى سنغادر، سيد بدر؟

ردا فورا بصوت رخيم:

- لا داع لذكر اسمي مرفوق بتلك العبارة الذليلة..
وسنغادر عندما أنتهي...

وأسرع في استئناف كلامه قبل محاولتها مقاطعته للاستفسار إذ تنبأ لسؤالها حسب السياق فأردف قائلا:

- ... أنتهي من التعقب.

تلاقت نظراته مع شبح ناصر الطائف ليقول باسماء:

- لست ببعيد عن متناولي أيها الضعضع!

جفل ناصر مستيقظا بعد خطفه لآخر لمحمة وهي مشهد الفتاة والصيد يستغربان من سلوك رفيقهما.

ارتشف الماء من دورق معدني منحوت عليه زخارف كعاداتها غير مفهومة، وقد استيقظ على أصوات المقيمين الذين غدو يصرخون فيه لإسكات همهمات معاذ المتكررة، فتوجه له بعدما لف رداء برتقالي مصوف حول جسده المتعرق يسيل على جلده المرتجف.

اقتحم الغرفة المدلهمة ولا حاجة له لضوء كونه يحمل فانوس إضاءته كافية ووافية ليضعه قرب وجه معاذ الذي ظهر تحت الضوء مختنقا لا ينفك عن التمتمة، بل ناصر منشفة ثم فردها على جبين معاذ وأيقظه قصد إرغامه لشرب الماء ولو قليلا فكان يرفض إطلاقا قبل مطاوعته في آخر المطاف.

ثم عاد معاذ الى النوم فحار ناصر بين إيقاظه مجددا كي يتحدث معه أم يذره في كابوسه الغير واضح معالمه، ظل هكذا يفكر فيما سيختار الى ان فتحت عينا معاذ الصغيرتان يصطبغ السواد ببؤبه رُسمت خطوط ذهبية دائرية في القزحية وخط ذهبي عريض حول البؤبؤ، ابتسم له ناصر ابتسامة شبه مكرهة غير أنه خاطبه بلطف لم يجده مع أمه، وقال مازحا:

- من الآن فصاعدا سوف أنام بجوارك.

كم مرّ على صوم معاذ عن الكلام، ليس بالوقت الطويل، قرابة يوم فمنذ لحظة مراقبتهم المشهد البديع فوق جرف هار كهذا الذي هم داخله الى الوقت الحالي لم ينبس معاذ حرف واحد ما عدا تكراره اسم الشواحي.

فكان ناصر يغسل الاطباق مرحبا بأشعة الشمس
الغازية للجدران التي اصطبغت بالبرتقالي اللون
المفضل لديه فملابسه إما بنية خافتة أو برتقالي داكن.

بعد هنيهة صفعته ذاكرته منبهة إياه بعدم نسيان
البراميل الملونة، كما أراد طبع ذاكرته بضرورة
استبدال تاجر المشروبات البخيل والنصاب في آن
واحد، فقد نجى بأعجوبة ذلك اليوم الذي كان اشترى
فيه الخمور والمياه والعصائر المسكوبة في البراميل،
وخلال طريقه للوصول الى هنا لكي يفرغ بعض كميات
المشروبات عنده ثم يعطي الباقي الى الجماعة.

قابل القائد بعيد التقاءه مع معاذ، ولو ان السيد ملهام
سأله عن ثمن ما اشتراه لكان عاقبة ذلك أمرين لا ثالث
لهما، حرقه مع عربته أو حرق التاجر وسط محله.

قارن بين بخل التاجر وبخل الأخل الأكبر محفوظ
ملهام ليخلص الى ان الثاني حطم الاول ومسح به
الارض من ناحية البخل إذ صار الأخ الاصغر كذلك
يقتصد على المال، بل يطالب بخفض الاثمنة من أجله
على منوال خشن.

البراميل ثقيلة بعض الشيء تجاه شخص واحد قرر
حملها، أما مع رجل محب لاختصار الأعمال باستعمال
الآلات سوف يفعل أي شيء يقوده نحو صنع آلة مكونة
من خزانان نحاسيان واحد في الاسفل داخل الملجأ
والآخر هنا في الأعلى.

أفرغ كمية لا بأس بها من كل برميل على الخزان
العلوي المتوازي وراء الشجيرات، ويرتبط الخزان
بنظيره في الاسفل عبر أنبوب من خشب الخيزران
يخترق التربة ليصل ما بين الخزائين، وبعد الانتهاء

من العملية بسلام لم أغراضه واضاف هذه المرة
مطرقته الحربية صاحبة الرأس المربع الأصلب من اي
حديد، فهي حديد مصقول لا يتوفر على اية زخرفة أو
خربشة قد تغيظ ناصر الغير الراغب في مثل هذه
الأمر التافهة بالنسبة له.

غطى نفسه بسلهام يمتلك قانسوة برتقالية داكنة من
صوف الحملان لها أزرار تربط في الصدر فقط ولديها
فتحتان يخرج ذراعيه منهما، تحت الرداء يرتدي
قميص جلدي بني داكن، ويتوسط البراميل قفص
خشبي واسع يتمتع فيه الخنزير بقلولة بعد وجبة
دسمة.

ثم انطلقت العربية مخرقة انحناءات الأشجار
والغبار الهادئ يتناثر بانسيابية في الأرجاء، وأفضل ما
في الأمر العبير الزاكي للأنوف يصدر منه الزهور التي
تعد ألوانها بتعدد ألوان البراميل.

تحت ظلال الأشجار الوارفة منها أغصان تحمل
برتقالة صغيرة وأخرى تمسك أزهارا حمراء قانية، لكن
فرع غليظ واحد يجلس عليه رجل صاحب ذيل حصان
أعلاه تطأ جذع رقيق فتاة نحيفة يلقيان النظر على كلب
مختلفي وسط الأعشاب يجاوره رجل عريض يبدو من
الأعلى متوسط الحجم ماسك قوس مسدد صوب
السائق.

في كل مرة يرمق الشواحي منتظرا إشارة الإطلاق
وقد تأخر الأخير في إعطائه حيث ابتعد ظل العربية
خارجا عن نطاق الصيد فانطلق عوض السهم كلمات
خافتة داعبت أذنيه:

- سيد بدر!.. هيا أشر إليه للإطلاق.

- رويدك لا نضمر الأذى له.. ما نقوم به الآن سوى احتياط حذر ان يكون برفقة رجال يحرسونه.

كانت على خلافه لا تزال بخفوت رغم غياب شبح السائق مختفيا عن الأنظار، لتقول له:

- إذا تعقبك لا يشمل معرفة ما يحيط المكان أو على الأقل ولوج المخبأ.

قهقه على كلامها بصوت عال سمعه من في الأسفل فقال جاهاً:

- إنما أنا بشر مثلك.. حقاً؟

- حقاً!.. البشر مثلنا غير قادرين على تتبع المرء داخل أحلامه.

- ما هذا الذي تتفوهين به!؟!

- وكيف عرفت مكانه، أيها الشواحي فأنتم قوم غرباء دوماً تفاجئونا بقدراتكم.

- لا أعلم عن هذا بتاتا.

رغم أنها كانت تسأله بفضول وتخطبه بوقار لأنها مرافقته الجديدة، لكنه اعترض عن هذا الأسلوب ولعله اعتاد خداع معاذ لتأدية مهمته فربما لهذا الغرض عزم استرجاعه بمجرد ما نجى مازق العملية التي نجح فيها داخل أسوار العاصمة.

وكما أنه لن يتخلى عن الفتاة كونها من أنقذته أثناء هروبه بواسطة بيت الشجرة التي بناها أبوها لها قبل ربح من الزمن، فتسأله مختبئاً فيه على طول المدة التي كان حراس المدينة يفتشون منزلاً بمنزل عنه بعدما فر مغطياً رأسه كاملاً.

تفاجأ برغبتها الجامحة في مرافقته وتكسير رتابة حياتها، وهو أمر استقبله قائلاً بحماس:

- ومن هذا الأحق الذي سيرفض؟
تجاهل كلامها الموالي الذي أحس بقدومه فور لمح
شفتيها تتمللان فألقى جسده هاويا على الأرض حتى
هبط ثانيًا ركبته القادحة الأرض وقدمه الأخرى
مضمومة قيد انملة الى كتفه، كان ذلك دون صراخ أو
ضجيج يخلق دوامة غبار.

بينما سقطت الفتاة واضعة قدميها على ظهره ثم
اندفعت للأمام في شقبة عمودية لتبلغ الى نطاق عينا
الكلب حيث هبطت بوضعية مشابهة لبدر ثم مسدت
شعر الكلب فجال في ذهنها معرفة اسمه، فسبقها
الصيد متحدثًا:

-قطمير، لنتحرك.

- آه، هذا هو سؤالي بالضبط.

اطاعه قطمير سائرا في سرور فيما استدارت هي
على أهبة استكمال طرح أسئلتها نحو سيدها الذي كتم
ضحكه قائلا:

- قطمير!.. واهاهاهاه!.. هذه المملكة غرباء الاطوار
في مسألة الأسماء.

كان السهم موجه إلى جبينه في لمح البصر فقال
حامله بنبرة حانقة:
- كرر ما قلته.

- اسم جميل سوف أحفظ به لكي أسميه لابني إذا
توفقت في الزواج.

- مثلك هم من يرفعون معدلات الطلاق، خاطب زوجتك
هكذا ومازحها بتفاهتك وستجد نفسك بلا مأوى أو
طعام.

هزهز بدر رأسه قائلا:

- صحيح، أصغي لمن خاض نفس التجربة ولا تصغي إلى الخبير.

فانطلق السهم حيث ظل بدر منتصباً في مكانه لا يتزحزح ولن لم يحول خنجر الفتاة بينه وبين النصل لكان قد ودع حلم الزواج. أبدى الصياد اندهاشاً من رشاقة السمراء التي استلت خنجرها المخروطي رافعة إياه للأعلى فصدد هسيس السهم وحرف مساره صوب جذع الشجرة التي كانا قد تسلقناها.

وقف الثلاثة أمام الصخور الحمراء الواقعة تحت كومة أوراق الأشجار فقال الصياد مخاطباً بدر:

- متأكد أنه خرج من هذه الحفرة؟

- متأكد أكثر من يقيني حول جنسك.

ثم ألقى له ابتسامة استقبلها يرفع إصبعه الوسط تجاهه بعدما حجب بيده الواسعة الرؤية عن الفتاة التي تحول بينهما، ويتجول الكلب وراءهم يلهو بعض جذع السهم.

أحست الفتاة يد قادمة من يمينها تلامس ظهرها ثم تدفعها لتخترق الوريقات وتنزلق على بطنها طول الممر السفلي وحالفها الحظ لما تمكنت من إلقاء جملة تعبر عن غضبها قبل وقوعها: { تبا لك، سيدي! }.

صفع الصياد قفا بدر قائلاً ممتعضاً:

- مجنون أنت.. وأنى لها معرفة شكل ذلك الفتى إذا قابلته؟

تحسس مكان الصفة بأريحية وقال على نحو بارد:

- فلتعتمد على وصفي له، ولنعتمد على الحظ.

ثم توجه إلى الكلب فحمله بصعوبة نظراً لحجمه الثقيل مما علق ساخراً على مولاه:

- الناس جوعى في حين يستطيع كلبك إطعام الجميع.
صاح فيه زاعقا:

- اتركه!.. أولا لديه اسم ولا أحد يمسه سواي.. لولاي
لما استطعت إيجاد هذا المكان وأنت تستغل الأمر لتظهر
نفسك صاحب قدرات تسحر لبّ الفتاة حتى تجعلها
طائعة خائعة.. فاتركه وإلا سوف اغادر وأدرك تتخبط
في مشاكلك.. كما انه لا توجد مرافقتك لتصد رميتي
ثانية.

زفر بدر يلوك أسنانه ثم غدت نبرته متهكمة أكثر
ومستخفة:

- سوف!.. الصيادون يسوفون يا جماعة.. انظر كم
صرت لطيفا بعدما كنت تهددني بأسهمك الرديئة في كل
مرة أفعل ما يخالفك على حسب ظنك.. والآن أنت
مضطر للحديث معي هكذا كوني أحمل.. ابنك.
ألقى الكلب هو الآخر داخل الحفرة قائلا:

- مبتغاي إرسال مساعدة لطيفة للفتاة، نيتي نبيلة، ايها
الحصان.

واطلق صهيلا مزعجا قبيل قهقهته وقبل ان يجد
نفسه يقبل العشب والصياد يطأ ركبتاه فوق ظهره قائلا
يصك أسنانه من الغيظ الممتزج مع نشوة تأديبه:

- لست صديقك أو حبيبك لتخرج فيّ شذوذك المكبوت
ولا أعرفك أصلا.. تصادف أننا نريد نفس الغزال
ولتجنبني القتال الهمجي عن سيملكه وهو نزال كنت
لأفوزه مغمض العينان.. تشاركناه فهناك عند الموقد
بعد انتهاءنا من الطعام كانت نهاية الطريق بالنسبة لنا.

لا يستوعب بدر كامل حديثه حيث انه منشغل مع الم
ظهره وملوحة العشب المبتل، فاستأنف الصياد يكرز

أسنانه تحت عيناه الجاحظتان حتى تكادا ان تخرجا عن مقلتيه:

- وتذكر قبول معاونتك في تعقب آثار ذلك السمين باتباع أثر عجلات عربته انطلاقا من المكان الذي قابلته فيه أول مرة، ولم أتكبد عناء سؤالي عن من يكون أو ما سبب رغبتك في إيجاده.

- توقف عن استرسال ما حدث.. لست جدتي لتحكي لي خرافاتك، تريد مني شكرك فدعني أنهض لأشكرك بقوة.

هم بالنهوض فخبطه الصياد مع الارض ليخلده وقال:

- مصيرك أنت هو الثرى فابقى ملتصقا فيها خير لك من مزاحمة الكبار.. لم يعد يبالي أحد بأهمية ما تقومون به أو عدم أهميته.. بل أنتم مضية للضرائب وحمد لله أني لست من الحضر لاضطرت الي قطع لحمي لتسديد راتبك.. شواحيون ملاعين مسرفين.. صدعتم رؤوسنا أن دوركم فقط هو حماية القارة من أي عدو خارجي ولا تعبئون بصراعات الممالك..
دنا من أذنه اليمنى هامسا:

- ..إنما انتم العدو الخارجي.
- كيف لبربري مثلك ان يعرف دوافعنا وحقيقة الصراعات الداخلية.
- ماذا؟

- قلت انك لست من الحضر.. انت همجي إذن.
أمسك شعره رافعا راسه ثم ضربه مع الارض زهاء ثلاثة مرات من ثم نهض عنه يحملة ويلقي به داخل الحفرة فاخفى صداعه بعيد لحظة، ايضا حاول الصياد

إدخال نفسه لكنه تعثر مما سقط على ظهره إذ كانت
قدماه ترتفعان وتتجرفان مع التربة لدرجة تلوى كاحله
وسقط على القش لا عنا كل من عرفهم في حياته كلها:
- تبا للكلب، سحقا للفتاة، تبا للشواحي، تعسا ليبيي!.

تحسس كاحله الأيسر الملتوي فعدله مصدرا فرقة
عظامه واستطاع السير بشكل سليم بغض النظر عن
ترنحه لكونه لا يزال يشعر بالمها: } هذه المرة سوف
اتسبب ببتها بلا شك }، تجول في الردهة الضيقة غير
إضاعتها بفعل بزوغ الشمس التي تخترق فتحات
التهوية الدائرية، مارا عبر صف الغرف ذات الابواب
المعدنية الصلبة في منتصف اعلاها فتحة مربعة فيها
قضبان يطل منها أطفال صغار وفتيان وغلما ن ذكورا
وإناث، معظمهم كان فاغرا فاهه واللعاب يسيل منه
فيما بدى القلة طبيعون.

وصل الى آخر الغرفة مفتوحة عكس البقية لم يجد
مانعا من ولوجها وتحفز لا سيما بعد سماعه نباح
رفيق دربه الوحيد المتحمس فدلفها يحضنه كأب
يحتوي كيان ابنه في حنان وود شديدين بينما جلست
الفتاة على طرف السرير مع بدر.

حافظ معاذ على هدوءه المريب ما بين أعين
المتشرفين لحالته، فيما ترمقه الفتاة بشفقة ينقره بدر
في صدره قائلا:

- ها نحن التقينا مجددا.

قال معاذ دون أن يلتفت إليه:

- أجل، قدر لنا اللقاء في هذه الحالة المزرية.

- لا، لا، لا تقل هكذا.. بالعكس.. اجتماعنا هذا أفضل
بكثير من.. الاول.. أتذكره؟.

كان يشعر بالعياء واغلق عيناه يستعيد بعض أجزاء من حديثهم الأول ليقول في سره: { آنذاك كنت أبله }، ثم التفت يمينا الى بدر قائلا بنبرة أحد:
- جئت لتلقي عليّ أكاذيبك ثانية.. أم أردت التعبير عن ندمك أمامي؟..

قبيل انتظار لردّه ألقى نظرة خاطفة إلى الفتاة واستقبل كلام بدر بامتعاض:

- لا نحاسب الناس على الماضي، انسى ما جرى وقتئذٍ والآن لنعقد اتفاقا على الصدق عبر الـ...

- ماذا فعلت في المدينة؟.. لقد كاد ان يمسكني الجنود لظنهم انني الفاعل لما قمت به..

تدخل الصياد الغير العابئ بالحديث خلاف المرافقة، فقال:

- من الأحسن أن نخرج من هنا حالا وأكتملا حديثكما في مكان مغاير..

بمجرد انتهاءه صدر صوت خارج الغرفة قائلا:

- رفيقك معه حق..

وأردف حينما ظهر لهم:

- فلتكتملا حديثكما خارجا.. ولا تزعجا حيواناتي الأليفة!..

نطق آخر جملة أثناء رفع مطرقة هاوليا على جمجمة الصياد، في غضون ذلك حال بينهما فم الكلب يفتح عن آخره ثم يطبق على جذع المطرقة وهي تشارف لمس شعيرات الصياد الشيباء، أخذ رفيقه يعضض المطرقة كشريحة لحم ممزقة وصاحبها السمين يلهث جاهدا في تخليصها من عنجهية الحيوان

المتوحش الى ان لمح مولاه يشد أوتار قوسه فارغم نفسه السماح في معشوقته ريثما ينجو أولا.

فور خروجه من الغرفة تبعته الفتاة كقطة خفيفة الظل تقفز من جدار الى جدار إذ تستعمل سكينان في كل من يديها ومقدمة خفيها الأبيض الصغير تغرزهما في السقف لتتسلق لذلك سبقته في الوصول الى المدخل وحطت قاطعة طريقه ليتوقف عن الركض هلعاً، فحدقت صوب حاجباه السواداويان ملوية عنقها وراسمة ابتسامة قد هزمها في خلق أخبث واحدة شاهدها على الإطلاق أضاف اليها قوله اللاذع:

- أن يكون ذلك هو طريق المدخل لا يعني أنه نفس المخرج، أيتها القطة العنيدة.

من خلفه ظهر الصياد مصوباً تجاه ظهره رفقة بدر يحمل فوق ذراعيه جسد معاذ المتهاك وعلى الأرض تستقر قوائم الكلب المزمجر حيث يحاول مطابقة غضب صاحبه. أخرج ناصر رزمة مفاتيح من جيب موجود داخل سلهامه البرتقالي المطرز بخيوط بنية خافتة ثم القاها ناحية الفتاة لتلتقط الرزمة بفمها وهو يقول راسماً ابتسامة المرتبك:

- هاك مفاتيح الغرف لكي تحرري هؤلاء المساكين.
انتقل نظرها الى بدر منتظرة رده بخصوص الأمر خاصة ان السمين فعل ذلك دون ان يطلبوا منه مما أثار شكوكها، لكن بدر أوما برأسه موافقاً فلم تجد بد من السكون في مكانها، ففتحت الغرف بأسرها في لحظة هادئة ومتوترة.

في الاول شعر الأطفال والغلمان بالحرص عندما ترددوا في الخروج إليهم وشجعتهم الفتاة المناهزة

لأعمارهم تقريبا غير أنها الأكبر وأصغر من معاذ بسنوات قليلة، فالأخير رغم بلوغه مرحلة الفتوة يظهر حجمه صغيرا وطوله قصير جدا بالمقارنة مع قامته الفتاة الفارعة النحيفة الرشيقة ذات شعر أسود فاحم مموج بالبياض عقدت ضفائر للخلف كذيل حصان متشبهة بتسريحة بدر.

الأطفال الأوائل الذين لمّوا شتاتهم ليقفوا قرب المطبخ المفتوح، كانوا طبيعيون وهادئون، ثم أتى دور البقية ذوو الهياكل المخيفة من حيث أعينهم الدامية وخدودهم الموسومة برمز دائري نقش فيه عين مغمضة تحت حاجب كثيف، وحظي الرمز بلون رمادي قاتم..

.. استغرق للصياد وبدر والفتاة فترة طويلة حتى يتفحصوا وجوههم المكفهرة بإمعان شديد، كما استفاد ناصر من شرودهم ليخطو للخلف بتريث ويسند ظهره الى لوح خشبي طويل ملتصق بالجدار فضغطه بظهره فدار معه دالفا ما وراء الجدار في حين ظل اللوح قائما كما كان، وفهم ناصر أنهم لم ينتبهوا لأمره من خلال طرح تساؤلات مبهمّة تكشف نبرتهم الباردة عدم ملاحظتهم لغيابه.

واكمل ناصر طريقه قائلا في فرح غامر: { كما فاجأتهم بالدخول عبر هذا المدخل الاحتياطي فسيتفاجأوا أيضا لمغادرتي.. إذا كانوا يتجسسون عليّ.. كيف وصلوا اليّ؟!.. آه لو رأوني اصعد للأعلى عن طريق هذا الممر حينما كانوا يراقبونني.. تبا لخطتي الفاشلة فهذا أنا فقدت أولئك الحيوانات البريئة قبل انهاء تجاربي عليهم جميعا.. لماذا لم اطلب

مساعدة قبل اقتحامي لهم؟.. أو على الأقل أفاجمهم
بخطبة محكمة عكس ارتجالي ملقيا كلمات سخيفة.. لقد
ظننت أنهم سينفجرون ضاحكين.. كذلك تأخرت عن
الذهاب الى القائد، وكذا خفقت في محاصرتهم.. سحقا
لي!..

كان سيره تصاعديا تعينه الدرجات الطبيعية المكونة
من انحدارات التربة صانعة معبر يقوده الى لوح خشبي
آخر اندفع نحوه ودار معه ليخرجه جذع شجرة الى برّ
الأمان، وما إن فتح اللوح قليلا حتى غزت الرياح
العليلة تجتاح المعبر للأسفل بعدما لطمت خديه.

على شماله برز المدخل الأول الذي استخدمه آنفا
فقرر حرق المكان عن بكرة أبيه، لذا ثقب برميل الخمر
لينساب السائل الأحمر الداكن لاعقا العشب من ثم امتد
الى الفتحة المتوارية بين الأغصان وأوراق الأشجار
والشجيرات، فلما فرغ البرميل بحث عن حجر صوان
متيقن أنه سيجده هنا غائص في الوحل أو مغطى
بالعشب غير أنه وجده داخل جيبه متذكر استعماله في
إشعال الموقد: {يا لغبائي كدت أنساك!}.

استل سكيننا قد خطفه أثناء وجوده في المطبخ
محاصرا ثم أخذ يشحذه بالصوان مرة، مرتين، وفي
الخامسة تباثرت شرارة ما فتئت أن تتلاشى بمجرد
سقوطها على السائل، هكذا قرفص لافارداءه للخلف
حتى لا يتسخ بالتربة وشحذ للمرة الأخيرة فتولد عن
ذلك شرارة تحولت الى لسان برتقالي واصل التمدد
مخترقا الحفرة ولاعقا الخمر على طول الحفرة نحو
كومة القش التي انتقل إليها بعدما أكلت النيران الغطاء
الصوفي.

تصاعد دخان اسود هائجا في الهواء يحوم حول نفسه كدوامة سوداء يتخللها البياض ثم يصعد مائجا بعثو الى ان انفجر مندفعاً نحو كل النواحي. تحت طاولة بمنتصف المطبخ كتم ثلاثة أطفال أنفاسهم ليس تجنباً للخنق، وإنما اتقاء شر البقية المخيفين في حين أغلق بدر والصيد رفقة الفتاة والكلب عليهم الباب في غرفة معاذ الملقى فوق سريره.

بعد برهة بلغهم الدخان فخلع بدر عباءته ليحشو فتحة الباب حتى لا يجد وحش الدخان منفذا إليهم، والتفت بدر صوب الصيد مرتبكا وقائلا:

- أليس لديك فكرة عمّا قد يكون فعل ذلك السمين مع هؤلاء الأطفال.. لماذا هاجمونا هكذا كضباع متعطشة؟!.

- أطبق فمك لكي لا يسمعونا فيقتحموا الغرفة فلا أحد منا بقادر على إيذاء أطفال.
صاحت الفتاة فيه:

- كنت سأموت آنذاك بسبب ترددك في إرداء أحدهم.
رد بحنق:

- أفضل الموت على قتلهم.
- إنهم ليسوا بأطفال بعد الآن.. أصبحوا وحوش صغيرة أو بالأحرى شياطين يبدون برئاء من ثم يستحيلون إلى همج.
قال بدر ساخطا:

- هم فقط خاضعين لشيء ما.. لا تناديهم بالشياطين.
انفض الصيد متشبثا بحافة النافذة يكرز أسنانه مستعرا:

- ذلك الاحمق اختفى ببساطة.. لقد استغل اندهاشنا في
بحلقتنا اللامتناهية.

كان الصياد مليئاً بالجروح جراء اشتباكهم مع
الأطفال ولم تتجاوز العضات مرفقاه وفخذه الأيسر، أما
الفتاة فخُطَّ جبينها دما كونها فقدت سكينها فاستخدمه
احدهم ضدها و لأوشكت أن تشق حنجرتها لولا تدخل
الكلب الذي صار أعز صديق لها، فلا الصياد رغب في
التسديد على احدهم ولا بدر ترك معاذ من يده ليدخل
في الاشتباك.

هي والكلب وحدهما وسط حشد هائج من الأطفال
كما استطاعت حينها خطف لمحة عن الفتاتين
الصغيرتان بجانب غلام أشقر يختبئون تحت طاولة،
فقالت مستغربة داخل الغرفة:

- هل رأى أحدكم أولئك الأطفال الذين بدو طبيعيون؟
هز الصياد رأسه نفيا فيما فضل بدر الصمت أما
معاذ فكان شبه حاضر معهم ولم يتبقى لها سوى الكلب
أطلق نبح ورمقته شذرا ثم قالت مستأنفة:
- ينبغي إنقاذهم قبل ان يصلوا إليهم أو يخنقهم الدخان
الكثيف.

نطق بدر كلماته في بضع:

- ما يعني.. أنهم. سيموتون في كلتا.. الحالتين.
- صحيح، ولكن لا يعني أننا سنكتفي بالمشاهدة
وحسب.

- الباب خلفك، تفضلي.. لن أمنعك.

وبالفعل تفضلت تاركة الغرفة بسرعة وإثر غلقها
الباب سقطت العباءة فما انتبه لها من في الداخل،
أصقت كم قميصها الجلدي الأسود ذو النتوءات

السطحية في أنفها مخترقة بحر الظلام وسودة الدخان، فكرت التسلق تحت السقف بيد عدم رؤيتها لأي جدار من شدة حمرة عينيها بفعل الدخان الذي تمكن نزر منه ولوج جسمها مما أقعدها أرضاً.

أحست في جسمها زلزال من السعال الحاد لفظته كاملاً ثم رأت جثث الأطفال الهائجين جميعهم ممددين على الأرض فلا تعرف إذا كانوا متوفين، زحفت على مدار طويل تارة تصطم بجدار فتعدل مسارها، وتارة أخرى تبعد عنها الجثث أو تزحف فوق أجسادهم لكثرتهم.

أمامها دعائم الطاولة وتحتها الثلاثة مغمون حسب ظنها فاتجهت نحوها ولما بلغتها همت في الزحف للأسفل واضعة مرفقها الأيمن ثم الأيسر واندفعت لتعيد وضع مرفقها الأيمن ثم انخلع قلبها هلعا عندما شعرت بالبلل في بطنها ومرفقها، ولمست سائل ثخين فرفعت رأسها لتجهد نفسها على رؤية ما تقابله حالا، وما كان قبالتها مرعب أكثر من وجوه الأطفال المخيفين: { ليسوا مغمون.. رباه! }.

غدت وجوه الثلاثة ممزقة ومظلية بالدماء أما أجسادهم مفتوقة فتأوهت الفتاة كأنما تشعر بألمهم ذارية دمعة تسكب سواء كانت جراء شفقتها أو جراء الدخان. على كل حال اغرورقت بالدموع قائلة:

- أنا آسفة، تأخرت، آسفة جداً.. لماذا فعلوا بكم هذا؟!..

نبرتها باكية موجهة رفعت رأسها الى الأعلى فنظرت صوب السقف المتهاك يصدر أزيزاً معلناً عن وقوعه، لم ترغب في النجاة صرخت متحدية له ومستعدة للموت: { أنى لي العيش في عالم لا يفرق بين امرأة

ورجل، عجوز وشاب، راشد وطفل، خير وشرير، أهل الحق وأهل البطل حيوان أليف وآخر متوحش.. يفرقون فقط بين الأبيض والأسود، السيد والعبد، القوي والضعيف.. حتى لو عشت... {..

تشقق السقف أكثر فأكثر وبدأت صخيرات تتهاوى كمطر هتون يحمل معه غبار شبيهة بالرياح العاتية تلطم الخدود مهما كانت بيضاء أو سمراء: {...فسأعود الى منزلي الكئيب أعيش حياة التمر والخنوع.. كما يقولون عندنا في مملكة الأخضر واليابس الأذى والصمت أو هنا يقولون الضرب والسكوت اي تقبله.. آاه! وقتئذ كنت اطل من سطح منزلنا اراقب الدخان الرمادي المتصاعد بشكل مضاعف من هذا.. ربما كان مصدرها محل الخمر يعود للرجل الثري المقرب من القصر.. عندما رأيت ذلك الشواحي يفر... {..

- آاه.. تبا!!

نطقها علنا كون صخور متوسطة هوت على بطنها وحجرة اصغر رسمت دائرة حمراء في جبينها، دائرة حمراء يخرج السائل الموحد من اجسام مختلفة سواء كانت بيضاء او سمراء: {...قلت في نفسي سأنقذه وألحقه.. رأيت فيه شخص يعيش الحياة.. هاهاه، أذكر لما اخبرته برغبتني في الذهاب معه قبل بحبور فخفت وتراجعت منكمشة فأمسك بتلابيبي قائلاً: " هذا العالم ليس عبارة عن مدينة ومنزل وعائلة ومرحلة الدراسة ثم الزواج ثم المنية.. العالم هناك في الخارج...".

.. نعم أذكر صراخه وهو يشير بسبابته الى مدى بعيد معتدل الوقفة كما أذكر تنمة كلامه: "...عبارة عن ممالك، محيطات، جماعات سرية او عنيفة، اطياف

وحلل، اقوام وملل، حروب ومعارك، تحالفات وخيانات، ليست مغامرة طفولية تحكيها لأبنائك.. ليست رحلة ممتعة ترويها للأجيال القادمة.. إنها معاناة، جحييم!.. اخبريني تريدين العيش في النعيم وغدا تتصدمين من تحول حالتك الى جحيم.. أم تخرجين الى الجحيم حتى تحولين حياتك الى نعيم او تمنعين عنها قدوم الجحيم.. أو إن لم يحالفك الحظ تكونوا قد منحت لأطفال آخرين نعيما " .. اجبته جامعة رباطة جأشي: " كلاهما " .. تبا له لماذا ضحك كطفل صغير يتقلب فوق الأرض؟!..

من تحت الأنقاض اخرجها بدر بعد إبعاد الصخور لحسن حظها ما زال بقية السقف لم يقع ما عدا اجزاء بسيطة، حملها فوق كتفه وانطلق بها كالسهم داخل الغرفة لكن قبل دلوفها استدار مفجوعا ناحية النيران الملتهبة ذكت وأخمدها قليلا وقوع السقف عليها متحطما قاذفا شظايا لتلتف حوله النار تتغذى عليه حتى تنهيه الى آخر شذرة ومذرة ولتعضها لم يكن خشب والحجارة تصعب تأكلها.

ظل محدقا في فزع خلال هيجانها ولما اختفت جذبته الصياد الى الداخل واغلق الباب يحشو الفتحة بعباءة الشواحي المكتسية بالغبار، كذلك ظلت الفتاة تحتضن صدر بدر لا تفارقه رغم دفعها عنه ودموعها منهمرة غير مهتمة ببغضها لحالتها فيما قاله بتحشرج:

- دائما احظى بمرافقين ناقصين.. غيري في المرة الاولى يحالفهم الحظ.. لعلت كما فعلت ميساء.. اكتفت ببغاء مزعج.. أممم.. لعلي يجب تجربة هذا.. أو، أو استعير قظميير.. هاهاه.. من قظموووور!

زمجر الصياد قائلا:

- اسمي ققطط.. تبا، عفوا.. ادعى عزيز.. لما نجلس
ونتحدث عن مدى خوفك من النار كفتاة مذعورة ولا
أقصد الإهانة.

أشارت له الفتاة غير مبالية حينما حدجها ثم اشاح
وجهه عنها صوب بدر المقرفص زاما فمه يتعصر
فأما عزيز برأسه نافيا يصدر نهيا:

- أأأأ!.. ابحت عن مرحاض آخر لا تفعلها هنا.

ولأول مرة يضحك مطلقا بحة فتعجبوا له وخمد
بدوره خلاف النار التي ثارت يغشى اللون البرتقالي
الغرفة ضاربا العباءة المحترقة ورقص فوقها بدر كي
يطفئها في حين تراجع البقية متفادين السنة اللهب
الدالفة من الفتحة، صاح عزيز:

- بدر!.. إياك ان تنظر أمامك.

أطفأ النيران عن ثيابه منشق دخان فحمل خرقتيه
متجاهلا صياحهم وكذا سخونتها فاستعر رافعا رأسه
صوب الفتحة تضخ النيران عبرها لافحة وجهه، فتح
فمه جيدا يتنشق الهواء المنتفخ لصدره المرتفع ايضا،
عينه اليسرى رمقت رفاقه فأخفض رأسه زافرا: هل
انا احمق افعلها امامهم {.

تنبهوا لذوبان الباب البرونزي، حمل الصياد معاذ
يضعه على الارض ثم حمل السرير يدفعه الى المدخل
فصد به النار وناداهم:

- تعالوا وساعدوني.. انت انسى عنك رداءك الحميمي.

كان السرير اقل حجما من عرض الباب فاندفع بدر
بالسرير خارجا من الغرفة ثم القاه راجيا إخماد الثائرة
كما فعل السقف قبل قليل بيد ان الهوجاء أكلته بشهية
مفتوحة. حمل الصياد معاذ وخرجوا جميعا الى سطوبة

سواد هزمته الحمرة التي تنفخ في الدخان ليزيد من اجتياحه، وبقيت بعض أجزاء السقف من زوايات ضيقة تنهأوى وتتهأدى فاعتادوا طقطقة الصخور المفتتة قرب أقدامهم كهطول مطر ناري.

تردد الصياد في الاستمرار وعلى وجهه اسوداد يزيد من غزارة عرقه. المكان كله ملون بالأحمر والبرتقالي بعدما خبى الأسود ما بينهما بشكل خافت غير مؤثر سوى في خنقهم، المدخل الذي جاءوا منه نشأ فيه جدار ناري ولما التفتوا ناحية الغرف رأوها كغنابر جحيم " تندورا " التي حكاها آباءهم عن قسوتها وخيبة من عاقبتهم هناك.

رفعوا رؤوسهم للأعلى في اتساق فراحت أوراق الشجر تتساقط عليهم وهي رماد يتناثر بمجرد وقوعها على الأرضية الرخامية التي صدت النيران لكنها لن تخذها.

لحسن حظهم يفضل ناصر المشي فوق الرخام أكثر من سماع قعقة الألواح الخشبية فور وضع حذاءه عليها لكانت النيران التهمت الأرضية بدورها كما التهمت الساريات الخشبية حتى ظل السقف بلا دعائم فانهارت أجزاءه تترا لیتسنى لهم رؤية السماء تحجبها أشجار اللزاب المنحنية والأخرى الهرمة التي أثرت فيها النار فتمزقت جذوعها هاوية عليهم، بعضها علق بين حذافير السقف فيما تمكنت ثلثة منها اختراق ثغرتة وإحداث عاصفة الغبار مع حمم بركانية وسحابة دخانية.

فكان هذا الضجيج عامل في إيقاظ غضب الدابة لما تطايرت النار على فروه فانطلق يعدو مذعورا حتى

اختفى وسط الأنهار الحمراء والشلالات البرتقالية لكن لم يمسه سوء من أيهما لصغر حجمه، فسُمع الصياد لوح يتكسر وهو نفس اتجاه ركض الكلب، ولصعوبة النظر اكتفى بالصياح يسعل خلالها:

- قظمير!.. هاااا.. أووح-وح.

كتم بدر ضحكته التي خفت عنه كونه ظل يرتجف وسط النيران يواجه كابوسه، وهمس:

- قظمير.. هاهاها.

لكن الصياد تنبه للأمر فالتفت إليه قائلاً بصوت منخفض لسطوة جليئة للشعواء ونفخات البخار الأبيض:

- أجل، اضحك في آخر أيامك.

اقتربت منه الفتاة قائلة مندهشة:

- أيقون قد اختفى عندما ركض إلى هناك؟.

- ربما..

- لعله نفس الاتجاه الذي سلكه السمين ليختفي عن أنظارنا.

- محال.

ردوده مقتضبة وجامدة، رمقته بنظرة استفهام فأردف موضحاً:

- ما هنالك سوى جدار.

وبالكاد سمعته حتى وهي قريبة عكس بدر الساهي يكابد من أجل بلوغ وشيخة تتدلى من شجرة عالقة وعندما أمسك الحبل يجذبه ليتأكد من تشبثه بالشجرة انقطع عنها ساقطاً على جذوة نار أكلته بنهم شديد فغدى لحم تذروه الرياح.

كما احتك قاع الشجرة وقمتها مع حذافير السقف
معلنة عن وقوعها هي الأخرى فتأخر بدر في التراجع
لورائه إذ سقطت على قدمه اليمنى. لم يتبها له حيث
خاصا في حديثهما حول حل المأزق، أما معاذ غاص
في سباته كأنه ليس في هذا العالم يستعمل ظهر الصياد
الصلب كوسادة متكئا على يد فوق أخرى بواسطة خده
الأيسر كونه اطمأن للف الصياد حوله عباءة الشواحي.

تشبه وضعتيهما مثل الأمهات اللواتي يحملن
أبناءهن عبر حمالة من رداء مختلف الألوان حريري،
وهي عادة خاصة بمملكة " سكورم " التي اشتق منها
اسم قرية في مملكة سيمريا الغربية بعدما تحالف
الاثنان وكهدية تقدير سمت سكورم أكبر قراها وأفضلها
بـ " سميريا " فقام الملك سيمر الأول بتسمية أفضل
قراه باسم مملكة حليفته وحسب، أدى هذا الى مشاكل
مع مملكة سيميريا الشرقية حول الاسم فتم حلها
بتسمية قريتين من سكورم بواحدة سيمريا الشرقية
والثاني الغربية، كان ذلك قبل بزوغ حربهما على
الحدود، ولكن لم تسمي الشرقية اية قرية لديهم
باسميهما بتاتا.

حتى بعدما فك بدر عقد حذاءه الجلدي الفاخر: { من
سيدفع ثمنه الغالي.. الطبيعة؟ }، لم يستطع تحرير قدمه
المؤزّة له أزا، وطرده عن نفسه أن يقطع القدم فهذا هو
السبيل الأوحده قبل تهشيم حجر سقف هاو بلا هوادة،
ولئن ثبت على هذه الفكرة المجنونة فليس له شفرة
حاددة أو سيف قاطع إلا مطرقة ناصر المثبتة أسفل
ظهره والتي حملها لئلا تحفر أسفله ثم راح يضرب بها

الجذع الغليظ لعله يتدحرج مبتعدا عن قدمه بأي ثمن سواء تركها ملتوية أو صحيحة.

وأخيرا أعانه الصياد رافعا الجذع بكل ثقله بعد طول المدة التي قضاها يفكر في الحل، قهقهه بدر بصعوبة قائلا:

- انتظرت حتى ألقى حتفي متظاهرا كأنك ما رأيت ما جرى معي.. ولكن لا تمشي الرياح بما تشتهي سفينتك.. أليس.. كذلك؟.

- ليست لدي نية في التخلص منك لا سيما بمثل الطريقة الخبيثة التي ذكرت والتي خرجت من فم خبيث.. لا بد أنك تتحدث عن نفسك.. أليس كذلك؟.

اكتفى بدر باغتصاب ابتسامة مقتضية ثم نهض مترنحا يورجج قدمه فشعر بالشلل فيها ورمى الصياد بوداعة ليستقبله الأخير باشمئزاز زافرا كلامه:

- أيها الجرو البريء!.

- أه، تتاقض صريح.. لا مشكلة لديك في تسمية الحيوانات ما عدا كل... رفيقك يتوجب نطق اسمه العجيب.

قالت الفتاة متتهدة:

- نتحدثان كأننا نحتفل بنجاتنا.

استقام بدر فاتحا ذراعيه نحو السماء يهتف متحمسا:

- لقد غادر الدخان بعدما فتح السقف وخمدت النيران لما تشممت السحب رائحة الدخان الاسود فتفجرت عاطسة المطر.

ايضا فتح ثغريه باسمه ونبح الكلب متحمسا معه ليخمد بدر خائبا ومخرسا له:

- شششش!.. احرص، أفسدت المتعة..

صفت له الفتاة فيما تقول:

- وصف جميل من شخص...

قاطعها الصياد:

- كالحمار..

رد عليه بدر لاعنا:

- يا لك من متناقض لعين.. أما انتِ فلا أعلم ما الأسوأ

تصفيقك أم مدحك..

كانوا يصرخون لإيصال كلامهما تحت مظلة الأمطار

الخامدة للنيران ومرطوبة الأجواء فعمّ هدوء مريح واران

عليهم صمت مبين زمّ أفواههم اليابسة لتصبح شفاههم

رطوبة يتلذذون بنقرات المياه وبرودة الرياح المحملة

معها كأوتار تهيج وتهدأ متصارعة مع بقايا النيران

فأما توججها أو تطفئها حينما يرافقها المطر الغزير،

قطع بدر عليهم الصمت صائحا:

- لما يشتكى الفلاح من الجفاف؟.. أشعل نارا عظيمة

وانتظر حصاد وفيرا..

بنبرة نزقة قال الصياد:

- ننتظر حصادا وفيرا، نعم.. ننتظر قوافيك المريرة، أنا

أسف لكن لا!..

لفظها صارخا بإفراط رغم صعوبة الاستماع، مرت

فترة وجيزة يحدجون بعضهما البعض بتر تحديقهما

طول الكلب من الفجوة الشاسعة ينبج فرحا لهذه

النعمة. تجاهلوه ما إن ظهر لهم خزاننا ضخيم يتكون من

ثلاثة طبقات كل واحد منها متصل بأنبوب المجتمعمة في

اتجاه موحد لتلتصق معا في أنبوب جامع متصاعد

للأعلى يختفي وراء السقف الذي تنتشر منه التربة
البنية القاتمة.

اتجهت الفتاة ناحية اللوح الذي ظلت محدقة فيه
باستغراب بينما ربط بدر عقد حذاءه الجلدي الفاخر: {
رباه، كم أنت فاخر!}، ثم انطلق مع الصياد صوب
الخان كي يستكشفاه ومن خلفهما اخترقت الفتاة اللوح
بشكل مباغت واختفت.

بجانب الخزان الرئيس الضخم تلتصق منضدة
عريضة في الحائط الصخري المتشقق، وعليها قوارير
وكؤوس جميعها زجاجية، بعضها مليء بسائل أسود
باهت، والبعض الآخر شبه ممتلئة بسائل مستخرج من
الجراد الأخضر كون القوارير الخاصة به عليها لافتة
مرسوم فيها جردا اخضر لكنه بلون داكن.

أما الكؤوس الزجاجية المتعددة الألوان والأحجام
والاشكال تماما كالقوارير، بقيت قطرات سوداء لزجة
كأثر لما بعد الشرب. طوال المدة فغر الصياد فاهه غير
أن بدر اندهش عبر تغضين حاجباه النصف السوداويان
والنصف الحمراوان فحسب.

استغرق معاذ في سباته كرضيع تحمله أمه بلا حرج
نظرا لحجمه المتوسط خلف ضخامة ظهر الصياد، ومع
ذلك حل الصياد وثاق العباءة ثم ألقى معاذ بعنف غير
مقصود على ركام من حجر واسع للسقف المتهادي ما
أيقظه فازعا ومتحسسا ألم ظهره في نفس الوقت.

صاح مع بدر:

- هيبية!.. إنه.. إنه ردائي.. لا تعامله هكذا.

استغرب معاذ فلململ راسه متجاهلا وركز على

الصياد:

- اتحداك ان تسويها مع الكلب.

- بقولك هذا سيكرها حالا لك.. اعتذر.

- عذرا، اقصد ابن الكلب.

لعلها أول مرة يضحك معاذ رفيقه الذي انحنى
يكركر بلا صوت، تفهم عزيز قوله واستدار يتفحص
محتوى المنضدة. شعر الصياد ان بدر تأخر في قول
هذا الكلام:

- يعلم الله ما دور هذه القوارير والكؤوس.

ثم أردف بلهث كما كان يفعل منذ اندلاع الحريق:

- دائما أصحاب السمنة يخبئون.. اشياء غريبة..
ويصنعون أمورا.. فهمت قصدي؟.

ثم ابتسم بخبث يهرّ بطن الصياد فقال:

- ماذا تخبئ هنا أيها البدين؟

- لعل مراتكم منتفخة ومنبججة.. مثلك.

كان الصياد أكثر زفيرا كونه ظل يحمل معاذ وكذا
قوسه مع كنانته لذا التقط زجاجة فتح سدادتها بأسنانه
مضيفا:

- كم ستعطيني إذا شربتها؟.

- قل ماذا سأعطيك.. سأمنحك كما يقولون عندنا في
الباراح الاتساع.

قهقهه عزيز غير كاتم ووضح فعلته:

- باراح؟!.. واهو هو هو هوه!.. هذه القارة تمتلك أغرب
الأسماء دون باقي القا... لا شيء.

محمم يرغب في تغيير دفة الحديث قائلًا وعيناه
مثبتتان على صورة الزجاجاة:

- على العموم من خلال الصورة أجزم أنه سائل يستخدم لشل حركة أي كائن.. أعرف بضعة حشرات يـ..

- حقا؟.. لنذهب اليهم قد يجدون حلا لمشكلتنا.

- اخمد.. قصدت لـدي معلومات لا علاقة معرفية..

فلأكمل هذه الحشرات يملكون قدرة، موهبة.. لا أعلم.

قاطعـه مجددا بتحدث بجديـة باديـة على ملامحـه فرفع

اصبعـه الى فمـه يفكر:

- آه، تعني عرفتهم لما كنت تتجول في المدينة

وشاهدت عرضا للمواهب ثم اكتشفتهم.

بحلق فيه جيدا ثم زفر عزيز يموء برأسه نفيا:

- لماذا بحق الله اضيع وقتي معك؟.

اكتفيا من الحديث ورحبا بالصمت ثم طرده النباح

والنداء من طرف الفتاة والكل.. رفيق الصياد الذي فتح

الخان بطبقاته الثلاث معلنا عن ازدياده من الرائحة

الكريهة الصادرة من السوائل الخاترة والطالقة أنتن ما

شمه في حياته كلها، كما أعلن بدر مشمئزا:

- أليست لديكم بركة للاستحمام؟.. ارفق بأنفك وكن

نظيفا.. أم انه عزيزة عليك القانورات؟.

اكفهر وجهيهما يمتعضان من رائحة الدخان بينما

يحظى من في الأعلى بروائح عبقة للأشجار وأريج

الزهور المتفتحة العطرة، احرقـت شرارة النار فرو

الكلب خالقة بقعة سوداء مكتسحة الجلد أيضا.

طفقت الفتاة تبحث عن عشبة تخلطها فوق صخرة

صلدا لتصنع مرهم فوضعتـه على ورقة شجرة كبيرة

ثم الصقتها في البقعة الساخنة وقطعت نصف وشيجة

لفتها حول الورقة الخضراء. وبعد الانتهاء عادا

للإطلال حيث وقف معاذ مترنحا يمسك رأسه بيد
وتضغط الثانية على ظهره يحرقه الألم، تهكم عليه بدر:
- مالك.. هل انت بخير.. أسقطت بظهرك على جماد
صدا؟!..

قد استعاد ملامحه البيضاء الطبيعية كما ابيضت
صلبة عيناه من جديد إذ علق ساخرا:
- من كان يدري أن هذه الواقعة على الحجر ستعيدني
الى طبيعتي؟
استفهم بدر مفضلن الحاجبان:
- من؟!..

وبدا ان الفتاة سمعت كلام معاذ فأجابت ببشاشة:

- هذا الكلب يدري..
سمعها الصياد منتفضا من مكانه يحدق في السماء
صائحا:
- إيه!.. أيتها القطاة السوداء كرريها وستحضنين سهما
في ضلوعك.
ردت ضاحكة:

- الم تقل انك لا تمس الأطفال؟
ورد بدر كذلك عليه يشير نحو الصياد المندفع
صوب الفتاة:

- مهلا، يمكن لكلبك الدفاع عن نفسه.
التفت اليه عزيز مزمجرا فتفلفت الفتاة غاضبة:
هدفي جعلهم يصعدون الينا لا البقاء وسط الأنقاض
وتضييع الوقت والجهد.. اصمت يا سيدي!، ثم أضافت
باسمة:

- او يحتضن الركام المحترق جسدي.. كلبك.

التفت اليها مجددا واندفع غير عابئ بقول بدر:

- وأما بعد سوف يغدو كلبك اسودا عوض اللون الرمادي السخيف.

لم يعي ما يفعله وكسر اللوح بأخصص قدمه دالف للداخل من ثم حطم لوح جذع الشجرة عند المخرج فتبعه بدر مرتدي عباءته المتسخة والمحروقة حاملا المطرقة وتجاهل نداء معاذ:

- بدر، احملني مع مطرقتك.. يا لحظي ذهب.. اعتدت ذلك.

ولحق به ببطء يركض كسكير لعين، في حين تسلقت الفتاة شجرة ما إن وصل الصياد للسطح فرأى كلب.. رفيقه يحدق في أعلى الشجرة فحدق معه أيضا نحو النسر الاسود المطلق الذي حط فوق كتفاه وعقدت رجليها حول عنقه فيما تغمض عيناه بأصابعها المشتبكة، ولما هب رفيقه يدافع عنه تماما كما خططت ارتمت الى الجانب وارتمى هو رافعا قوائمه تجاه صدر الصياد ليطرحه أرضا، وصل كلا من بدر ومعاذ صامتان يتفرجان، وقالت الفتاة في آن واحد مع الصياد:

- ألن تضحكا؟.

قهقهه بخفوت القادم الاول وابتسم الثاني ونبح الثالث لاعقا رفيقه الغاضب.

افترش الفطر الأرض محاصرا الأشجار الباسقة، ذات الظلال الوارفة، وتكسرت أشعة الشمس على الصخور وبين ثنايا الزهور وكذلك حجبتهما الأوراق الخضراء الضخمة سامحة لتسرب ضوء خافت لعين المكان. جلسوا يستشقون نسيما رغم رطوبة الجو

المتخلل لغبار يذرو كلما نفخت الرياح تربة الأرض
ولقعت وريقات الشجر وأوراقها البرّاقة.

نهض الصياد قائلاً وهو ينطلق للأمام:

- سأبحث عن مورد ماء ثم سأعود إليكم.. قطمير، هيا
نذهب يا صاح.

لقى نظرة خاطفة على وجه بدر المبتسم فقال:

- جيداً انك تحكمت في نفسك.

فانطلقا الرفيقان على خطى مقتصدة، التقط معاذ
حجيرات صغيرة جداً يهزهزها داخل قبضته ثم خفض
عيناه قائلاً لأول مرة:

- شكراً لكما.. قدومكما وسط كل المخاطر يعني لي
الكثير.

كانت الفتاة تشد سكاكينها الأربعة فائتقان يوضعان
أسفل الحذاء بشكل يظهران كلما ضغطت على كعبيها،
أما الآخران مخبآن داخل كميها فوق المعصمان
فيخرجان فور شد خيط غليظ يتدلى تحت الرسغان،
لكنها تستطيع إخراج السكاكين من مكانها للشد
والتنظيف.

لاح شبح ابتسامة على محيا معاذ لمنظرها فقال
بصوت مفعم بالنشاط:

- أنى لك هذا؟

حشر بدر أنفه:

- ستقول لك.. علمني أبييبي!

عند نطقه لآخر كلمتين بدل صوته الذكوري الى
الانثوي قصد تقليد الفتيات، فحدجته الفتاة تمزج الوجه
البشوش بالعبوس قبلما تلتفت شمالاً إلى معاذ قائلة
بهدوء متناغم مع المكان:

- ابتكرته لنفسى، أما أبى أخبرنى فقط ان اجد طريقى الخاص فى أى شىء معجبة به لا اتبع التعليمات والتقليد كالأبله.

قال بدر وإن كان الحديث غير موجه له:

- جملة طويلة أخبرك بها فحفظتها عن ظهر قلب..
وانا كلمة واحدة اكررها لك فتلفظها كالقبيء.
اخرجت لسانها متقرزة:

- آاخ!.. مقرز مثل افعا.. سيدي.

- يبدو ان ذلك الصياد اللعين أورثك طلاقة اللسان وها أنت صرت تتفوهين بما يحلو لك.
لقى معاذ الحجيرات امامه ثم قال:
- كيف التقيتما؟

تدخل بدر رغم ان معاذ وجه حديثه للفتاة:

- كنت فى المدينة احمل فى يدي عدة كتب.. مارا بين صفوف المنازل وعند انعطافي يمينا اصطدمت مع هذه الجميلة مقرفا نجمع شتات كتبي فلما تلاقى أعيننا...
- اخرس فحسب.. سيدي.

نطقها بنبرة رخوة ثم رفعها قليلا لتخاطب معاذ:

- أعنته فى هروبه من قبضة الحراس.. لا أعلم ماذا فعل ليستحق ذلك.. لكن آذاك...

طأطأت رأسها الصغير المستدير محدقة فى بريق النصل الماضى لترتب السكاكين فى مكانها وتستأنف الحديث:

- كأتى اردت تغيير حياتي بأسرها، إنها خطوة كبيرة ما أقدمت عليه لا سيما أن عائلتي هناك.. سحقا!.

خفق معاذ في فهم حزنها البادي على محياها
الصغير بيد أنه حثها على المواصلة فأردفت بنبرة
خافتة بأسة:

- أرجو ألا يكون شعوري هذا ندم.
- دائما يخبروني ان الأطفال يشعرون بالمعاناة ويمكنهم
تحمل الألم ومواجهة المشاكل.. عفووا اية مشاكل
يتحدثون عنها إنما معضلة طفيفة يضحونها.
عصر بدر بقبضته حجرة فتفتت فيما يقول حانقا
بصوت رخيم يكز أسنانه:

- غير صحيح بتاتا.. نحن.. هم كذلك يعانون ما يفوق
معاناة الكبار.. البالغون والراشدون هم من يضحمون
مشاكلهم التي لها حلول.. خصمان تصارعا حول من
يحكم او حول من يبيد الآخر أولا.. الحل يتحاوران
ويتفكان على حل وسط.. اما الأطفال لا يستحقون ما
يشعرون والذي يزيد الطين بلة ان اقرب الناس إليهم
يسخرون منهم ويتجاهلون إحساسهم.. المشكلة في
هذه المعضلة عدم تقبل الكبار الجلوس في طاولة
الحوار لفهمنا.. لماذا.. لماذا يتجاهلون؟!.

كانت نبرته تصاعدية صدمتهما خاصة لما ضرب
الارض، جال في خلد معاذ ان يلطف الاجواء عبر
إضحاكهما يقول هاتفا:

- رجوت الا يكون شعورك ندم.. لست وحدك فالجميع
سيندم على تقديم العون لبدر.. انتظري رويدا وسوف
ترين ذلك الصياد يعض أنامله من الحسرة لمساعدته
هذا الشخص.

واشار ضاحكا الي المغمض عيناه متكئا على مرفقه
ومادا رجله يتظاهر بعدم الاستماع، ابتسمت الفتاة قبل
ان تقول:

- أعتذر على كثرة أسئلتى.. ولكن اريد معرفة اسمك.
اهتز جسده هاتفا وقائلا:

- أنا معاذ كما قد تكوني سمعته من فمه.
أماءت رأسها نفيا ثم قالت:

- وأنا تخلصت من اسمي منذ ربحن وافضل مناداتي
بـ " فتاة الظلال " .

- اسم طويل لعلمك.. واظنه ليس له معنى.

- إذا انظر بعينك لا بعقلك.

- آه، لأنك سوداء أسمي...

قاطعته صائحة:

- كلا، أيها الأحمر... لأنني سريعة وخفيفة الظل.

تفوهت كلماتها بفخر وعزة ترفع يدها وهي تقولها
ثم رسمت وجها متسائل:

- حان دوري.. كيف التقيت بهذا الأحمق؟

التفت نحوه قبلما تنطقها بخفوت دانية من معاذ فرد
عليها بدر جاهرا محافظا على عيناه المغمضتان
ومتكئا:

- كان في المدينة يحمل عدة بيضات مارا عبر صفوف
المواخير وعند انعطافه اصطدم مع عاهرة شريفة
فتدخلت لأنقذ أشرف عاهر.

ثم قهقهه بخفوت وصمت فجأة حتى اطمأن معاذ
لسكوته ليقول خافضا صوته وينطق بفخر وعزة:

-التقى بي وانا اتدرب بالسيوف وعلى رمي الاسهم.

اطلقت الفتاة تعجبا طويلا أعقبه تأوه بدر الدال على
تكذيب معاذ في حين أطلق الأخير صفيرا مشيرا بعينيه
الى القادمان. قدم لهم الصياد دلو رصاصي يحوي مياه
شبه متسخة ذكر مصدرها يلهث:

- نهاته من عين بعيدة عنا، سيتطلب منا وقتا وجدها
لبوغها لذا...

صمت هنيهة يتنفس الصعداء وعلى وجوههم
علامات الانتظار فأسرع بدر يشرب ملتقطا كلام
الصياد:

- سرقت الدلو من صياد واحضرته اليكم.. المهم الا
اعود خاوي الوفاض.

بدا عزيز غير نادم من نبرة صوته اثناء إخبارهم
كما قد غسل وجهه وفرك يده ليعود الى سحنته
الطبيعية الكستنائية كالبندق وكذا لف أشرطة من
وشائج الاشجار حول موضع العضات. فعل الباقون
مثله لا يعبؤون بملكية الدلو الواسع حتى افرغوه
متجاهلين ايضا انين الكلب الحزين كونه رغب في لعق
آخر القطرات ولحظه كان غير ظمآن: { هاو.. هاااو...
هوووو! }.

اقتطف الصياد هنالك ثمرات الرمان قسم الحصاة مع
رفيقه ثم احضر معه حبتان فقط حيث خال ان بدر
سيوثر إطعامهما للصغيرين على نفسه فانقض عليه
ملتهما كل حبة ولاعقا كل سيل احمر ينساب منهما.

بشق الأنفوس أرغموه على الذهاب لإحضار أية
فاكهة ستطعم الفتى والفتاة فانطلق حاني الراس بعدما
التفت مستشفا عطفهم بقوله:

- أعشق الرمان حد الجنون.. كذلك انا الاكبر منهما
وينبغي إشباع بطني حتى يتسنى لي حمياتهما، صحيح؟
صاحوا في اتساق:
- اذهب!.

لم فوّت فرصة استنشاق الهواء الرطب يتسلل الى
رئتيه فينعشهما، وتتسع حدقتا عيناه لخضرة الاشجار
المرفرفة اوراقها كراية خضراء وبيضاء بوريقات
الورود حتى وقف أمام شجرة غزيرة ثمارها. راح
يقطف ويأكل مطلقا صوت نهما مثلذا وأصبع فمه
بحمرة الرمان ليتنبه لوجود شجرة البرتقال رمقها
غضبا:

- لا اعارض رغبة الخالق لكني اكرهك يا فاكهة ال...
بتر عبارته متأففا واقترب من الشجرة يقذفها
بنظرات عاصفة وسط الجو الهادئ وصمت مطبق إلا
من أصوات الأشجار المتمايلة في انسجام تصدر
خشخشة مريحة للأذان، ثم صكّت أذناه حين احتكاك
عجلة مع التربة محدثة زعيقا مزعجا وغبار رهيب.
في دوران الفرسان يجران معهما العربية يلتفان
كالقوس الى ان اصطدم جسم العربية بجسد بدر فألقته
صوب جذع الشجرة مقبلا ظهره إياها في عنف سمع
معه قرقعة أضلعه ثم انزلق ضاربا مؤخرته الأرض
فيما يحتك ظهره مع خشونة الجذع الذي تقشر.
تساقط لحاء الشجرة الضخمة على كتف بدر
فالتقطها السمين يسحقها بقبضته فما استطاع تفتيتها
ليذرها تفلت هابة كريشة، خطف من بدر المطرقة أيضا
ودورها بأصابعه يحدق لمعانها تحت اشعة الشمس
وتداعب فمه ابتسامة فاترة، فقال منتشيا:

- هل اشتقت إليّ؟..

تعصّر بدر لقول:

- بالطبع.. لا.

رمقه ناصر قائلاً باستهتار:

- ومن قال أني أخاطبك؟..

حتى بصغّه لأسنانه وأنيبه لم يستطع بدر التخلص من ألم ظهره ورأسه الذي خُبط مع الجذع رفعه بصعوبة للواقف على يمينه ليجده فاتحاً ذراعه اليمنى الممسكة بالمطرقة لجانب الأعلى قصد تهشيم رأسه برأس المطرقة الحديدية، وتردد ناصر قائلاً:

- توصل إليّ.. توصل.. هيا، هيا توصل!..

أخرج بدر لسانه قائلاً بامتعاض:

- أرجوك، سامحني على ما كل فعلته في.. حقك..

أطلق زفيراً طويلاً ليردف بنبر حادة:

- يا أبتاه!..

بدت جلياً أمارات الاندهاش على وجه ناصر وهو يسحق رأس بدر مرة تلو الأخرى حتى امتزج الدم مع سمغ الشجرة وأثناء ذلك طفق يردد فقط:

- دمرت حياتي!.. دمرت مصنعي!.. دمرت تجاربي!..

حيث أعاد كل كلمة لبضعة مرات ثم هدأت أعصابه لرؤية عدوه هكذا مسحوق..

- هيبببي!..

التفت بغتة قبل أن يثب مقرفاً ومختبئاً بواسطة عربته إذ نجى من السهم النابت في جانب حلق بدر فلما كان فخذ ناصر بدل حلقه لو لم يتمالك أنفاسه وقتئذ متجاهلاً إذا كان ذلك الصياد هو نفسه الذي التقاه رفقة كلبه أم هو شخص آخر، فاطل يبص في حذر ليتنبه

على ان الرامي امرأة منتفخة شيء ما ومفتولة
العضلات المتوسطة الحجم ذات شعر اصهب قصير
ووجه حافل بالتجاعيد والانكماشات، لا تبدو ستينية
ولكن حسب ظنه ثلاثينية لا أكثر.

سمع خطواتها تقترب في اتجاهه وحوالي خمسة
أقدام تقع مطرقة على الأرض، صفرت المرأة
وصاحت:

- أخرج وحسب.. أريد ان أعرف ما إذا كنت سارق
أغراضي.. كما انني لا أعبأ لهذا المقتول قط.
- أوه!.. لم يمت بعد.

ظل بدر يتنفس ببطء يلفظ عنه الدم المنساب من
عفن وجهه الذي لا يعرف أنفه من جبينه وعين قد
خرجت فبينما احمرت الأخرى لدرجة لا ترى، صاحت
المرأة مجددا:

- أستطيع ارداءه الآن وتخليصك منه إذا كان هذا
سيجعلنا على وفاق.. إنما أبحث عن صياد حقيير
وابنه..

استغرب ناصر مما أرغم نفسه على الحديث:

- لا يملك ابنا، بل كلبا حقيير مثله.
ابتسمت المرأة قائلة ببشاشة:
- ذلك الحقيير يدعوه ابنه ويعتبره من صلبه.. يحبه
أكثر من البشر.. حقيير وحيد رفقة كلب عنيد.
- مسكين!

- هيا، انهض ولنتحدث كراشدين.
- أعيدي السهم الذي تحملينه الى كنانته وأعدك أنني
سأمثل أمامك.

هدأت من حديثها قائلة:

- ومن قال أني أحمل سهما؟.

استجمع شتات نفسه ظاهرا للعلن بقوله بسرعة:

- دعيني أحمل مطرقتي على الأقل.

- تفضل.

بل هي التي حملت المطرقة ومدتها إليه فالتقطها

سريعا ليقول لاهتا:

- ذلك الصياد كان رفيق هذا.. ومعه ولد وبنت سوداء

حقيرة أيضا.. لا اقصد حقيرة لأنها سوداء.

- نعم، أكمل.

واصل كلامه بشكل اهدأ من السابق:

- دمروا منزلي وأحرقوه عن بكرة أبيه.. كنت أطاردهم

منذ الصباح.

هزت رأسها تقول:

- لما فعلوا ذلك؟.

- فعلوا ماذا؟.

- تدمير منزلك.. وحياتك.

أخرجتها مستخفة لامحة إياه يحكم قبضته على

المطرقة بوجه منكمش غيظا قال:

- لعلهم أتوا من أجل فتى احضرته الى منزلي.. لا أعلم

صراحة.. هل تعرفين الصياد الذي تبحثين عنه؟.

ردت بصوت أجش:

- معرفة طفيفة.. رفاقي الصيادة هم من اخبروني بمن

سرق دلوي الشيء الوحيد الموروث من والدي.

لاحت ابتسامة عريضة مشفقة ورادفة:

- خير لي عدم مصاحبته أو الغدو رفيقته.. أمثاله يحذر

منه الناس.. فهو منبوذ لا يؤيئه الحمار بشحمه ولحمه

ذرة اهتمام.

هزّز رأسه يهيمهم بصوت مسموع:
-فهمت.

لبضعة لحظات ظلا صامتان وساكنان في مكانهما تارة يحدق أحدهما في جثة بدر والثاني يولول عنقه او تلوك المرأة لثتها بينما يرخي ناصر ويشد قبضته بشكل متكرر، ثم بادرت الحديث صاحبة الهيئة الذكورية من ناحية ضخامة ذراعيها وحجم صدرها كما تقف مستقيمة صنييدة كالطود، فقالت محافظة على الصوت الغير المفرط في غلظته:

- حسنا إذن، استأنف طريقك إلى حيثما تشاء ودع لي الجثة ستكون وجبة شهية لحيوان أليف أملكه.
- رائع!.. ولما لا نتعاون على إيجاد الصياد والتعامل معه؟.

هزّت رأسها مشيرة إليه:

- كيف تريد التعامل معه؟

أجاب فوراً مقطباً حاجباه:

- إجراء تجارب عليه.. سأرى.

- أنا أبغي نيل القصاص منه.. سأأخذه الى مجتمع الصيادين لتنفيذ عقوبة مناسبة على سرقاته..

بلغ ناصر ريقه قبلما تضيف:

- .. وكذلك معاقبة ابنه.

بعد برهة انطلقت العربية متذبذبة في الطريق فيما سارت الصيادة حاملة بدر على كتفها فلا يظهر أثر ثقله على محياها العبوس وكانت الرمال تتسكب من قبضتاه المتدلّيتان وفمه وتتساقط ذراتها من وجهه.

غادرا الاثنان بسبب عدم توصلهما لاتفاق جامع يرضي الطرفين، استمرت العربية مندفعة كثور هائج فر

من قفصه يصدر خوارا مجلجلا، يلف ناصر رداءا حول جسده كاملا لا تظهر سوى عيناه الجاحظتان غضبا تشتهي القضاء على من سبب له هذا الألم والحزن المخيمان داخل صنوبر قلبه.

مرت فترة حتى ترامى لمسمعه أصوات على مدى بعيد يتخالها نباح خفيف، فعقد العزم صوبهم للانقضاء عليهم او ربما الاحتفاظ بذيئك الصغيران إذ خجل أمام المرأة في طلب الحصول على جثة بدر حيث خطط إلقاءه امام أنظار رفاقه كمفاجأة صادمة ستسهل عليه مهاجمتهم بغتة وقد تخيفهم فيخنعون.

أوقف العربية مسرعا لفتح صندوق مقعده، أمسك شفرتان حادثا النصل ومديدتا الطول ثم هرول يربطهما في كلا منتصف عجلتي عربته عندئذ وثب الى المقع جانبا سرج الدابتان لتعديان مقتحمتان الأوراق الخضراء الجافة تلثم العجلتان الطريق بتربته وحجيراتة وأعشابه فتجتث وتقلع مثل وحش كاسر.

سمع الصياد الجلبة خلفه في نفس اللحظة التي أشهرت الفتاة الخنجر الملتوي النصل فغرزت الطرف المدبب في الارض بعدما ركضت قبالة العربية الهائجة فانعطفت الأخيرة قليلا بغرض محاذاة الشفرة المثبتة بالعجلة اليمنى ناحية قدم الفتاة، لكن نصل الخنجر قبل الشفرة مفجران شرارة صفراء لما دفعت الفتاة الخنجر للأعلى ثم قفزت متدحرجة صوب شمالها، أما العربية غيرت مسارها من جانب الفتاة الى الجانب الأيسر للصياد لكادت بتر ساقها لولا غرس سهمه في الارض فقطعت الشفرة الجذع قبل بلوغها الساق التي رفعها صاحبها إليه وزفر مرتاحا.

انعطفت العربية صوب الكلب الذي تنحى جانباً
فأسحا المجال لمعاذ الفاغر فاهه مط ناصر شفثيه
ممتعضا وجر اللجام مبتعدا عنه فصار يواجه الفتاة
التي قذفت اصغر سكيناً رأتها عيناه صوب العجلة
المتجهة بشفرتها نحوها، لم تفلح الرمية في إفساد
العجلة فناصر مبدع في اختيارها وفاق من نشوته امام
الظل المنقض يتشقلب في الهواء افقيا فحطت قدمها
فوق صهوة الدابتان ثم سددت ضربة بيده المخرجة
سكينا فوق المعصم تفادى التسديدة الاولى ملويا عنقه
يسارا وأماله يمينا لتمرق الضربة التالية قرب أذنه.

كان ذلك أثناء سير العربية فلما رفعت كلتا قبضتاها
وهمت بالتسديد في هجمة موحدة جذب لجامها فتوقفت
الدابتان سريعا مما عثر فتاة الظلال وكأنما جذبها
شخص مجهول للوراء بقوة فقفزت مفزوعة تتدحرج
على الأرض غير أن هذه المرة لا تتحكم في التدحرج،
وانطلق ناصر منتشيا من جديد قصد رفسها وعفسها
تحت أرجل الدابتين وعجلتا العربية.

لبث غير بعيد وغير قريب منها حتى استقر سهم
في العجلة اليسرى بجوار السكين واستطاع خلق ثقبه
أربكت سيرها فاهتزت العجلة اليمنى عن الأرض مائلة
للجانب الأيسر تجرف العجلة المتبقية التربة مارة فوق
الفتاة المتمددة لئلا تتعرض للأذى في حين ارتطمت
الدابة اليمنى مع خيلتها وساعدتها على تثبيت العجلة
عبر دفعها لتعود الى مكانها وحمد ناصر الله على
استواء وسيلته العزيزة.

كز السائق اسنانه ثم مط شفثيه وتهور مستديرا
ناحية عزيز يصيح بنزق:

- اطلب العفو من وسيلتي التي خدمتني سنين.. أووو،
لم تقبل طلبك.

جلس عزيز على ركبة واحدة يشد وتر سهمين
اخترق الأول دابة على يمينه فاسرع ناصر يقطع
الحبال ودهستها العربية التفت رفيقتها تودعها ملقبة
آخر نظرة ثم عادت تحديق في الصياد مهملة في
غضب مستعر، ظل عدوها في مكانها قبل ان يرتمي
عليه معاذ ليبعده عن مرماها بيد أن ناصر بدون تغيير
اتجاه العربية باللجام انعطفت دابته نحوهما..

.. ارتمي معاذ بعيدا ملتقطا نظرة الصياد يحمله
ويلقيه فترا منى لسمعه اخترق الجلد وتهشم العظام
وتمزق اللحم، استدار غير صاد أذناه من زعيق عزيز
الملتوي على الارض ألما من فقدان النصف السفلي
لساقه. بالكاد تمكن معاذ من تمالك نفسه عن بشاعة
المشهد وصراخ الضحية خلفه ناصر يرفع مطرقته
بغية حطها فوق أديم الصياد الذي حطت قدما الفتاة
على كتفه وجانب بطنه قافزة نحو المهاجم بدورها
ترفع السكيتان لكن نطحه الفرس لتهوى هي عوض
نصليها على الأرض ودهست العجلة بطنها غير عابئة
بأينها.

لهي لحظات قد طبق خلالها الرفيق النابح قفزة
الفتاة بعدما استعان بجسد رفيقه فاتحا فمه ليغرر انيابه
في متن الدابة ويحول مسارها حيث مرق نصل الشفرة
اليمنى فوق جسد عزيز المنكمش على نفسه.

في يد معاذ قوس وآخر سهمان يصوبهما نحو
العربة الثائرة تتعطف كالمجنون وتدور في مكانها ثم

تطلق يمينا وشمالا، تذكر صوت سهل يصرخ فيه
للإطلاق لدرجة التفت نحوه:
- اصمت ودعني أركز.

لململ رأسه مندهشا ثم عاد لوضعيته يواجه واقع
لا تدرب، هدف متحرك عكس الدمية المبتسمة بخبث،
أطلق سراح السهم الأول الراحل للأبد فلا يبين مستقره
كونه اخترق الأشجار وتلاشى هسيسه، ومع ذلك تنبهه
ناصر له، التقط معاذ السهم الأخير:

- تبا!.. ركز أيها الأحمق.. لست افعلها في معركة
سخيفة من أجل دولة لعينة..
ارتجف وتلاحقت انفاسها:

- .. افعلها من أجل اصدقائي الوحيدين الذين حظيت
بهم.. الذين ضحوا من أجل إنقاذي.

جفل بسقوط الكلب ورفس الدابة له عوض دهسه
ثم اتجهت الانظار الى معاذ الرابض امام جذع الشجرة،
ثم اتجهت العربية ونظر ناصر باشمئزاز له:
- هذا جزائي أيها الرضيع.

حار الرضيع بين إرداء الدابة ام ناصر:

- الدابة ستجعله يستسلم إن تخلصت منها.. ناصر
سي.. سيُزيد فرسه هيجانا لقتله.. أجل، ناصر إذن.. كلا
الدابة ما قصدت.

اخفض التصويب نحو رأس الفرس وبشكل مباغت
أغمض عيناه يرتعب من جلبلة العربية وزعيق ناصر
كأن الموت قادم اليه لا محالة، وبنفس الشكل ارخى
اصابعه مسددا صوب السماء فغاب هسيسه.

تراجع معاذ واقع ارضا يرفع يده خائفا مغمض
العينان ثم اختفى صوت الجلبة وجاء الصوت منقذه،

صوت لزوجته الدماء تنهمر وروح تزهق بعنفوانية،
فتح عيناه يتفحص الدابة الواقفة قبالة ينزل نصل سهم
أسفل عنقها، لم يعلم ان المشهد بطيء جدا لان الفرس
لم تتوقف بل جمعت على نفسها واهتز حافريها
الخلفيان متشقلبة كالفتاة فوق جسد معاذ، غير ان
ناصر تأخر في قطع الحبل الرابط بينها وبين العربية كما
تأخر عن النجاة بنفسها حيث جرت العربية يمينا مع
الجارّ ودارت العربية ملصقة ناصر مع الجذع.

سقطت المطرقة ما بين فخذ معاذ الجالس نهض
متوترا يحدج جسد ناصر المعتصر فقد سمع فرقعة
عضلات ظهره وخفق في إبعاد العربية عن بطنه. حمل
معاذ مطرقة صعد فوق العربية يلقي نظرات غضب جام
نحو ناصر المصدوم، فتح ذراعه اليمنى الممسكة
بالمطرقة للأعلى وأغمض عيناه قائلا بمرارة:

- شكرا على معونتك أتمنى لك شواء جميلا في الجحيم.

واصدر اوامر لعضلات يده لتخمد غضبه بتهشيم
وجه خصمه وبمنحى مغاير تفاجأ معاذ يرى المطرقة
معلقة في الجذع فوق نصل منجل له التواءات كسير
الأفعى، استدار ناحية المصدر الذي صاح:

- رويدك اريده حي.. اعلم انه يبدو غير نافع وبلا
شأن.. لكنه مفتاح دخولي إلى منزلي.

أتقصد ان مفتاح منزلك بلعه.. ابقر بطنه واخرجه المهم
الا يظل حي.

قهقه ناصر بشق الأنف وقال:

- حس فكاهي كشواحيك الذي خسر وسامته.. إذا حالفه
الحظ يأخذونه للباراح ويعيدون محياه.

- ماذا فعلت به؟

- لا شيء.. أرحته من هذا العالم، الجميع يكره طائفته.. والجميع يقلل من احترامه.. بل وصل الحد الى...

كح متألما وأستأنف بصوت تشوبه بحة:

- ..بعض المناطق يحرقونهم لو صادفوهم.

أعاد الاستدارة للرجل ذو المخالب الملوية نصالها امضى من السيف ولما لمحہ ناصر قهقهه يموء برأسه مستهزئاً:

- أنت ايها الذئب تعال إليّ لأنتقم من سيدي.. هاهاها.. لم اكن اعلم اني سأثار له أخذا رأسك القمي.. لأحضرت قناعك السخيف أيضاً.. آه نسيت فقدته.

وضع الذئب كفه اسفل ذقنه يفكر: { كم مرة على آخر مرة دلقت قلعة " الدواب "؟.. رباه ارجو الا يكون نسو سيرتي نهائياً.. ويا ترى هل سيقبل بي السيد بيلوف بعدما نفذت مهمة بدون علمه؟.. }

الفصل السادس عشر:

القاعة الوحيدة التي حظيت باتساع عريض
وطول مديد وسط القلعة الصغيرة ذات الساحة الضيقة،
عجت القاعة الرئيسية بمختلف الاجناس ذكورا وإناثا
وحيوانات غير ان الأخيرين هم عبارة عن قناع بديع
النسج ومتقن الحياكة حتى يبدو كأنه راس حيوان
متوحش مقطوع يرتديه الحاضرون بخلاف شاب مكتنز
الصدر أشقر الشعر ملامحه مندهشة ووجهه منبهر.

تعالى الاصوات المخاطبين فلا يفهم حرف واحد مما يقولون ومع ذلك يستطيع الشاب التقاط كلمات أبيه الجالس جواره يلتفتان مع الحضور حول طاولة وعريضة ممتلئة طعاما وشرابا يتصاعد منه بخار فظنه الابن سيكون لحم مشوي او دجاجة مفرومة، لكن هذا ممنوع هنا فقد وضعوا لهما طعام نباتي بامتياز.

امتعض الابن فور وضع الاطباق المكونة من وجبات الخيار والكرمة او الفواكه التي استحسن وجودها عكس ابيه الذي بدا انه معتاد على هذه الامور، وقد كان يهمس له قائلا وسط الضجة:

- كل او مت من الجوع، ها هنا ليس مكان لشهواتك البطنية.. وإياك الاستياء من ذلك وإلا سيلقون بك الى دوابهم المفترسة التي لن تستاء خلال اتهامك.

همس له بدوره:

- تتحدث كخبير قضى سنين مع هؤلاء المختلين.

نقر الأب رأس ابنه زاجرا ثم عاود الهمس:

- أولا، لا تذكر هاته الكلمة امامهم.

- توقف عن نهيك المستمر، اريد الاكل حالا.

- وثانيا...

فكر مليا قبل ان يضيف بأريحية:

- وثانيا.. استمتع بالطعام الشهي.

واصدر كركرة لم يعتد ابنه عليها ولن يتفاجأ من والده حيث اعتاد على استقبال امور جديدة منه في احايين عديدة، محم بصوت عالي كونه لا يعبأ بنبرته وهو داخل معمعة الزعيق والضجيج والهمهمات ايضا، فتمر لحظة يصمت فيها الجميع بلا سبب وتعلو

الهمهمات الخجولة فما إن تخفت وتخبو حتى يغشاها الصياح والحديث ذو الصوت الجهور.

رغم ان المتحدثين يكتم قناعهم بعض كلامهم لكن انسجام الاصوات يشكل نغمة مزعجة حقا خاصة لهذا لمستجد، كان ابوه يرتدي قناع الاسد فيما أرغموه هو على ارتداء قناع حيوان اليف يدل على عدم إعطائه الثقة التامة كما فعلوا مع أبيه فوضع فوق راسه المستدير قناع قط ابيض مرقط بالأسود فيظهر وجه الابن.

تفحص المكان يثقب عيناه صوب كل تفصييلة صغيرة اتسمت بها الاعمدة الحجرية او زخرفة السقف الصخري وكذا النقوش الغريبة تزين كرسي العرش الخشبي المصنوع من شجر العرعار، واشياء استعصى فهمها.

استقر نظره على زاوية في منصة صغيرة تعلو ارضيتها حيث يجلس فوقها فرقة غنائية اغلب افرادها يرتدون قناع الطاووس والباقي قناع العصفور كما يشتركون في نحافة اجسامهم، كانوا يعزفون على وتر صاخب غير انه لا يتفوق على الضجيج المزدحمة به القاعة التي ارتجت جدرانها وكادت ثرياتها الكريستالية السقوط على طاولة المأدبة.

استغرق الابن ساعة كاملة ليعي انه في وليمة غير مخطط الانخراط في جوها المحموم، وقد ازعجه عزف الفرقة بشكل خانق لأنفاسه وطانا لطبول اذناه، ما يأكله يهضم سريعا فلا يشبع وحتى ما يشربه ساخن عكس الوجبات النباتية المبتلة والباردة مما اودى به الى التفكير: { من بحق ملك الله أعد هذا العشاء الغير

المتناغم؟!.. القاعة باسرها غير متناغمة والناس من ضمنها.. وابي هذا اجزم انه غير متناغم.. يا إلهي، هل انا ايضا غير متناغم؟!..

لكزه والده موقظا إياه من غفوته فقال له جاهرا:

- جرب غمس القرنبيط في كوبك لان مع سخونة ذلك وبرودة هذا فستحلق عاليا، يا بني..

جال في ذهن الابن: { أطلق عاليا!.. هذا كل ما أحناجه }، سخر بادئ الامر من الفكرة وسرعان ما اعد التفكير قائلًا في خلده: { معه حق!.. اريد ان اطيّر بعيدا عن الجحيم الواقع فيه الآن.. حسنا سأجرب ما قاله }.

غمس عوض القرنبيط جزرة طويلة داخل مياه مشروبه اللافح للوجه حيث خفق في معرفة كنه شرابه فخاله ماء يميل الى الخضرة فقط وفور قضمه لأسفل الجزر الساخن ثم ترك فتاته ينسل الى آلة الطحن ليهضمه وهكذا تدفق المذاق اللذيذ الممتزج ما بين الزوجة المبللة مع الرطوبة الدافئة فهتف متحمسا فور ان جاءت لحظة صمت الحاضرين بلا سبب:

- اللعنة!.. هذا الذم من كل وجبات امي والذم من حليب امكم جميعا وافض...

بتر عبارته فيما ظل صدى صوته يتردد في ارجاء القاعة متعلقا تحت السقف يتكرر الى ان تلاشى، ساعده أباه لما ضحك كاتما الامر بين اضلع صدره من ثم فجر القاعة بقرقرته المتعالية فتبعه أحد جر بدوره معه آخر الذي حفز ثلثة على القهقهة الخافتة لان الضحك هو ما كانوا عليه أنفا فربما تعبوا منه.

وفي الاخير اطبق القلة الضاحكين افواههم في آن واحد بينما فتح باب بجانب العرش وتدفق منه رجال مختلفي الاشكال والالوان والأقنعة، معظم أقنعتهم تنتمي للحيوانات الضخمة مثل الذي يرتدي وحيد القرن والثاني يضع راس غوريلا ضخمة شديد السواد ويميل وجهه الى الصفرة، وهناك رؤوس الفيل وفرس النهر وتمساح ذو فم طويل شكل صعوبة لمرتديه في التحرك إذ يصطدم فيه دوما بظهر احد او حينما يدلف باب يعلق راسه من جهة وفمه من جهة اخرى تماما كما حدث معه الآن.

ثم دلف رجل ضخمة الجثة عاري البطن والذراعين فيما يغطي صدره بدرع بني قاتم من جلد الماعز، ويحيط راسه نمر برتقالي مخطط بالسود له بقع بيضاء كالأخدیه ومقلتيه كما نبتت شعيرات شاربه الابيض كإبرة حادة الشفرات.

من وراء القناع تطل عينان مدهامتان راح صاحبها يزوم بأنفاس متصاعدة كمن يبحث عن فريسته، فهذا الرجل أتقن دور حيوانه اكثر من اي شخص، سار بخطوات ضاربة الارضية الخشبية فتحدث طقطقة، كان متجها نحو صاحب الاسد يرمقه بنظرات نارية فوقف ورائه ثم حطت قبضته على حافة الكرسي وحاول إسقاطه أرضا فما استطاع لذا قال مزجرا:

- تتجراً على ارتداء هذا القناع ثم تستعصي على الوقوع. هل تنافسني في عقر داري؟
استهزأ الأب قائلاً بغم ممتلئ:

- ومتى كان لزعيم الدواب مستقر.. الم تتعهدوا ان تكون الارض كلها منزلاً ام غرتك القلاع المحصنة

وأسالت لعابك المدفأة بجانبها طاولة حبلى بالطعام
فتتكى على كرسي ناعم.. كم ضعفتم يا جماعة؟.

اندهش الجميع من معرفته لمثل هذه الامور الفائقة
السرية يعلمها فقط المنخرطين والحاصلين على ثقة
عمياء لدى المنظمة، كما تعجب النمر متلعثما في كلامه
قبل ان يجمع شتات نفسه صائحا:

- صار الآن البادي والغادي يعرف هيكلنا بل كل جزء
من نظامنا.. كيف عرف احقق عجوز مثل هذه الامور..
أها؟

أخذ الاسد يمص قطعة مستديرة لطماطم طازجة
وباردة عندها شرب كوبه الفارغ لكنه يتلذذ القطرات
المتبقية ثم هب واقفا قصد التقاط عنقود العنب بعيد عن
متناوله فاحس بيد خشنة تقعده من كتفه فجلس مرغما
راسما شبح ابتسامة ليدفع نفسه للخلف ناطحة قفاه
أنف النمر الذي ارتمى ماسكا الهواء فارتطمت مؤخرته
بعنف مع الخشب المتحجر متحسسا الدم المنساب من
انفه خفيف وشديد الحمرة.

بسبب ذلك توترت الأجواء وارتبك الحاضرون بينما
استل الرجال المرافقين للنمر دزينة أسلحتهم القوية
رغم بدائيتها تتكون من عمود رقيق وطويل على نصله
شفرة حادة تشبه الموجودة في الاسهم، ما عدا
التمساح المدجج بمنجل صدئ الا نصله الحاد ويده
الآخرى تقبض بقوة نصف مقص كبير وكذا باطية
الغوريلا الكروية الشائكة.

لعق الاسد العجوز اصابع يده جيدا بشكل مغيب ثم
قال بخفة دم:

- لم اكن اعلم مدى لذة الطعام النباتي الى ان تذوقته.

والتفت يمينا ثم شمالا يراقب الاعين ليضيف:

- ام انكم اضفتم هذه الوجبة في غيابي؟

فكشفت عن اسنانه البيضاء ضاحكا وسط الجو المشحون، وقال ملتفتا صوب رفقة النمر المتسلحين بأغرب الأسلحة الفتاكة على ما تبدو:

- طورتم معداتكم ايضا.. هممم!.. حسنا، أظنني قصرت في خدمتكم سابقا ولما حصلتكم على شاب يقودكم تغير حالكم عكس تفكيري القديم.. اعترف بهذا وأقرّ.

حرك عيناه اقصى ما يمكن للخلف بعد شعوره بجسد النمر يستقيم كبركان ثائر، وبدون الاستدارة اليه هدر مخاطبا الجميع بنبرة عالية وحازمة:

- ها قد عدت إليكم بعقل ناضج ومواكب للعصر فتخلصوا من سيديكم الحالي او المؤقت.. ودعوني أقودكم مجددا.

تحدث النمر بنزق قائلا وصوته الحاد يחדش اذنا الاسد:

-لست من أقودهم أيها المختال الفخور.. والد هذا هو القائد الحالي لا المؤقت.

فوجهه سبابته الى يورام الواقف خلف العرش يشبه الخادم بملابسه البالية الرثة ولا يرتدي قناع بحجة ان وجهه عبارة عن قناع دجاجة منتفخة عبر التجاعيد والتجاويف المكتسية لجلد محياه كأنه جبل متآكل.

حمحم الابن الجالس بجوار الاسد العجوز ليستعر انتباهه حتى يقول له بخفوت:

- اسمه يورام يا ابتي.. اعلم انه قد يكون مشتق من كلمة يرام.

همس لابنه مغطيا فمه المتيبس بكفه الخشن:

- توقف عن تنظراتك.. من اين تأتي بمثل اقوالك هذه؟..
- انت المهترطق دائما.. من المعلوم انه يقال هل انت على ما يرام واجزم انه اشتق منه الاسم.
- لماذا تزوجت أمك؟.. كان من الاجد...

ما كان الناس يستمعون من حديثهم سوى الوشوشة، وبدأ غضب النمر يخمد رويدا رويدا لعله تعرف على صاحب قناع الاسد أو خاف على حياته فكثير من الخرفان يختبئون وراء اقنعة الاسود، ومع ذلك لم يمنع نفسه عن بنس نبرة تهديد:

- يا هذان!.. اتبعاني الى مكان القائد فهو الذي سيعرف ما يفعل بكما.. تعالاً!..

رافقاه بهدوء شديد من كلا الطرفين ودلفوا بابا طويلا لكنه ضيق فداعبهم الظلام الجائح خاصة في غياب ضوء المشاعل الخامدة، لمح الشاب التمساح يعلق فمه ثانية في المدخل مما ابتسم ضاحكا ثم تملل مخاطبا نفسه: { كم قضيت في تلك الزنزانة الكئيبة؟، تشبه هذا الممر الموحش }.

بلغوا مدخل مقوس تحجب الستائر المخملية اللامعة عن ما يوجد داخله، استوقفهم النمر بيده قائلاً:

- انتظرا انما ريثما اعلم الزعيم.

ليس هناك داع لمعصيته مما امتثلا منتظران والثلة المدججة تحوطهما وتقذفهما بالنظرات الشكاكة، كان الاسد متكئا على مقبض سيفه المثبت في الجهة اليمنى فيما ظل ابنه غير مسلح لا بسيف او إيمان أو يقين في ما يفعله ابوه طوال هذه المدة التي قضاهما مسجون لا يعلم ما لذي يحدث لوالده.

حاول الابن مرارا نزع قناعه بفعل تضايقه من الصوف المحشو في اذنيه فيدغدغهما غير تراجعاه امام مراقبيه الذين باتوا معه كل تلك الليالي حتى ظن انهم اخوته يخفون عنه الأمر.

وقد اراد الخروج باستنتاج منطقي حول سبب معرفة أبيه لهؤلاء القوم من قبيل: { متى التقى بهم وكيف؟! .. فانا الذي لم اكن افارقه في صباي، ولكن هناك فترة غاب عني وعن والدتي التي بدت عالمة بمكانه وعمله نظرا لثبات ملامحها.. آه لو ظلت افكر فلن انتهي بتحليل يشفي غليلي من توريط ابي لي معه اينما حل وارتحل.. ذلك العجوز لا ينفك عن الارتماء الى احضان المشاكل، والأسوأ من هذا هو جرّه لأحد معه اليها }.

رفع نظره تجاهه كأنه يخاطبه: { صرت جامدا وهادئ على غير عاداتك.. هيا، اسألني.. اسخر مني.. اطمئن بنفاق عن حالتي.. لم أنت صامت هكذا؟.. تبا، وتبالي ولتعطشي من اجل معرفة اسرارك، لا شك انها حيلة استعملتها لتجذبني الى صفك بعدما رفضت امي ان اسافر معك.. الآن عرفت قدرها وغبائي، لاستقرت بجانبها افضل من الانضمام الى حياتك الغامضة، بل التافهة }.

اتسعت عيناه منتظرا إياه ان يكلمه حينما حرك شفاته فقال بجمود:

- كيف تمكنت من تطوير أسلحتكم بلا موارد؟

التفت الابن خلفه مندهشا وفاغرا فاهه يحدق في صاحب التمساح المحيط بهما رفقة الآخرين، فتردد الأخير في الإجابة الى ان خمد حماسه للرد معلنا عن لا

مبالاته عبر تحديقه للسقف المصطبغ بالفضة لدرجة يرى صورته ولو فيها اعوجاج وانبعاج.

ترك الأسد مقبض سيفه الذي يبدو عادي من ناحية الغمد والمقبض، فهتف لصاحب الفيل:

- لم تفهموا ما أقوله، انتم أناس لا تعون معنى السخرية.. يا بني اشرح لهم ما قلته.

استغرق فهم ما يعني أبوه بقوله للتمساح هنيهة حتى استوعب مغزاها وشرحها لنفسه: { لقد استهزأ من اسلحتهم البدائية التقليدية حيث سألمهم عن طريقة تطويرها وهي التي لم تكن أصلا في حالة يرثى لها ومن ثم طوروها بل ما زالت أسوء.. هاها!.. مضحك يا ابي.. مضحك جدا }.

نسج آخر كلماته بحنق رغم عدم الجهر بكلامه إذ اكتفى بنفسه فقط، وزفر الأسد مرتخيا وهو يقول:

- يصيبكم الخرس مع حلول منتصف الليل.. حسنا، حسنا، فهمتكم.. رباه اين غاب ذلك القط الأشعث؟

اغتصب الابن قوله جاها:

- لا ريب انك تعرف كل شاذة وفاذة هنا.. كما تعرف كم سيتطلب منه ليصل الى مقر الزعيم.

حتى لو ابتسم لابنه فلن يظهر ذلك من تحت الشارب النابت في قناعه، وشابت نبرته قهقهة خافتة وصوت ممازح:

- أنت تنتظره لكي يصل الى زعيمه الذي لن يصل اليه أبدا.. هل بدى لك انه سيذهب لإحضاره؟

- وماذا غير ذلك سيفعل؟

التفت الاسد ببط للقائل واجابه ببرودة:

- انت ادري يا راس فرس النهر.

تكلم فرس النهر حانقا:

- هذا ليس رأسي أيها.. لم أملك حرية اختيار قناعي.
علق على قوله صاحب القرد الضخم وصوته أجش
كدابته:

- لكنه يناسبك شكلا ومضمونا، توفق بامتياز من
اختاره لك.

ارتفعت الأحاديث متقاذفة فيما بينهم ومعهم الأسد
العجوز منخرط بكيانه بينما تأفف الابن لاعنا موقفه
وكذا محاولا الهروب بخياله من أرض الواقع، جهد
نفسه لتذكر أمر مريح يرفعه ويرتقي به، وفي الأخير
صار مصدوما مفزوعا، عيناه مفتوحتان عن آخرهما
واسنانه البيضاء صاكة كأنه يعض شريحة لحم.

لقد عرف مدى شقاء حياته، مدى حزنها، مدى:
مستحيل!.. ولو لحظة واحدة مفرحة.. لا بد من وجود
حدث سعيد وقع معنا أو حتى مع أمي.. فقط أريد حدث
مع نفسي.. لا أستطيع تذكر اي شيء.. ربما نسيت..
كلا، فلم أتذكر اللحظات التعيسة أصلا.. لم انساها هي
الآخرى؟، إنما هي الأجدر بالنسيان.. حسنا، لا شك أنه
لدي حدث مفرح مع والدي الذي كنت كظله.. بل لا
يوجد حتى حدث محزن أو مأساوي.. ماذا كنا نفعله كل
هاته السنين، ومن ثم هاته الشهور القليلة التي
قضيناها معا بعدما غاب عني.. لا اعلم المدة
بالضبط..}

بلع ريقه ومسح قطرات العرق من جبينه ثم حدق
في السقف يرى نفسه بشكل سليم غير معوج: { إذا كل
تلك اللحظات السعيدة كانت مجرد مخيلتي فلماذا
تخيلتها؟.. ما لداعي لأن اتخيل السعادة مع هذا العجوز

الأرعن.. فحري بي تخيلها مع امي.. اصدقائي.. أوه!،
لدي اصدقاء.. أو مع زوجتي.. أوه!، لدي زوجة {.

شعر بيدين على كتفه وها هو وجه أبيه النضر
البشوش حيث خلع قناعه، بل ارتدى حلة نظيفة،
بيضاء ملفوفة حول جسده كله، كان هو مشدوها
مغرورقا بالدموع: { أبي.. ما لذي حدث؟.. لا تتركني..
لا!!.. ابقى مرتبا كتفي، أرجوك.. هذا كل ما أطلبه؟..
لا، هذا كل ما أطلبه؟!.. {.

كلما ابتغى نطق تلك الجملة تحولت نبرته الى سؤال
استنكاري لعين، اراد تقبيل جبينه فحوطت يد طويلة
بطنه ثم أرجعته بعيدا عنه، عن مرقد أباه.

واصل كلامه سرا: { ابتعد عني.. ها!.. انت رأس
ثعلب.. كيف حدث هذا ولم؟.. {
أجابه بنبرة تشبه الفحيح:

- انظر لجمال فراشه.. لم يكن ليحلم ان ينعم به في
حياته.. فها هو يتمتع به.. أه! نسيت هو لن يشعر
بنعومة مرقده وكذلك لن يستطيع استنشاق البراعم
والروائح الزكية لورود أحبائه.. أخبرني أيها الشقي ألم
تحضر وردة وداع له؟.. لا يا حبيبي هذا سلوك شائن..
اذهب حالا وابحث لك عن واحدة.

شعر باليد تفلته ثم تدفعه ليخترق الستائر فسطعت
الشمس لافحة وجهه المنكمش، لم يفلح صد كفه
لخيوطها الذهبية لكنه اعتاد بريقها سائرا فوق بساط
اخضر طبيعي يتوسط اراضي سابعة في الورود
الحمراء والصفراء والبيضاء على حد سواء.

لمح الخيم العديدة والمتعددة الألوان متناثرة الى حد
الافق في كلا الجانبين، أكمل سيره المتناقل والمترنج لا

يكاد يستوعب ما يجري، ثم أخذ الحاضرون يقتربون منه بدا على محياهم الأسى والحزن والشفقة، حاملين لشتى انواع الورود والأزهار البهيجة وايضا بضعة منهم يحمل سلال حبلى بها، والبضعة الاخرى تحمل أكاليل تلمع فيها ضوء الشمس.

هبّ بالصراخ عليهم كي يتوقفوا أو يشرحوا له ما يقع، كلهم رفعوا أيديهم تجاهه كإشارة لأخذ الوردة منهم، وجميعهم هتفوا تصاعديا كموجة:

- هاك يا بني..

- هذه أفضل من في المجموعة.

- تعال وخذ هذه فرائحتها أزكى.

كانت نهاية الطريق الطويل لا تزال بعيدة عن متناوله ففكر العودة الى الداخل متحاش هؤلاء الغرباء، لما التفت محققا في اللافتة المكتوب فيها "...". صاحت فيه امرأة للدلوف بسرعة لكنه بقي جامدا مما اضطرت الى سحبه من يده رغما عنه قائلة في تهور:

- عليك الإصغاء لخالتك فما زلت صغيرا على العصيان.

اثناء طريقهما قَرَّب راحة يده لعيناه النابهتان الصغيرتان كيديه فاستغرب أكثر من تعجبه لعدم تأثر خالته وحزنها التي بدت مبتسمة ولامحها طبيعية عكس الغرباء البائسين، أوصلته الى غرفة تظهر منيرة بأضواء الشموع الحمراء، دلف طوعا وخجلا كما حرك عيناه متفحصا المكان المضيء كأنما وضع داخل مشكاة.

كانت هي وحدها جالسة على طرف سرير لا تكف عن النواح، بيد انها اوقفت ذلك بمجرد نداء ابنها لها، رفعت رأسها الملفوف حوله شال وردي ينسدل على

كتفيتها كما ينسدل شعرها الأشقر الذي تبرز خصلاته،
مسحت الدموع من وجنتيها المحمرتان والمبتلتان.

في نظره لا زالت شابة غير ممثلة بالتجاعيد وهو
أمر لم يسبق ان رآه، فتذكر وجهها المتشقق واليابس،
وكذا الهالة الزرقاء الداكنة تكتسي مقلتيها، أما أمامه
فتاة عشرينية بلا ريب ففكر مندهشا: كم عمري في
هذه اللحظة؟!.

هبت نسمة خفيفة منسلة بين شقوق الجدران
المكتسية بفتات الأحجار وثقوب النوافذ، داعبت النسمة
كلا وجهيهما البريئان في حنان ما بعده حنان، ونطق
غير مصدقا نبرته الطفولية:
- أمي!.

ظلت الكلمة الخافتة معلقة في السقف المتآكل وكما
ارتعش من صوتها العذب بخلاف ما اعتاده النبرة
المحشجة حيناً والخشنة أحياناً، فقالت:
- نعم، يا حبيبي طارق.

- ط-ط.. من هو؟

وضعت كفها على فمها كاتمة القهقهة الرقيقة ثم
لفظت قولاً لطيفاً:

- أضحككتي يا قرة عيني.. لا تقل انك نسيت اسم
والدتك أيضاً.

- إن كنت أتخيل الأمر فحان وقت الاستيقاظ.. أود
التحدث معك بشوق، ولكن.. ينبغي المضي قدماً في
ارض الواقع.. أنا أسف إن أخطأت في حقك يوماً ما.
أعدت القهقهة الرقيقة فأمسكت حذافير شالها
مداعبة نعومة حريره قبل ان تقول هاتفة:

- ابني يعتذر مني.. آه! هذا هو حلم الأمهات لعلمك..
وكذلك طريقة كلامك ناضجة فأخاف ان تكون متأثر
بالأفكار الشاذة المنتشرة في أرجاء مملكتنا العزيزة.

بعدها فرقعت اصابعها إلا إصبعين متواجداً في
خنصرها خاتم صغير نحيف مرجاني اللون، اما في
بنصرها خاتم ذهبي وعليه حجارة فيروزية براقية،
مطت شفيتها معاً ثم قالت مدندنة:

- يتبقى لك ان تعي ما هو الحلم.. وما هو الواقع؟.

- كيف ذل...

- بأن تعلم مكان تواجدك فيما بينهما.

لوت رقبتهما حتى سمعت طقطقة مثيرة جعلته يرتجف
واستمرت تتفوه صوت غير مسموع غير ان كاف لان
يسمعه شخص واحد قريب منها وهذا ما كان عليه
ابنها الداني إليها في حيرة من أمره بغرض الإصغاء
لكل حرف تنطقه أمه المثيرة للريبة.

كان صعب عليه الإجابة عن سؤاها فأخذ يردده في
ذهنه وكذا يلفظه بخفوت وتمتمة: { اين أتواجد أنا
حالا.. اين اتواجد؟.. تقصد المكان الذي أرغب التواجد
فيه أم اين انا وسط الواقعين، بل الارضين.. ارض
الخيال وارض الواقع }..

- لا تصعب الامر اكثر مما هو معقد.. ما اقصده هو
مدى صحة ظنك في واقعية الحلم والخيال الذي تنسجه
وكذلك ظنك انه خيال وغير مصدق ما تقابله في واقعك
فتخاله مجرد حلم أو تخيلات لا تقبل ان تصبح واقعا..
هممم؟.. لم تحدد اختيارك بعد، سحقا! أهذه هي
الطريقة المثلى للهروب من الحياة، من العالم الملموس
المفروض علينا فرضاً؟.. الا تصدق ما تراه وتصادفه..

ان ترجعه الى الخيال اللامشروط.. من يدري سبب بلوغك لهذه الحالة المحرجة، لكني أدري أن ذلك ليس مرده أنا بمفردي وإنما أتشارك المسؤولية مع والدك المغفل الأناني، وهذا المحيط الضار دون أي نفع يذكر.

زفر الابن مغتاظا بعد شهيق طويل بينما واصلت والدته الكلام لا تفتأ تعاتبه وتلومه في حديثها المنرفز له مرارا وتكرارا وهو يرغب فقط بالراحة والسكينة فتتحج:

- صمتا.. صمتا..

سيقاتل من اجل الهدوء:

- توقي عن الكلام.

بل سيقتل من أجله صارخا:

- أيتها العاهرة العجيبة!

ما هي إلا لحظات خاطفة حتى وقف قبالتها رافعا يدها المفتوحتان التي طوقت عنقها تخنقها بكل إصرار وغيظ فائض عن حدّه اللازم لدرجة اخترقت أظافره اللحم بعد الجلد الشفاف وما زاد غيظه سوى نظرتها الباردة المبتسمة دون سبب.

عوض الصراخ او المقاومة كانت تضغط علي يديه ليزيد من الخناق ولما حاول إفلات عنقها صدته عابسة لأول مرة وصاكة اسنانها في حنق فيما تساعد أظافر ابنها المفزوع في الاختراق إذ شعر بهم يوشكون الاقتلاع من جذورهم فإمّا خسارتهم أو سلب حياتها.

حدقت فيه بوجوم دال على بأسها منه فقالت

غاضبة بنبرة شيطانية:

- خيبت أملي فيك، لحد الآن تعجز عن التوفيق في الاختيار، والحزم في اداء ما اخترته.. ما دمت متردد

هكذا فسوف تخسر الكثير والكثير حتى لن يبقى لك
لا احبائك ولا نفسك.

بصقت في وجهه راسمة ابتسامة خبيثة ولافظة
كلمات متذبذبة النغمة كأزيز مستعر:

- واسفاه!.. سوف تظل متردد.. سوف تظل..
هاهاهاها!

- توقف!

..استل الأسد سيفه صادا الحديد الهاوي صوب
رقبة ابنه فتولدت صيحة إثر قبلة الحديد للنصل، ورفع
الأب يده اليمنى للأعلى لكي يبعد الشفرة الحادة عن
مؤخرة عنق ابنه الذي كان يعصر عنق رجل مخيف
الوجه بندباته الضخمة، يزينه شعر أشيب كعش الطير
يستدير فوق أديم راسه الأبلق المربع.

صاح النمر نحو الأسد بصوت أجش:

- ماذا يعني هذا؟

- ربما أصابه شيء.. أنا لا أعلم عنه كثيرا.

هتف التمساح مندفاعا صوبه:

-إنه.. ابنك!

بسرعة أبعاد عنه النمر ليجر سيفه أفقيا تجاه منجل
التمساح فتكررت الصيحة المزعجة، يعاود النمر رفع
سيفه ليهوي به هذه المرة على رأس الأسد فانتفض
الزعيم دافعا الابن بعنف حتى ارتمى محتضنا الارضية
الرخامية البنية، واعلن فاتحا ذراعيه:

- انتهى النزال!.

كان لمرافقون متأهبين للهجوم في أية لحظة
ينتظرون فرصة سانحة ثم خمدوا فور صياح زعيمهم،

ولعل بصيص من الحماس ظل مختبئ بين اضلع الغوريلا الذي ما فتئ ان قال:
- وهل بدأ النزال بعد؟

ثم قفز غارسا رأس رمحه في الأرضية الصلبة حيث ابتعد الابن بخفة عن الضربة الساحقة وسدد لكمة لا تناهز قوة الضربة، لكنها كفيلة بإرغام القرد الضخم ان يعيد النظر في حماسه المفرط.

استغل التمساح غفلة الاسد عبر جذب منجله اليه ومن ثم توجيه النصل صوب حنجرته فدفن نفسه بقوة واضعا أملا لشقها كون الهدف قريب جدا، وفجأة صار فم الاسد قبالة الشفرة عوض حنجرته فولج الرمح قليلا الى جوف الأسد إلا ان أطبقت أسنان الأسد لا الإنسان على صفحة النصل المخرومي لحسن حظه كان نحيفا فلكان كسر أضراس قناعه الهشة.

بفضل صياح الزعيم مجددا منع التمساح عن نفسه اختراق قفا الأسد وهذا أمر هين بالنسبة له نظرا للأسنان الوشيكة على التهشم لو زاد الاسد لحظة واحدة من عضه، لكن التمساح أخرج المنجل متفاد وقوع ذلك، ثم تراجع واقفا بجانب رفاقه مذعنين لأوامر زعيمهم المنتصب القامة، والمنفتح رويدا من ناحية صدره وبطنه حيث يظهر قوي الشكيمة كثير الزفير فتشي نبرته الخشنة والجائرة بجديته وصرامته، ربما قد ولد عبوسا وثاقب النظرات الى يومنا هذا.

في حين رضوخهم للأمر الصارم استمر في النزال القرد الضخم لا من راسه ولا من هيأته المغطاة بفرو أسود وصاحبه متوحش من خلال حركته الهوجاء، فيلهث ناثرا لعابه التخين ويذره يسيل من فمه ليبلل

عنقه المصطبغ بسواد الفحم. تسليح ببساطة كروية
الرأس ذات أشواك ماضية بوضوح من لمعان شفرتها
بفعل ضوء الشموع المتوهجة.

بعدها سدد له الابن لكمة متفجرة لوجهه ومحدثه
ضرا بليغا، فقد سقط قناع الابن لذا استخدمه في لكمة
متشبثا بالفرو الناعم وموجهها الطرف الصلب الى خد
الغوريلا مما خلق تمزقات لدى القناعين معا.

قرفص القرد المتوحش مطبقا نفس حركات حيوانه
حينما خنخن واصدر نهيتا طويلا ثم طفق يزوم قصد
إرباك فريسته وحملها على الفرع لئلا تقاوم بأي شكل
وقد نجح بجدارة في تطبيق الحيلة رافعا عقيرته يتطاير
اللعاب منه كمخاط أبيض، ولولا تدخل الأسد في الوقت
المناسب لما استطاع ان يفلت خد ابنه من أسنان البلطة
الكروية التي عاق نصل السيف المشحوذ طريقها
المحدث لهسيس جراء ضرب الهواء بخفة.

ما أحبطه الصدف فكر الضربات المتتالية من جهة
واحدة بينما يصدها الأسد المعتاد على نفس الجهة،
وهنا نجح الغوريلا في تطبيق حيلته الثانية عبر إيهام
خصمه انه لن يغير اتجاه ضرباته ثم يفاجئه بضربة
غير معلوم مركزها.

بغثة انطلقت تسديدة نحو الاسد هدفها اسفل الإبط
الأيسر فحالفه الحظ عندما تمكن مقبض البلطة بلوغ
أضلعه هاشما إياها عوض ان تخترقه الأشواك بلا
رحمة، فضل الألم من هاتمه الضربة ألف مرة على ان
تعلق النصول الشائكة فصك اسنانه يئن وتحسس
موضع الكدمة.

كان الابن يحدق تارة في الزعيم لعله يصيح أمرا
القرء بالتوقف، وتارة اخرى يتمتم: {أبي!}، التفت إليه
الأخير قائلا بشق الأنفس:

- ألم تتنت تعلم.. بعد عدم الاعـعمـعماد.. على أحد..
سوى نفسـسك؟.. انتظر هذا.. الحقيير.. لينـقذك..

جاهد نفسه لنطق كلامه جاثيا على ركبتيه ويداه لا
تفارق الكدمة، وأشار بعينه الى الزعيم فقال كازا
اسنانه بشدة:

ل- ا.. أنا ولا.. ذاك بقادر على..

زفر مطولا قبل ان يردف:

- تقديم العون.. لك.. يجب أن تعلم إذا كان يستحق أي
شخص.. أن تساعدـده..

صاح في أبيه باكيا:

- اصمت!.. لا تتصحني بعد الآن.. إن كنت أرغب في
مساعدتك لفلت دون حاجة لطلبك أو أن تخبرني متى
أفعل ذلك.. كلاكما لا تكفان على النصح والكلام الفارغ..
لا بد أنكما لم تحظيان بمن ينصحكما على الإطلاق لذلك
تفرغون جعبتكم عليّ وعلى حسابي..

- من تقصدنا بأنتما؟

- أنت تعرف، لا تتصرف بجهل.

بلغ الابن ريقه مخاطبا نفسه: {كان العالم يتوقف
عندما أوشك تعلم شيء جديد}.

ورفع راسه ناحية الزعيم قائلا بدموع منهمة:

- مهما تظاهرت بالحزم والصرامة سوف تنتهي
تمثيليتك عاجلا أم آجلا.. تبا، توقف عن التظاهر
بالظهور كشخص واثق من أفعاله.. ما أنت إلا مجرد
فكرة طرأت على رأسي الفارغ من ترهاتكم!.

أحدث الزعيم البارد صوت من لعق لثته العليا فهم
يحادث الابن ما إن اهتز لمواصلة الكلام فطغى صوته
الجاهر على نبرته الباكية المتألّمة:

- أنت عار موصوم على هذه المنظمة.

هتف الأسد مندهشا:

- كيف هذا وهو لم يكن أصلا منضم لها؟!.

اجابه ببطء:

- من يطأ أرضنا مرتديا نفس أقنعتنا فهو منا.. ليس في

مصاف مرتبتنا وإنما تابع يخدم منفعتنا بالتأكيد.

وصوب نظره تجاه الاسد قائلا:

- عار يشاركه اباه للأسف ايضا.

تحفز النمر مخاطبا زعيمه:

- ألم أخبرك بأنه ادعى ريادتنا سابقا.

- لم ادعي، يا غبي.. أنا لا زلت سيدكم.

زاد الزعيم من عقيرته:

- استنادا الى ماذا؟

- الى العرف المتداول بيننا.. هل نسيته؟.. إذا نسيته

فيجب ان تعدم فورا.

- الإعدام أمر لا محال منه حينما تعتلي هذا المنصب،

فبكثرة الأعراف غدى كل قادتنا السابقون تحت حضرة

المقصلة.. مستحيل ان تكون قائدا ولم تعدم بعد.

زفر الأسد بأريحية وهو يقول:

- فلتعلم يا حبيبي ان دائما هناك استثناءات.

- فأين كنت إذن؟

- مهلا، لا تصرخ في وجه زعيمك.

ارتعش الرفقاء أجمعين فكان النمر هو من ركله في
أربلة ساقه عدة مرات غاضبا من أجل سيده وفي كل
ركلة يتخللها قوله:

- هو الزعم الشرعي.. هو الزعيم الشرعي.
بدون سابق إنذار أحس النمر أسنانه تنقلع من
جذورها وتتكسر لما سد الابن ضربة بالبلطة التي ظل
ممسكا يد صاحبها فيما يجرها نحو ذقن النمر في
الضربة الأولى، وفكاه في الضربتين الموالتين ليختم
بتسديدة نحو الفم قبلما ينطحه الغوريلا حتى ارتمى الى
احضان والده.

تقدم صاحب الفيل صافعا قفا القرد الضخم قائلا:
- بهذه السهولة تحكم فيك فتى أصغر منك حجما
وعمرا.

صاح فيه بدوره مدافعا عن نفسه:
- لقد كنت منتبها مع حديثهم المشوق، وها أنت قلتها
بصغر حجمه أمام طولي تسلل الي و.. معك حق.. كيف
تمكنت من تحريك يدي الضخمة بالمقارنة مع يدك؟!
كان الابن غارقا في خياله إذ يشعر بحضن والده
الذي يربت على بطنه قائلا:
- انهض بسرعة.

ظل يفكر: { نسيت حضن أمي ايضا لدرجة لا أخال
نفسى حظيت بحضنها منذ ولدتني }.
دفعه أبوه جانبا حينما استعصى النهوض ليذره
يواجه هؤلاء الحمقى، لكنه يتساءل مثلهم عن سبب
قدرة ابنه تحريك يد الغوريلا كدمي: { لو حركها عن بعد
لكان ذلك واضحا أنه يمتلك قدرة خارقة، أما هو فقد

استعمل يده الضعيفة امام راحة يد الآخر.. ظننت انني الوحيد الذي أخفي عنه بعض الأمور {.

خلال توتر الأجواء طأطأ الزعيم رأسه يائسا ومدندنا: {
يا لها من ليلة ملعونة.. وددت فقط الاستحمام داخل
خوض ساخن ودافئ دون إزعاج.. لم لا أفعل ذلك
الآن؟.. ليس ضروري أن أنهى عملي لأدعه للنمر توبر
نائبى ومستشاري أو أفوضه الى ابني الهزيل الغير
النافع.. ابني! ترى كيف حال سرتك.. سحقا، تركته مع
أحقر رجل في التاريخ وأرجو ان يكون بخير.. {.

خلال غفوته ضجت غرفته بأحاديث مرافقيه مع
الأسد فيما استأنف هو حديثه المبهم: { هذا ضرب من
الجنون.. كأنه سيهمني معرفة سبب قدوم بيلوف رفقة
ابنه.. مرّ زمن طويل على لقائنا الأول {.

رفع رأسه شامخا يلفظ أنفاسه مرفقة بأقوال:

- مرّ زمن طويل على لقائنا الأول يا بيلوف.. صدقتي
أتعشم معرفة سبب قدومك، وقبل هذا خذ لك حماما
واحظى بنوم هنيء، أما ابنك فاتركه مع ولدي غدا لكي
يتعرفا.. صدقتي أرغب بشدة معرفة دافع قدومك
وايضا.. دافع غيابك الطويل.

تعاليت همهمات الرفاق المدججين تصاحبها تأفف
والضجر من قراره، وكما أن النمر هم ناهي زعيمه
فخانه فمه المهشم حيث ظهر صفي أسنانه خاليان
لكنهما لقتاعه لا أسنانه الحقيقية ومع أنه غاص في
شخصية دابته صار متأثر بما يصيب قناعه.

بحركة من يده نوى الزعيم إنهاء الجدل قبل بدأه
فأشار للضيفان بيده الى باب من خشب أسود، سارا
مترددان وما إن دلفاه حتى زعق الزعيم في الرفاق:

- ألم تسمعوا أمري بالتوقف، هاه؟.. انتم من استمريتم في القتال، ولا أستثنيك يا توبر.

ارتبك النمر بمجرد نطق اسمه لأن الجميع هنا لا يعتادون سماع أسماءهم كثيرا، بل يكتفون بالتسمية حسب نوع الدابة التي لا تكون مكررة، وكذلك كان الزعيم الأسبق يؤيد النداء عبر تصويت كل فرد انطلاقا من صوت دابته، لكن الزعيم الحالي منع ذلك بحجة الإزعاج وهو الرجل الهادئ.

أمرهم أن يغادروا حالا فتريثوا خلال مغادرتهم، ثم جلس إلى أريكة عريضة تحمل فراش رطب فارتشف من النبيذ ما يهدئ أعصابه فيما يهمهم: { هكذا أرخي أوتار أعصابي اللينة.. لكل منفعة حتى هذا الشراب الخالي من الحياة.. الله!.. راحة فما بعدها من راحة، لأقتلن كل من سيقاطعها..}.

دلف ابنه هاتفا:

- أبته!

اعتدل الزعيم في جلسته ناطقا: { ربما سأؤجل قتلك لاحقا }.

ونتف شعره المشابه لعش الفراخ صائحا:

- أعلم أنه يشبه عش.. هيا قل ما تريد وارحل فلقد ضقت ذرعا من تعليقاتكم التافهة.

- هاه.. لست من يقول ذلك، هذا ما أسمعه فقط.. أنا لن أعيبك قط..

- ماذا تريد؟

- أطمئن على ذاك القادم لا شيء غير هذا.

عاد الزعيم للجلوس مرتخيا ثم قال بصوت رخيم:

- إنهما في راحة، لا تزعجهما حتى الصباح.. بينما
سأحدث الأب رافق أنت ابنه وتسليا كما يحلو لكما..
واحذر فإنه أكبر منك رغم شكله الطفولي فلا تزعجه
بلعبك التافر... التافر..

- تافر.. ما معناها؟!!

- كلمة تعني رائع.. لو كنت تواظب مطالعة دروسك لما
سألتني.

هز الابن يداه متعجبا:

- دروس في فترة الراحة!

- اعلم جيدا أنه ليس هناك فترة راحة أبدا.

حك اذنه قائلا سرا: { علي الاستحمام في الحوض

بأي ثمن }.

- أبي، إذا وردك خبر عن أخي فأرجوك لا تخفيه عني.

- أعدك.. وعد الرجال.

أتم ابنه كلامه رخوا:

- .. الذين لا يخفون.

- ها.. من أين سمعت هذا الهراء؟!!

قهقهه الابن بخفوت مضيغا:

- من كتاب قيم.

- احذر الكتب المنتشرة في أيامنا الحالية.. لقد كثرت

فيهم أفكار شاذة.. هيا، اذهب لتنام.

وأنت؟.

- أنا بخير هكذا.. لا، لا تقل لي أنك ستتسامر معي.

طأطأ ابنه رأسه ثم غادر بتثاقل مدندنا:

- حاضر ابتاه.

حينها اتكأ الزعيم مسندا رأسه الى يده وماسكا

بالأخرى كتاب عنوانه: " كيف تفكر كالنساء؟ ". في

الخارج على شرفات الأسوار المزريّة قلّ الحراس المراقبين للمكان فهم يتقَامرون على من سيحرس ليحصل الثلثة الفائزين على فراغ يقضونه في اللعب والمزاح.

كما قلّ حضور النساء إلا في المطابخ المتعددة حيث يمنع من الخروج الى أي مكان غيرها، ففيها أسرتهن للمبيت ومراحيض وكل ما يحتجن، وعندما تستدعي الضرورة للخروج كتشقق الهواء أو إحضار الطعام من الحظيرة الصغيرة يكلفن واحد. كل مرة تقوم بالمهمة.

استحم الابن رفقة اباه في هدوء تام وراحة نادرة لشخصان مثلهما كثيرا الترحال، سكن الأب مكانه فاتحا فمه ليبيدي استجمامه وارتخاءه، في حين حافظ الابن على ملامح متوترة ورعشة تجتاحه كلما تذكر ما حدث للتوّ.

بعد سكونه هو الآخر لفظ قوله ببرودة ينفث دخان ساخن:

- إذن، لن تخبرني عن سبب قدومنا.
- كأني كان لدي سبب للقدوم في المرة الأولى.. مثل هذه الأماكن لا تحتاج عذرا، ادخلها بسلام.
- معك حق، لقد دخلناها بسلام.. سلام دموي، تناقض وهمي.. رغبة مكبوتة.
- امتعض بيلوف قائلا:

- اخرس وحسب، صرت تتبرز كلمات مثيرة للسخرية ك...

- كأمي.. أجل، من اعتاد على أكل فضلات الناس سيرى الأقوال كضرب قوي.

لبرهنة حدقا في بعضهما لينقلابا ضاحكان مخرجان
ما أمكن من التعب في قهقهة تكاد تدمع الاعين، إن لم
تجعلهما محمران أساسا، أشاح بيلوف وجهه عن بنيه
الذي تشبث في التحديق لينطق زافرا:

- أخبرني، أيها العجوز.. أن غدا سيكون أفضل.

- آسف، لست كاذبا مثل والدتك.

- على الأقل كذبها هو ما جعلني أمضي قدما في حياتي
ولا أفكر في إنهاءها.

- هاهاهاهاه.. وهل حققت شيء بعد؟.. الكذب سيجعلك
تستمر في العيش، نعم أتفق.. لكنه سرعان ما
سيصفعك الواقع المولد للحقيقة ليخبرك: " إيبيه!..
انت هنا، لست هناك " ..

تلملم رويدا ليستمع الى عذوبة خرخرة المياه عندما
يثيرها شيء أو قدما بيلوف الذي أرفد شاهقا ثم
زافرا:

- فالحل هو تقبل الحقيقية منذ اللحظة التي استوعبت
فيها أنك ذكر أو أنثى، ثم امضي قدما أو انتحر لن
يشكل فارقا لذي.. ما يهمني هو ألا يعيش ابني داخل
بوتقة أو هام الماضي.

أخفض الابن رأسه متأسيا من عبوس وجهه ونبرة
صوته:

- أحيانا لا أعرف هل اللحظات التي أقضيها معك الآن
هي الواقع أم ما قضيتته مع والدتي سابقا.. هل انا في
الحاضر أم الماضي؟.. حقا لا اعرف..

- وربما لن تعرف أبدا.. دائما أنبهك لخطية تحديد
الكلمات الصحيحة.. ليس مهما ما تعيشه حالا أو تشعر

بلحظاته سابقا إن كان واقعا، إنما الأهم معرفة إذا كان حقيقيا.

استهزا من كلام أبيه ففسر استهزائه قائلا وباسما:

- بالتأكيد إنه حقيقي وملموس.
- هذا ما حذرتك ونبهتك به.. اختر الكلمات الصحيحة للمعاني الصائبة، كلاهما لازم لتفسر أي أمر يقلقك.
- ماذا تقصد؟!

رش الأب على وجهه قطرات المياه الدافئة ليعيد التلذذ بالصوت العذب للماء، ثم واصل مبتسما فبدى ثغري ابتسامته لكونه نزع القناع وقال مستخدما يده بغرض التوضيح:

- يد هاته حقيقية أي ملموسة وملحوظة، لكن قصدي بالحقيقي هو تقبل لذاتي.. أنا أريد مثل هاته اليد.. هل كان من الممكن تواجد شيء آخر مكانها؟
- فهمتك الآن، نعم أريد حياتي بكل لحظاتها الحلوة والمرّة التي..

ثم رفع رأسه هامسا:

- .. لا أتذكر أيّا منها..

قبل ان يعود لنبرته المرتفعة قليلا:

- ..ولن ارجب في استبدالها ما حييت.

أغمض بيلوف عيناه معلنا لحظة صمت استمرت طويلا حيث عم الهدوء وطغى خريير المياه وتموجاتها ونقرات قطرات المتساقطة من جسديهما، فرك صفحة وجهه زافرا بأريحية عندها قال بنبرة حازمة فاتحا عيناه الثاقبتان بعد صمت مريب وفم مزمووم قد فتح:

- ترغب في البقاء على حالتك.. شعارك هو تبا للتغيير.. همم؟..

- شعاري في الحياة هو أين أنا.. ماذا عنك؟..

صك بيلوف أسنانه بوجه عبوس قائلاً:

- بمجرد رفع شعار سيدل هذا على سيرى في طريق واحد.

- نطقها كأنها أسوء خيار.

هدر جاهراً:

- أجل!.. اختر طريق واحد بعد رفع شعار واحد واحلم بأن تصل الى الحقيقة، بل لن تفكر حتى في البحث عنها.. إذ ستظن دوما أنك في الطريق المستقيم.

- أه، يا أباي.. كلما حاولت سبر فكرك وتعميق حوارنا أنتهي وسط متاهة لا مخرج لها، لا انت تقدم لي أمرا واضحا أو تذرني في حالتي من بادئ الأمر.. أما أن تجرني ثم تتركني.. فلا!.

كان بيلوف يمضض فمه ثم بصق ماء الحوض ليقول:

- من يريد معرفة الحقيقة لا بد له من التضحية، من المعاناة، من كره الذات.. أو إذا صحّ التعبير جلدتها، نقدها.. أخبرني يا بني أ تستطيع نقد ذاتك.. هل يقدر أي شخص القيام بها؟..

- أو افقك الرأي.

زمجر بيلوف غاضباً:

- فرّق بين تقبل الرأي وتملقه.. كعادتنا ننهي الجدل دون جواب شافي.

- على الأقل لا تفرض رأيك عليّ، وهذا أمر يحتسب.

- أجل.. تلك العنيدة كانت تغسل دماغك دون إعطائك حرية التفكير والاختيار.

نطقها الابن زاجراً:

- إنها زوجتك قبل ان تكون والدتي.. فما سبب ازدرائك لها؟

- لإجابتي عن سؤالها ينبغي لي معرفة سبب حشر أنفك في مسألتنا..

- كلا، هذا سؤال من محض إرادتي، لقد ولى زمن سطوتها عليّ منذ سنين.

- لكن بقي أثر ذلك مختبئ في جنباتك.. حسنا، اخلد للنوم إذا شئت وشكرا على تدخلك الرائع فارطا.

ابتسم الابن فخورا حتى من نبرته:

- أوه!.. كدت أنسى يجب تدوينها كدين.

- أعرف المقابل.

حول الابن ابتسامته الى اخرى خبيثة منتظرا ما سيقوله أباه فوقف الأخير نافضا الماء عن جسده يرتدي خرقة حول عورته وقال:

- أنقذت عنقك اللعين مرتين.. عفوا، مرة عنقك وأخرى خدك المتورد كعذراء في خدرها.. ردّ ديني المتبقي،

غدا قبيل الغروب سينتهي الأجل.

ارتدى الابن ثوبا ابيض صوفي خاص لتجفيف الجسم بعد الاستحمام، وغطى شعره بطاقة من فرو

الخروف منحته الدفاء رامي كلمة مقتضبة:

- نوم..

- ..هنيء، يا طارق.

- طارق.. من هذا؟!..

- اللعنة، اللعنة!.. اخلد للنوم حسب.

- حسنا، يا غريب الأطوار.

ابتسم الأب ساخرا وقال متهكما من ابنه يعوج فمه:

- غريب الأطوار.. من هذا؟!..

وعلى مشارف مخرج الحمام هتف والده:

- انتظر!.. قدم لي معروف وسأعتبره ردا للدين.

التفت الابن مندهشا: { معروف!.. اول رمة يطلب مني ذلك }، ثم قال:

- ما هو؟!..

- اسألهم لو كانوا لا يزالون يتوفرون على.. أنت تعلم.

أغلق الباب بهدوء تاركاً أباه لاعنا إياه لرفضه ما طلبه منه، فوجد الزعيم لا يزال متكئا غارقا في نوم ويصدر منه شخير يزيد سيلان لعابه على الكتاب المضموم الى صدره، ألقى الابن نظرات خاطفة صوبه ثم عدل اتجاهه الى القاعة الرئيسية، فصادف في طريقه يورام جالس على الارضية وفي يده دجاجة يخنقها لكنها تبدو بخير ومعتادة قبضته.

ناداه للجلوس بجانبه ففعل بلا تردد واضح وقد كان يورام مرتدي ثوبا يبلغ الأصبع الكبير لقدميه، حوَّط يداه حول ركبتيه المضمومتان بعدما أصدر زفيراً هادئاً مستقبلاً كلمات يورام الخافتة:

- ارتدي قناعك.

- مللت من عرفكم التافه، دعني هكذا أحسن لي.

- ليس خير لك نزعها.. أعرف اننا سوف ارتديه حينما يشتد عودي

قهقه الابن ساخرا:

- ما هذه الكلمة؟.. تقصد أن تبلغ.

- هما وجهان لعملة واحدة.

- تحدث بطبيعتك.. لا تقلد قولهم، ارجوك.

بادر من الغلام سعال جدا أرجف الابن الذي قال فيما يعينه على الوقوف:

- عليك شرب حساء ساخن.. أو شرب دواء.. لا تنتظر حتى يسيطر عليك المرض..

- أي مرض؟.. إنه سعال فحسب..

- هذا ما تظن، أعرف مثل هذا النوع من البحة الحادة..
أنصحك ان تذهب لطبيب.. أديكم واحد هنا؟

انطلقا منعطفان في الاروقة ينتقلان من مكان الى آخر الى ان توقف يورام بغتة أمام باب من خيزران فدلفه، تردد الابن هنيهة فيما يستذكر الطريق الذي قطعاه فقد تاه وهو ينعطف يمينا وشمالا ثم يصعدا وينزلا السلالم لكي يصلا هنا، فهو أراد العودة لإخبار والديهما بحالة الغلام ظنا منه بضرورة معرفة الزعيم لمرض ابنه الذي استنكر وجود داء يحمله..

فدلف بدوره بعد برهة من الانتظار، وسع نظره بغية إيجاد يورام المختفي تماما في هذه الغرفة الصغيرة الضيقة والمليئة بخزانات تحوي برطمانات داخلها أعشاب وأحجار وأمور أخرى عصف ذهنه بغرض فهمها بيد ان اخفق، كما استغرب مولولا: {يا ويلي!.. اين بحق الله سيكون.. يختفي في مثل هاته الغرفة أم انه دخل الى مكان آخر بواسطة ممر سري؟!}.

فجأة حدث صفق للباب بعنف مجهول فاعلمه ومعروف أثره على الابن المصدوم فزعا فكاد القفز من مكانه، انطلقت نفسه تلومه على حمل يورام لإيجاد الطبيب: {أي شيء سيقع له سوف أكون الملام لا محالة، يتبقى لي التظاهر بعدم ملاقاته بتاتا إن استجوبت عن مكانه غدا.. لا قدر الله لقي مصيبة فلن أتحمل عواقبها.. نعم، هذا ما سأفعل حيث أخبرني

والذي الذهاب الى النوم والزعيم لم يراني أخرج
والاقي ابنه.. لا احد رآنا معا.. بالطبع ما عدا الدجاجة
اللعينة التي كان يركض بها طوال الطريق.. المهم
سأقول بانني خلدت الى النوم وما التقيته قط.. تبا، تبا
تبا!!}.

تحرك تائها بين الاروقة المريبة رغم نور إضاءتها
البارز للطريق، سار ثابت ما استطاع يبدي ملامح
اللامبالي ويخفي وجهه الحائر، تنأى الى مسامعه
جلبة صادرة خلف الجدران وفور انعطافه للشمال ظهر
له ضوء مشاعل باهتة كأنه يناديه خارج بوابة من
قضبان حديدية ترفع من فوق، فلم شتات نفسه عبر
تعديل طاقيته ليهب منطلقا ناحية الخارج.

صفعه عبير بارد كما رفرف أسفل ثوبه جراء
نفخات الرياح وعوائها المتتالي ، وبسرعة اندفع ناحية
حائط متفتت يسند ظهره اليه إذ كان على يمينه ينتفخ
السور بشكل مستطيل يحجبه عن النفر الحاملين
للمشاعل المتوهجة والمتراقصة إثر تأثير عويل
الرياح، كانوا متحلقين حول دائرة لا يفقه الابن كنهها.

استطاع تمييز رجلان من المجموعة، أولهما الزعيم
المتدثر برداء ثقيل يقه شر البرد مما ارتعش الابن
بالبرودة التي تنسل تحت ثوبه غير تمالكه لنفسه ريثما
يعرف ما يجري ويشفي فضوله المتولد من زمان كان
كظل والدته الفضولية.

أما الرجل الثاني فقد اندهش لرؤيته قائلا:

- أبي!.

انشقا الرجلان عن النفر ليقوما برفع شخص
مستلقي فوق حمالة خشبية تستعمل في المعارك

بكثره، ثم شقوا خطواتهم تجاه المدخل الذي خرج منه الابن فعاد منسلا الى البوابة راكضا نحو المنعطف عن يمينه ليتسنى له رؤيتهم من بعيد، ولما اقتربوا بظهور ظلالهم على شرفات البوابة اجتاحتهم دوامة من العطس المتكرر في آن واحد فكم أنفاسه بسماعه استغراب الحاملين لشخص لا يظهر وجهه سوى يداه المتدلّيتان حيث غطو جسمه كاملا بالكفن.

فركض عائدا من حيث أتى والعطس لا يفارقه ليتوه مجددا بين الردهات كما سمعهم يقتربون شيئا فشيئا حتى مروا أمامه وهو بعيد عن نطاق نظرهم متواريا خلف تمثال اخضر لرجل عملاق يرتدي قناع الدرواس.

لاحظ وجود رجل مقيد بالسلاسل حجمه يشارف حجم هذا العملاق كما يجاوره رسول لا من لباسه المعروفة طيلسان أرجواني مع خطوط سوداء عريضة أفقية فوق قميص بنفسجي غامق وسروال ابيض فضفاض رسم خط اسود عمودي في كلا الرجلين يتشح عوض الوشاح بغطاء رقبة ابيض سابغ.

في يده يمساك رسالة صفراء مغبرة مطوأة، هبّ الابن يلاحقهم فانعطف لطريق تأكد انهم مروا به، والتف صاعدا سلم مرهق يتوسط ردهة مظلمة فكان ينتظرهم حتى يختفوا عندئذ يتبعهم سريعا، تمكن من صعود السلم بشق الأنفس لكنه فوّت فرصة معرفة الطريق الذي قد يكونوا وطؤوا فها هو بين اليمن والشمال حائر، وعلى نحو مباغت سمع صوت واحد منهم قادم من يساره يقول:

- قلت أنه يدعى بالجبلي إذن.

الفصل السابع عشر:

قرص مشع يبزرغ في السماء خالقا خيوط ذهبية
انشطر بين ثنايا الشجيرات المتناثرة تحيط بقع غارقة
بالماء بداخلها الحصى والأعشاب الصغيرة، فمياه
البرك راكدة وهادئة حتى وطأتها حوافر أحصنة سوداء
ما عدا واحدة رمادية يغطيها الوحل من تحتها وعلى
صدورها اتضح أنها خاضت مسيرة شاقة من خلال
الرغوة البيضاء المتدفقة من الفم.

لم تلبث الأحصنة تلهث ساكنة في مكانها إلى أن
جاء حصان آخر أسود قائم كصاحبه الذي يمتطيه ذو
السترة السوداء المبطننة بالصوف وقفازان من جلد

الدببة البنية فيما يرتدي سروالا كلون الطين ملتصق
بجلده ينتعل حذاء أحمر داكن بالإضافة إلى اتساخه
وآخر أبيض لا يكاد يبين من كثرة الطين على مقدمته.

هبط هذا الرجل من صهوة حصانه يخطو نحو ثلاثة
رجال أحدهما قصير تغطي قلنسوة رقيقة رأسه تكسي
جلده ثيابا فاخرة تتوارى خلف رداءه الأزرق الجلدي،
أما المتبقيان فكأنها توأمان فارعا القامة يرتديان نفس
درع المينا الأبيض وتتوردة بيضاء باهتة مع أحذية
سوداء، وما أفسد عليهما روعة حلتها هو الوحل
المختلط بوريقات تصطبغ ملابسهما وكذا محياهما
النحيفان ذوا عينان ثاقبتان.

وقف الرجل القادم قبالة حصان الرجل القصير
ليتفوه كلماته بصوت مجلجل يشبه لحد ما نعيب
الغربان:

- هناك صوب الشمال الشرقي اختلست النظر عن
بيت واسع قديم البناء، رأيت على عتبه رجل أمممم..
ما بين الخمسين والاربعين بجواره امرأة بالغة لا تبدو
شابة.. وعربة فاخرة قرب بئر أحمر.
صمت لحظة ثم اكمل:

- أما داخل المنزل تمكنت من التقاط عبر النافذة
المفتوحة صورة شخص لم اتبين جنسه يجول فيه..
لعله ملكه.. فما بالك يا سيدي أتطلع عليهم؟
بصرامة بادية عند تضيق عيناه أجاب:

- وما حاجتنا بهم؟.. هذا ما حصلت عليه طوال
الساعات ونحن في انتظارك.

اسرع الرجل يبرر دفاعا عن نفسه:

- أعتذر جدا على تأخر... ولكن لدي سبب مقنع.

اخفض عيناه غير انه يرفعهما شذرا منتظرا كلام سيده فآتم بوقار:

- استعرتني تصاعد دخان مهيب فتوجهت الى مصدره رغم بعد المسافة.

- حدث هذا قبل اكتشاف المنزل ام قبله؟.

- أثناء الاستكشاف، سيد تيمور.. أعرف أن هذا محير والأمر سهل.. في نفس اللحظة التي لمحت الدخان الأسود والبخار الأبيض كنت أفحص بعيني المنزل وما جاوره من بعيد.

نطق الرجل القصير سؤاله بهدوء متناقل:

- ما سبب الدخان؟.

تلثم قائلا قبلما يجيب:

- وجدت المكان خاليا حين وصوولي.

اماء الرجل المتوسط طولا رأسه بإيجاب فأشار له سيده بالتحي جانباً لكي يسيرا فابتعد مندفعاً فوق حصانه ومنضماً لرفيقه خلف سيدهم المنطلق كفهذ مار وسط الأهوار الشاسعة ومصمماً على بلوغ مدخل الغابة المدلهم الواقع أمام أنظاره وهناك سيستريحون.

لحق الثلاثة به يلـكـزون جيادهم لتعدو مهرولة، وكان الرجل يعدو بين صاحبيه فارعاً الطول فقال الذي عن يمينه ساخراً بصوت عالي:

- ترتبك كعذراء حينما تخاطبه.. يا زيـيد!

ثم اطلق قهقهة تصطم بتيار الرياح المندفعة تجاههم، وتمالك زيـد أعصابه غير مهتم بالإجابة ليضيف الآخر صائحاً بتهكم:

- زيـيد.. كيف كـكـ كانت الامراً-أ-ة الجالس-سة بجوار الرجل الخمسييني.

تلثم زيد مجيبا بحزم:

- ك-كأم-مك.

ليزيد سرعته ويتجاوزهما لاعقا الرياح وفتحها فمه
يتلقى اللطمات الحنونة أحيانا والتي تحمّر وجهه،
اخترقوا الغابة عبر طرقها الملتوية فخرجوا إلى
مساحة شاسعة راكضين على ممر موحد وتوقفوا فجأة
إثر إعاقة الجذوع الملقاة أرضا لطريقهم.

انتظر الثلاثة خطة سيدهم حيث لا يتكبدون عناء
التفكير كونهم منشغلين بالرياح المزحزحة لقلانيسهم
المتصلة بأرديتهم الحريرية عن رؤوسهم المشعر
والخصلات المنتفة فضاقوا ذرعا من تكرار تغطية
رؤوسهم..

- ابتعدوا عن الطريق أو واصلو سيركم سريعا.

خرجت الكلمات من شخص متهاك لا تفوق حالته
المزرية حالة العربة الفاخرة الشبه المحطمة المليئة
خدوشا والمكسرة بعض اجزاءها، التفتوا للقائل
مباشرة يقود عربة ذات سقف، وظاهرها مزخرف
ومزركش كهودج بديع الصنع لا يغدو ان يكون سوى
للملوك والأثرياء. كان السائق يعتمر قبعة حمراء
كقارب صغير وثياب مطرزة بالذهب ما عدا هذه الزينة
والبهرجة يمتلئ وجهه بالخمش والجروح كما بترت
بضعة أصابع يده اليسرى الممسكة بلجام أربعة جياد
كستائية كانت لتكون جميلة لولا حالتها المزرية.

أطلت امرأة من نافذة العربة لا يظهر وجهها بفضل
الشال الخوخي يبرز عيناها الكحيلتان، حينما تنبه لها
السائق قال بوقار يتخلله نبرة مسؤولية:

- عودي الى الداخل، سيدتي.. لا تظهري لهؤلاء...

اخفض صوته مستأنفا:

- ..الأوغاد.

قد نطقها بيقين وهو يتمعن في الوجوه العبوسة
تثقبه بالنظر، فجأة هتف تيمور:

- تنحوا!.

فتفرق الثلاثة فاتحين مجالا هسيس السهم الذي
طفق يلولب حتى انغرز في فخذ السائق، وكنتم صراخه
غير صراخ المرأة الحاد. ومن بعيد أمر تيمور أتباعه
بأسرها وكذلك فعلوا بلا تردد أو استفسار، كما أسروا
السائق تاركين قبعته بجوار العربة.

لم يجدوا ما يثيرهم في العربة ما عدا شواحي
يرتدي رداء احمر كان مختبئ يدندن باكيا وفزعاء،
أخرجه زيد يهدئه:

- لا تخف لن نؤذيك.

كان يقصدها عكس تهكم بيركو:

- تعال معنا سنشعرك بالأمان.

افسد طمأنته للشواحي قهقهته المستخفة، أحرقوا
العربة معها جسد السائق الذي صار عفنا محمرا
وفاسد، جعلوا المرأة تركع على ركبتيها نازعين الشال
عنها بمجرد فعل ذلك اهتز زيد قائلا باندهاش:

- إنها نفس الامرأة التي رأيتها.. بجوار ذلك الرجل
الدميم.

- يدعى تامر أيها الابله.

صاح تيمور في وجهها لكي تخرس ومع ذلك لم
يستطع مطابقة نبرتها أنفا، وأشار الى ذلك السائق ثم
الشواحي المربوط مع شجرة محدقا في زيد:

- من هو بينهما؟.

لا أحد.. كان يلم شعره بخرقة تشبه تسريحته ذيل الحصان لكنه يغطيها.

لكز أخو بيركو كتف زيد هامسا:

- سأجد لك عذرا حينما تعرفت على المرأة ولم تعرف العربية.. لأننا عرفناها من خلال العربية، غبي.

ظلت الامرأة محافظة على هدونها ترسم ابتسامة فاترة وتبرز برودة غير مبالية وغير خائفة، دنا منها تيمور فزفرت:

- لعلكم تملكون أجود السموم، جيد يمكننا خلق تجارة بيننا.. سأغنيك.

- جاء مفعول السم في السائق سريعا بسببي.. لو اردته يبقى سالما لكان، لو اردت تسريعه لصار.. إلا إذا كان بعيدا عن متناولي فسيعمل بشكل طبيعي.

ثم زفر في وجهها فتطايرت خصلات شعرها الأسود الأشعث فيما يقول:
- اين هو ذلك الرجل؟.

رجى عبر غلظ صوته تخويفها حتى تخبرهم بلا إكراه فأغمضت عيناها بالعة ريقها وقائلة:
- فوقكم..

.. ثم سقط جسم على تيمور وكاد يغرر نصل سيف قصير في حلقه لولا ان استل زيد سلاحه مسددا حافظه الى كتف تامر الذي اختار حماية جسده عوض قتل هذا الحقير حسبما خاله، والتقى النصلان مطلقان صيحة ترددت داخل رأس تيمور المغمض عيناها، تكررت ثانية بصد زيد ضربة تامر الافقية التي كانت موجهة الى العنق مباشرة حيث صدها رافعا سيف

خصمه للأعلى بينما تتسلل يسراه الى خد تامر
فلمست قبضته عينه اليمنى أيضا.

اضطر الاندفاع جانبا ولما اعتدل واقفا كان بين
سيفان لازبان موضعان في كلا جانب عنقه فأوشكا
الاثنان على نحر غير صوت تيمور حال بين تامر
والموت:

- تمهلا!.. يكفي موتا اليوم.

ربطوه بجوار الشواحي الذي بل ثيابه فاستعر
انتباه التوأمان اللذان انشغلا يسخران منه في حين
وقف زيد بجوار سيده يستجوبون المرأة. الآن طغى
صوت النيران المتأججة بعدما تناسوها اثناء النزال
القصير اشار اخو بيركو للعربة المتفحمة حالما خبت
النيران:

- أتريد تجربة الحرق.. يا لتعسك انطفأت النار ولا
أعتقد انكم يا جماعة تقدرتون على إشعالها.
ارتطم معه بيركو مازحا:

- بلى، هم من اشعلوا الحرب القارية الأولى والثانية..
وهم من تسببوا في إحضار الغزاة واقصد بالضبط.. "
أبناء البحار" .. الذين يعتقدون ان حيوان مائي
أسطوري قد انقرض له عدة ايادي هو من ضاجع آخر
ما تبقى من قومهم وهي بلا شك امرأة.. لذا ينتقمون
لها بطريقة الوحش الخيالي، النهب والقتل
والمضاجعة.. نسبوا إبادة قومهم لقارتنا.. كأنهم
يتحدثون عنك يا عكرب!.

قصد اخوه الضائق من الإنصات له:

- ذكرتني بخصص التاريخ المملة.. الآن عرفت من هو
امل من المعلم.. انت.

ضرب زيد بقبضته جذع الشواحي لما أتى عندهم
قائلا:

- دوما يطردني من نقاشه.
فسقطت إثرها تفاحة حمراء فوق رأس الرجل
المرتجف، التقط عكرب الفاكهة وشارف على قضمها
متوقف فور صياح المربوط:
- كلا!.. ألم تفكر في سبب بقاءها أرضا عوض ان تظل
معلقة في الهواء او تعود لموضعها؟.. شيء ما
يجذبها.

حدق الثلاثة في بعضهم البعض منصدمين ثم
راحوا يركلونه صابين جام غضبهم عليه، صرخ زيد:
- ألا تعلم كم رسبت في تعليمي وطردي والدي؟.

صرخ بيركو:

- كل عام يضيفون درسا جديدا بسببكم.

همس عكرب:

- في سبيل جميع طلبة العلم حاليا سأخلصكم من مادة
أخرى.

اتجهوا الى تامر الباصق صوبهم:

- لا تنسبوا فشلكم لأي احد.

قرفصوا قبالتة في آن واحد، ورمقهما زيد حدوجا

فابتسما واقفان:

- استخرجنا الكثير من المعلومات من الكثير من

الحقراء الظانين انهم ابطال شجعان.. استخرجا اكثر

من استخراج الذهب والفضة في مناجم الجزر.

- نبرتك جامدة.. انهض قبلما يضرك فخذاك،

ستحتاجهما للجري.

ضحك تيمور لكلامهما وقال يكرره:

- ليس غني وحسب؟! .. من هو؟ .. ملك؟.

صاح تيمور عليهم:

- صمتما!.. تثرثرون من الصباح.. اندموا على ما فعلتم به.

واشار الى الشواحي الذي صار كلون ثيابه،

تهكموا باكين فركل عكرب قدم تيمور يبكي:

- يا ليتني كنت ترابا.. ولم أولد.

ثقل تيمور اثناء حديثه:

- فكوا وثاقي وسأعيدكم الى التراب.

صفق زيد وبيركو يشجعان الآخر على فك الوثاق

قائلان:

- افعلها، هيا!.. هي، هي، هيا!..

دنا منه زيد ساخرا بنبرة رخوة قبل التفاته

ضاحكا:

- أتريد وقتا للتفكير؟.

فرأى تيمور يمسك شعر المرأة ويؤرجح راسها

بعنف فاندش زيد مندفا اليه:

- لا حاجة لذلك.. سيد تيمور كن ناضج مثلنا.

وابعده عنها فيما سقط جسد عكرب خلفه بعد لكمة

قوية من تيمور الذي خطف سيف الساقط واوشك على

نحر عنق بيركو المتراجع ورائه، فاستل سيفه صادا

الضربة العلوية ثم السفلية، يقاتل بيركو بمرونة وترنح

بلا جدية يصد ضربة ممسك سيفه بيد واحدة ويلقي

ابتسامة صفراء.

زفر تيمور ماسكا قبضة السيف بكتا يديه يوجهه

نحو الأسفل، نحو بطن عكرب المرن، حاول زيد التدخل

فأخمد حماسه أمر سيده:

- دعه!.. هو من عقد الحبل فهو من سيفكه بأسنانه.

- معك حق.

خرجت من فمه بصعوب كونه المتسبب ايضا في ذلك، لإنقاذ أخاه احكم قبضة السيف بيداه يشده لجانبه الايمن ثم دار صوب تيمور يقذفه فانطلق السيف يدور حول نفسه افقيا وقبل نصل الخصم العمودي يضعه امام نصف جسده وغير مصدق لتمكنه من صده الرمية الخطيرة.

صار له سيفان يلعب بهما عبر خلق دورة واحدة، التفت بيركو يائسا لكن مبتسما:

- اغثني يا زيد.. سيفك.

مد يده بغية التقاطه حيث استله ورماه للأعلى واقع فوق قدم تيمور المحقق فيه فرفع راسه مقهقها وبتر ذلك مطلق صوت الدهشة مع صوت اختراق النصل، كان الفاعل هو عكرب يغرز سيف زيد في خصيتا تيمور، وخلال وقوفه طفق يصعد النصل المخترق عاليا ببطء راسما خط احمر رفيع قسم الوجه الى النصفين دون فصلهما.

زمجر تيمور ضاحكا لم يتمكن من لمح ابتسامتها، فقال مشيرا للأحمر:

- تخلصوا من البوال.

صعدوا جيادهم إذ تشبثت يد زيد بشعر الشواحي الذي أفاق فور فك وثاقه يصيح بخفوت:

- إلا ذاك.. افعلوا بي ما تشاؤون.

مد تيمور يده لها باسماء:

- اصعدي واحتضني ظهري لكي لا تسقطي إذا تعثرت دابتي مع شيء.

همس عكرب لأخيه:

- فكرة رائعة.. نستمتع به كيفما نشاء.

هدر السيد القصير زاعقا:

- قلت تخلصوا منه!..

ثبت بيركو سيفه المسلول في جنب جذع وأماء
لزيد بالتفضل فانطلق يعدو جارا معه البوّال صوب حد
السيف، أغمضا عيناهما الاول مرغم والثاني باكي،
ارتجف الاول لصوت تمزق مدوي وفتح عيناه محققا
في الراس المفصول والوجه الفاغر، أعاد بيركو سيفه
لغمده بينما امتطت المرأة خلف تيمور ساخرة:

- افضل الوقوع في بئر على احتضان صدرك.

ثم اضافت مستهزئة:

- أسفة، احتضان وجهك.

عندئذ ضحكت مع ضحكه، وضحك الثلاثة الذي
فاق ضحكهما، ضمنهم زيد يقهقه حاملا الرأس فالتقاه
لعكرب المترجل عن دابته والقافز ليسدد ركلة للكرة
البشرية. امست العربية كومة فحم تذررها الرياح وقد
اختفى جسد السائق مع السهم والشواحي، تناثرت
ذراته السوداء محلقة في السماء إذ دفعت الرياح
شذراتها للشمال الغربي عكس الطريق الذي خاضوه،
فداعبت الشذرات وريقات الأشجار اثناء تحليقها منها
علق معها وثمّة نزر تسلل مخترقا الجدار الأخضر
الرخو حتى خرج لساحة خالية إلا من بئر متهاك لكنه
صالح للسقاية وقد استقرّ عنده أشخاص بدو في أزرى
حالة لهم كأنهم نجوا لتوهم من حرب ضروس.

شاب نحيف يرفع بصعوبة دلوه الممتلئ من البئر
لثقله فيما انشغل رجلان احدهما يصنع من جذع شجرة

شكلا لولبي يشبه لحد ما ربع سارية سفينة ضخمة، لكن الربع يكشطه حتى يغدو أكثر استدارة وطولا. بعد صنعه الشكل العجيب حشره داخل حذاء رمادي كبير ثم ألصق الحذاء الممتلئ بتربة مبتلة في ركبة الرجل الذي يوقف نزيه ساقه المبتورة عن طريق قماش يلويه حول ركبته.

أحضرت فتاة شديدة السمرة حبل لربط الجذع بالركبة استعرتة من البئر رغم نهر الفتى فعلتها قائلا: - قد يحتاجه المارة.

- بل نحن من في أشد الحاجة إليه.. لو كنت تريد إرضاء هذا الحيوان المسكين وتعالج صاحبه.

أشارت للرجل الكبير بعدما اشارت للكلب المستلقي على الارض عابس جدا حيث يغطي وجهه بأذنيه الكبيرتان، استطاع الرجل الوقوف مجددا على قدمه والنجاح بعد عدة محاولات فاشلة في السير، فراح يخطو جيئة وذهابا لكي يعتاد قدمه الجديدة بغض النظر عن كونها لا تعطيه نفس الإحساس الطبيعي للسير العادي فهو يمشي مائلا، ولا خيار لديه غير هذا.

نهض صانع القدم معتدلا ثم ارتدي قفازته ذات المخالب الحادة وثبت منجله المخرومي خلفه في حزام يحتوي كذلك على غمد خنجر صغير ومحفظة اصغر، ابتسم له الصياد بحبور قائلا:

- جئت كنعمة من السماء فلم تنقذ قدمي وحسب بل أنقذت حياتنا من ذلك المجرم.

عينه تشير الى عربة رابضة قرب بركة ماء تسارع الفرسين في روي ظمأهما، كما شرب الجميع من

الدلو، وكان الكلب أكثرهم حماسا لما رأى صاحبه بخير توجه الرجل ذو المخالب نحو العربية قائلا أثناء سيره:

- انتهى واجبي الدوابي تجاهكم، فامشوا في حال سبيلكم كيفما شئتم وأينما وددتم.. أما هذا السمين فسوف أخذه إلى حيث ستعاد تربيته.. إنه دليل..

صمت ريثما يصعد لمقعده ثم استأنف زافرا:

- .. على كونه يمثل البشر بامتياز.. مثل هؤلاء من يعطون للدواب نظرة خاطئة عنا لذا وجب تهذيبهم.

لم يقدر أي أحد معارضته أو حتى طلب منه توصيلة لأقرب مكان يبيتون فيه سوى معاذ الذي تردد قبيل قوله:

- ألم تقل إنك ستأخذنا إلى مكان خاص بكم؟

- بلى، غيرت رأيي.. محرم علينا إفشاء موقعنا لأي كان.

قال معاذ بمكر:

- حسنا، لن تفي بوعدك مثل باقي البشر.. يا ترى ماذا سيكون رد الدواب لو رأوا فعلته؟

- أتريد معرفة ردّهم؟

أماء معاذ إجابا فقال الرجل بتهكم:

- يسهلون أو ينبحون..

هنا صك الصياد صفي اسنانه معا بينما كانت الفتاة تنزع الورقة الخضراء عن ظهر رفيقه إذ التصق المرهم فيه، وأتم الرجل مازحا:

- ..أو يزرقون أو يزأرون.. لا يهم ما سيقولون.

همّ معاذ بالتحديث متجاهلا استغرابه بما سمعه غير مقاطعة الرجل له:

- تبأ لهم، أهذا ما تريد سماعه؟.. لن تستمئني
بذكرهم.. هيا اذهبوا من هنا وإن كشفت أنكم تتبعونني
فسوف أريكم رد الدواب الحقيقي.. لعلكم تعرفون
طباعها حينما تغضب.. أو انه طباعها دائما.

خاطب معاذ نفسه: { منضم لطائفة لا يؤمن بما
يقولون وغير واثق في طقوسهم.. ليست المرة الأولى
التي أرى فيها شخص كهذا.. منافق! }.

في نفسه ضغط على كل حروف مؤخرة كلامه، وأما
في ظاهره امتعض وجهه على أهبة استكمال المناقشة
حتى يقتعه بالعدول عن فراره وأيضا يثبت إيمانه غير
أنه تراجع في اللحظة الأخيرة عندما ربت عزيز كتفه
هامسا:

- إياك إتعاب نفسك مع نوعه.. وجهه خطابك لمن
يملكون علما لا من يتبعونه فقط ورؤوسهم فارغة.

انطلق الرجل المهزوز شاقا طريقه بعدما أصلح
عجلة العربة عن طريق حشر عمود غليظ في الفتحة
وسط الغابة التي تكتنف البركة ومن بعيد لاح لهم
ناصر يستيقظ جالسا في مكانه بين البراميل وجسده
يهتز مع سرعة ركض جواد أسود يعود للرجل.

استحسن الاثنان تمكن الصياد من السير ولو قليلا
وفرحة الكلب جلية في سلوكه حيث يركض جولهم
يهزهز ذنبه الصغير على شكل كرة من الفرو، تنهد
رفيقه:

- ما رأيكما نعود الى حيث كنا في نفس البقعة التي
تفرق بدر للبحث عن الطعام؟.. لعله ينتظرنا هناك.. أو
نتخلى عنه.

أخفض معاذ رأسه يطرُق في التفكير: { أكان يعني
البدن بكلامه آنذاك انه أسر بدر؟ }.

قضوا وقتاً أكثر من اللازم لبلوغ تلك المنطقة بعدما
غادرتها الشمس الحارقة والغبار المتناثر فبقيت
الخطوط الذهبية مع هواء منعش، خلال سيره قصدوا
التباطؤ بغية الاستراحة والتفكير الى ان وصلوا هناك
ثم اقتفوا اثر الطريق متخذين اتجاه بدر، مشوا
مترنحين ومتمائلين في خطواتهم مطأطأين الرؤوس
يضرب معاذ بقدمه كل ما صادفه فيما أدخلت الفتاة
يها في جيبي سروالها الرمادي الضيق والمنكمش.

لم يفارق الصياد قوسه يتظاهر انه يسدد نحو هدف
فينطلق الهواء بدل من السهم ثم يعودون الى إخفاض
رؤوسهم، هتف معاذ قائلاً والدهشة تفيض من عينيه:
- تلك الشجرة.. بالضبط في البقعة الجافة كأن فيها دم..
دم جاف يعني..

أتمت مكانه مندهشة بدورها:

- .. أن شخص نرف حتى الموت، ومرّ على الحادثة
زمن لا بالقصير أو الطويل.
أيدهما الصياد:

- أجل.. أيعقل أن يكون لقي حتفه؟

تتبعوا الدماء التي خلقت بقعها لساناً متقطع يمتد
بخط ملتوي دليل على كون الضحية قد تحركت متجهة
صوب الشمال حيث سمعوا خريير مياه سرعان ما
عرفوا انها عين ذات ماء عذب، واتجهوا قريبا بتوري
كانهم لا يريدون معرفة ما الذي حدث مخافة ان يكون
الضحية هو بدر، ليس لهم ادنى شك انه هو عندما

وجدوا رداء الشواحي الخاص به يطفو فوق صفحة
الماء الصافي:

- رباه!.. حدث ما خشينا.

خالفت الفتاة بصوت شبه مكتوم ظن الصياد
المبتسم سرا:

- ربما يعود لشخص آخر.. هناك العديد من نوعه،
صحيح؟.. لا يعقل ان يوجد شواحي واحد في القارة
بأكملها.

تدخل معاذ بنبرة باردة:

- سواء كان هو أم لا.. فرحمة الله على من حدث له
هذا.. أما إذا كان ينزف فقط نرجو ان يكون بخير..
لنواصل طريقنا خير لنا من الوقوف كأن على رؤوسنا
الطير.

- إن اتجهنا الى ما وراء العين سنصل لمجتمع
الصيادين.

حذق فيه معاذ كإشارة لمواصلة كلامه ففعل أثناء
انطلاقهم:

- قبل بلوغنا سنصادف منزلا معزول عن البقية..
أعرف صاحبه.

{ أو صاحبه بالأحرى }.

من الأثر المحفورة على الأرض المجاورة لتلة تطل
على المنزل من بعيد فطنوا ان اشخاص مروا عبر تلك
الطريق الموجود أسفل التلة العالية، استلقوا على
بطونهم فوقها يراقبون محيط المنزل العريض بطبقتيه
الواسعتان ووضع في السطح هرم خشبي متصل
بالسقف وتوسط الهرم من كل النواحي نوافذ مربعة
صغيرة فُتح اثنان منها.

محيط المنزل خالي من أي شيء طبيعي او بنايات
عدا البئر المصنوع من طوب احمر يستقر قبالة نافذة
ضخمة بجانب باب المنزل خشب البلوط، وتظهر النافذة
الزجاجية المتسخة والحافلة بخطوط تخلق تشققات
امرأة قصير شعرها قصير مكور خلف قامتها الطويلة،
عريضة المنكبين بيد ان أفق بطنها مشدود ببداعة، لها
بسطة في الجسم مميزة في حين يناقض خلاصة قوة
جسمها عباسا ملامحها وفمها الممتعض ليخاله المرء
أن طعامها الوحيد هو الحامض.

كانت تطل بنظرة خاوية تتخللها رقعة تساؤل حول
القادمين: { لتوي استقبلت رجل وامرأة.. هل أصبح
مسكني نزلا أو خانا بهذه السرعة؟.. هاه هاتيك التي
استقبلتها أنفا عادت ثانية.. لكن من هؤلاء المرافقين
لها؟ لا يبدو أصحابها ولا أصحاب سلام }.

اقترب رجل قصير واقفا على عتبة الباب الضخم
كالمنزل في نظره وهتف دون طرق الباب:
- أخرجي بهدوء.. بهدوء.. بتريث.

ومع كل كلمة يرسم ابتسامة شيطانية تلاشت بمجرد
فتح الباب محدثا صريرا صك أذناه ، رغم ذلك تمالك
تيمور نفسه غير معطي ردة فعل خائفة لرؤية عملاق
يستقبله فاستدار عند رفاقه:

- أترونها جثة ضخمة.. أم فقط انا الذي يرى الأشياء
عملاقة؟

- أتريدنا ان نملك لتواجه وجهها؟

تجاهل سؤال زيد معيدا نظره نحو الامرأة يرفع
حاجب طويل ويخفض الثاني متحنحا:

- أدري استقبالك للسيدة الواقفة أمامك.

وجهه اصعبه دون الاستدارة صوب زيد الواقف
خلف الامرأة يحكم قبضته على ذراعها اليمنى وخلفهما
التوأمان يتكئان على البئر لا يعلمان عن التصاق
حمرته ببياض سترتيهما السابغتان. اضطرت الصيادة
القرفصة حتى توجه خطابها نافخة هواء صوب جبهة
تيمور:

- أجل، وأما بعد؟.

لم تعتبره سؤالا فتجاهلت هبوب الرجل القصير
للإجابة وازدادت بوجوم:

- هي جريمة أن تستضيف غرباء..

حدجته بازدرأء رادفة:

- .. غرباء مسالمون ليس كباقي الأنواع الهمجية التي
كثرت في هذه البلاد.. كأن لا ملك لهاته الأراضي.

ارتجف تيمور ومن خلفه ازدردت المرأة ريقها كما
لو ان صاعقة أصابتها، وبعد شهيقه تيمور قال
مبتسما:

- معك كل الحق.. إلا فيما يخص الملك..

كادت المرأة خلفه تصيح عليه لإتمام حديثه كونه
صمت لحظة ثم تلفظ:

- الملك منشغل بأمور لا تقل أهمية عن استتاب الأمن.

نطقت الصيادة جملتها على لسان نمر تلبس بها:

- مثل ماذا؟!.

- دعيني اجيب بلا مقاطعة.

اطاعته غير صادر مها حتى زفرة واحدة فخلع
تيمور قلنسوته ورداءه المتصلان معا إثر شعور
بحرارة تتصاعد داخل جسمه وقال متلهفا:

- أحضري لي كوب ماء مثلج وسأخبرك عن كواليس الحكم أيضا.

يعلم جيدا انه لم يقصد ذلك واوشكت إغلاق بابها ملقية جملة مقتضبة:

- لم سأبالي بما يقع هناك؟
- وعدا عندما تري جحافل سكورم يحرقون مجتمعم لا تلوموننا.

فطنت الصيادة لقصده وحدها دون البقية ضمنهم المرأة المتشوقة لحديثهما، تروت العابسة في التوضيح:

- تزوج الطفل من أحد افراد عائلة الوائيين.
- لم يعد طفلا بعد وفاة أبيه الملك الراحل.
- اتمنى ان تلحق به سريعا وتغادرون من هنا بأرواحكم وإلا سوف ترحلون معها للأبد.
- رويدك سيدتي.

كان زيد المتحدث قالها بهدوء وابتسامة قابلتها بأختها قائلة في حنو قبل تحوله الى غلو:
- اللعب في حيّك، يا صغيري.. لا اريد أذيتك لكي لا تزعج امي عندما تحضر والدتك تشكو مني.. سحقا لكم، ارحلوا، انقلعوا!!
- كما تشائين.

وامتدت يده الى سيفه بينما يركض خلف ظهرها وكان استقبال صدره لحذائها عنيفا ومدويا حيث ارتمى زيد ساقطا على الارض المتشحة بالغبار الاحمر الذي غطى قليلا من جدران وسقف المنزل. قامت بحركتها دون التفاتة ولكن أثناء استدارتها للتحديق في تيمور سمعت ضجيجا في الطابق العلوي كأن شخص يجر

دولاب او طاولة فتحتك بالأرضية مصدرة ازيزا مزعج للغاية.

أجلت التحديق الى اجل غير مسمى مهرولة تقطع أشواطاً ليست بالهينة صاعدة الدرجات الضيقة الملتوية للأعلى، وقبالتها باب غرفة لتوه فتح لتقفز على نحو مباغت ناحية المقبض وتجذبه صافقة الباب بعنف يداهما تساؤل مريب: { يعقل أن يكون هو؟ }، الشخص الذي خلف الباب يدفعه لفتحه في حين تضغط هي مكورة قبضتها حتى لا يفتح غير خرق قبضة مكورة أخرى لجذع الباب من ثم الانقضاض صوب ساعدها كما اشتد ألمها وكفاحها أشغلتها نبرة ذكورية من خلف الباب:

- ما لداعي لحشري هنا؟.

- لنلا يعلم احد بإحضارك..

لهتت ضاغطة على كل كلمة من شدة الألم، فأتمت قولها صائحة:

- .. وإلا سيخبـبروا قومييني!.. وهذا أمر غير صائب..

تركتها القبضة المتكورة لتخطو الصيادة للوراء مترنحة ومنتهدة، تحسست ساعدها قائلة:

- لقد اصطدت ذات.. يوم قرشا بالصدفة..

علق الشخص ذو الوجه الوسيم البشوش فور طوله كاملاً متهمكاً:

- صدفة؟.. يا لها من كلمة موجزة لكنها مهلكة..

- المهم ألا أترك حيواني جائعاً.. يفضل جميع اللحوم حتى لحم أقرانه..

.. لتوها تذكرت المرة الاولى التي راتته لتجحظ
عيناها هاتفة:

- أنى لوجهك ان يعود كما هو.. كيف، لماذا.. أم انها
امور.. تخص طائفتكم؟..

كذلك لباسه ملطخة صدريته الصوفية بالدم الجاف
فمسح وجهه براحة يده المحافظة على ذرات التراب
الاصفر المشابه لملامحه الجديدة عكس بيوضته، ورفع
راسه للسقف الابيض الخال من البقع السوداء كباقي
اجزاء الطابق السفلي مما استعر انتباه الصيادة عدم
وجود أثر الجرح الذي أحدثه سهمها لما حاولت إرداء
ذلك البدين.

لكنها منعت عن نفسها تساؤل لتقول راجية بجمود:

- ارجوك ابقى في الغرفة ريثما تنتهي مع اناس لا
حاجة لي بمشاكلهم.

- يا إلهي، رجائك بارد جدا.. حسنا اعدك بعدم الظهور
لهم شرط أخذي.. الى القرش.

وحينما حدثته مستغربة وحادرة وضح فاتحا
ذراعيه:

- قصد التسلية معه فقط.

تنقلا مارين من ردهة طويلة أودت بهما الى نافذة
عريضة تطل على حديقة يحيط بها سور عج بالنباتات
المزهرة والشجيرات المخضرة، في منتصف البساط
الاخضر الطبيعي حُفرت بقعة دائرية هي فجوة هائلة
وهوة ساحقة، صُبّ الماء عن آخرها كما تسبح
الأسماك الصغيرة الكثيرة فتتشغل بمطاردتها من اجل
الالتهام سمكة ضخمة حادة الأنياب بيضاوية غير
شواب الازرق الرصاصي في بطنها وزعانفها الطويلة.

ما كان لصاحب شعر ذيل الحصان سوى القول:

- سيكون وجبة شهية..

وتدارك الامر مبتسما لها:

- .. لو قررتي التخلص منه..

القت كلمات خاطفة قبيل مغادرتها المسرعة:

- تجنب تسلق ذلك الحبل فوق راسك..

بفضل تنبيهها استطاع التتبه لوجود حبل رفيع يمتد من حافة السقف نزولا وراء السور فلا يرى نهايته، وطريق الحبل يمر فوق حوض القرش ليزفر مدندنا:

- هكذا إذن تطعم حيوانها الأليف من لحوم البشر..

اما ما يتواجد حول الحفرة يعد على الاصابع الخمسة فقط، مكان حافل بالعيدان الرقيقة فهم بدر انها خاصة لصنع الاسهم عبر خنجر مثبت في ربع جذع مقطوع، بيت صغير يحوي اغراض عديدة ملقاة بعشوائية وفوضى أواني تشكل موجة هائجة خارج البيت، دمية خشبية للتدريب بطنها كيس خشن يحمل في طياته الرمال وتغطي راس الدمية خوذة شديدة الصلابة، وكذا تحمل اليد اليسرى ترسا نحاسيا لم يصنع لهذا الغرض وفي اليد الأخرى سيف فولانديا، دلاء للماء وبعضها لأنواع الأعشاب الصحية في ظن صاحبها، فرس كستنائية حبلى بالبقع البيضاء الكبيرة في مختلف المناطق إلا الوسط السفلي والعلوي..

يشتم بدر العطن الصادر منه كونه لم يغتسل لمدة طويلة مع رائحة روث الفرس تغطي على رائحة إبطه، لذا غادر بغية تجنب الرائحة وايضا البحث عن حوض او على الاقل دلو للاستحمام فكانت مغادرته من الأعلى للأسفل حيث حظ ضاربا العشب الأخضر ودهس وردة

بهيجة قبائذ ثم نزع ثيابه البالية ما عدا خرقة حريرية
حمراء داكنة تستر عورته.

صب الدلو الاول كاملا على جسمه لم يكفه فأفرغ
الثاني والثالث تاركا دلوان هما الأصغر في المجموعة،
استلطف خفوت رائحة عرقه، أثارت حركات القرش
الذي يصفع بزعانفه صفحة الماء، يخلق عاليا ثم يفتح
فاهه ملتقطا كومة حيطان لا تشكل ربع ما يحيط به
فيهدا رويدا حين ارتداء بدر ثيابه فوق رصيف لتوه
لحظه نظرا لأنه نحيف وضئيل يحاصر الحفرة فيظهر
مرتفعا عن الماء وجعلت زخرفته بدرا ساهايا تتموج
على الماء المحقق فيه.

يراقب كيانه المرتسم جليا في سطح الماء عن كذب
غير مبالي لتموجات تخلقها الاسماك تفسد شكله،
وتلتقط الناجيات فقاعات في نفس الآن أنفاسها قبلما
يعود القرش الغائص في الأعماق الى التصفية.

سأل الشواحي العجيب نفسه جاهرا كأنما يخاطب
أحدا:

- هل أعرف ماضي، من أنا، كيف كنت.. الأجدد قول
من انا فيما بين الاثنين؟.

خلال سؤاله سطع القرش فاتحا فمه لدرجة يكشف
جوفه وتسيل لعابه من أنيابه فزام:
- تأخرت.. في.. طرحه.

كلامه ثقيل كحركته الحائمة، كوّن بدر ملامح
القهر:

- إنما هو جزائي بحثي عن الحقيقة.. حقيقة الب...

- كأنك.. وجد-دت حقيقة.. تك اولاً.

أغلق فمه عائدا للغوص بعيد قوله:

- يبحث.. عن الخلا..ص.. من المصيبة.. دون علم..
مه أنه.. هو.. المصيبة!

- مهلا، من هو هذا الذي تتحدث عنه؟

سطع القرش مجددا للإجابة باعتقاد بدر لكنه في
حساب المنقض قفز محلقا للوليمة فاغرا ومن صراخه
خاله بدر يقول:

- انت!

ولكاد قضمه بسهولة حينما أحس بشيء يجره
راميا إياه للوراء فأطبقت الأسنان على الفراغ ووقع
القرش غائضا خائب الأمل. تنفس بدر الصعداء قد كتم
أنفاسه قبيل إنقاذه فرأى منقذته التي ما فتئت ترمقه
باشمئزاز تتحدث عيناها الزرقاوية تسبق فمها الناطق:

- لحسن حظك غادروا بسرعة.

اعتدل واقفا ينفذ ثيابه يقول غير مبالي:

- حقا؟

وأجاب نفسه:

- حقا.

لا يزال شعره النصف الأحمر القاني والنصف
الاسود الفاحم المبلل ملتصقا بأديم رأسه، ولاحظت خلو
ثلاثة دلاء من الماء تماما فقالت مزمجرة:

- فعلة أطفال لا تليق بالشواحين.. الآن عليّ خوض
رحلة شاقة لملئهم.

ثم وجهت نظرها الثاقب المتقد اليه مضيئة:

- وأنت سوف تعينني بالتأكيد.

هزهز كتفه قائلا:

- سوف.. يعني الانطلاق غدا.

دنت منه حانقة وهي تقول:

- لا أعلم حتى هذه اللحظة كيف نجوت من موت وشيك، ولكن لا يدل ذلك على أنني لا أستطيع قتلك.. فأعطني سبب مقنع لعدم قتلك عن طريقي...
قاطعها مبتسما:

- أنا وسيم.. سبب كاف وأكثر.

أكملت متجاهلة خزعلاته حسب اعتقادها:

- .. عن طريق إحضار الماء في دلوين فقط.. يستحسن الذهاب حالا حتى تصل وتعود باكرا.. ستصادف عين نضاخة إن اتخذت الطريق الرئيسي الذي يبدأ من عتبة بابي.

أخذ بدر شهيقا طويلا تبعه زفير اقل طولا رافعا راسه للسماء الصافية والشمس المتوارية خلف السحب البعيدة عن موقعه، ثم قال مخفضا راسه:

- كفاك بخلا واوردي من البئر المشارف لمنزلك.

قهقهت لأول مرة أمامه فقالت:

- ثق بي لن ترغب في معرفة كنهه.

- ثق بي أرغب.. وبشدة.

نظقتها مغادرة نحو داخل المنزل بوجه عابس

كعادتها:

- أنصحك ألا تطلع عليه في منتصف الليل.

كشف عن ثغره هامسا:

- فهمتك.. فهمتك.

قضايا كل المدة التي سبقت منتصف الليل متفرقان سواء كانا يسرحان خيالهما أو يتناولان العشاء، خلدت صاحبة المنزل للنوم بينما راقب بدر البدر منتظرا إشعاعه لكون آخر جملة ألقها عليه وهي هامة لدلوف غرفة نومها فيما استلقى على أريكة صلبة:

- إياك النزول الى البئر تحت ضوء القمر المشع.. ساكنو هذا المنزل السابقون أجمعوا على حدوث ظواهر مخيفة هناك.. فهمتنا لا تنزل مع ضوء القمر.
قال:

- كلا، أمقت السلوك الطائش.

السماء تضيء نجومها المتلألئة بعدئذ اختفت تاركة الساحة للقمر الوضّاح، قرص وهّاج يلقي أضواءه على وسامة الرجل المتلذذ بالعليل ثم ألقى نفسه غائصا في اعماق ديجور البئر، لا يحتاج لحبال عند أي سقوطه معتبرا نفسه الحبل الغير الفاتر، يتعمّق أكثر فأكثر وسط الظلام الدامس ومن فوق راسه يغطي القمر فتحة البئر.

خاله بدر اثناء هبوطه بنفق لا بئر فلاح له خوزق يضيئه مشعل لا يرى حيث يوجد ممر آخر بجانب الأشواك المحيطة للخوزق إذ صعب عليه ملاحظته بادئ الأمر لخضرة لونه الذي يطرد الضوء البرتقالي. اسرع يكوّر قبضته موسعا ذراعه لكلا الجهتين فاخترقت الجدران الضيقة ذات النتوء والتشقّق الخائفة له، لكن دون جدوى لا يزال يحتك شاقا الحفر التي خلفتها قبضته الداميتان كما تتساقط الحجارة نائرة الغبار الهاويان معه نحو الهاوية، نحو النهاية، نهاية النفق..

تمنى لو تتقذه الامراة مرة أخرى، بل تمنى أمورا كثيرة مثل ان تعطى له فرصة لقاء أبيه للمرة الأخيرة: { كنت لأخبره انه مخطئ.. نعم لن اعترف ابدا.. لن اعترف بشيء ما اقترفته.. انت المخطئ }.

غزته كلمة على صوت والده الرخيم زادت شعلة
غضبه: (متحذلق!)، كذلك استعاد مشهد وداع والده
بنبرة غلام:

- سأثبت لك، يا أبي.. أنهم مثلنا وليس هناك فرق
شاسع بيننا كما تدعون.

ثم سمع آخر كلام أبيه مذاك الوقت يقول باسماء:

- كأنه إنجاز سيغير التاريخ، سنظل هكذا يا بني.

حتى صورة والده مشوشة يستعصي تذكره اما باقي
افراد اسرته قطعا لا يتذكرهم لدرجة ظن انه ما قابلهم،
استغرق جاهدا يحاول نسيان الماضي ليفتح جفنه جافلا
وقد توقف هبوطه السريع قرب سن الخوزق بشبر كما
رسمت الدماء خطا عموديا يسيل من الفوق الى مستقر
قبضاته الحارقتان للجدارين كثيرا التشقق بدون ان
تمسهما القبضتين التي صعد منها بخار ساخن.

دفع جسده بعيدا عن الخوزق فسقطت قدمه اليمنى
والأخرى يرفعها عن الأشواك الصغيرة الموجودة آخر
الدائرة ففضل هذا عن ذاك، تنبه لمشعلين لا واحد تحت
سقف مقوس يرغبه على الانحناء في زحفه وفضل
هذا ايضا عن السير لولوج بضع العيدان أخمص قدمه
اليمنى ومشطه في حين سلمت يسراه، وحظيت كلتا
يداه بجروح عميقة أقلعت جلده.

الطريق أمامه منحدره ضيقة يتوجب عليه الزحف
كطفل صغير حتى أوقفته قضبان حديدية لمس أوسطها
فعدت سائلا لزجا ولافحا لوجهه جرّاء الدخان الصاعد
من القضيب الذائب. مرّ بسلام واجدا نفسه داخل حجرة
دائرية خالية من الحياة وشعر أصابعه تداعب جسما
خشن له حراشيف بيضاء، وهمس متفاجئا:

- أفعى!.

لكزها متبيناً أنها ميتة فاستجمع رباطة جأشه وهو يحملها إلى الممر الضيق الذي جاء منه على كتفه واستغرق لحظات يحمل جسدها الطويل المتكور على نفسه ثم رأى في مكانه السابق بيضة سوداء تتخللها الحمرة الباهتة كبيرة الحجم لم يتردد في التقائها قائلاً للأم الملقاة أرضاً:

- سأعتني بمولودك أو.. سأجد من يفعل ذلك.

رفع رأسه ملاحظاً تشققات في السقف المليء نتوءاً فكور قبضته دافعاً إياها نحو الجدار المستدير لتتساقط الأحجار من الفوق مما أعاد الكرة مرّات عديدة ساكناً بعدما كشفت فجوة أعلاه يتسلق منسلاً لداخلها وظل يزحف للأعلى كون الجدران تضيق عليه وتعصر جسمه.

كان يضع البيضة بين قدميه ثم دفع قبضته لسقف دائري ففجره تاركاً ضوء القمر البازغ يغزو عيناه، وأكمل الزحف إلى أن استلقى جسده ممدداً ورفع البيضة إليه قبلما يلقيها وراءه ملتقطاً أنفاسه فسمعها ترتطم مع الماء بالتالي انتفض فزعا مرتعياً نحو البركة ماسكاً البيضة بين أسنان القرش يتصارعان حول من يغتتمها كلاهما يجذبانها إلى نفسه.

بعد برهة بدأ بدر يعيي إثر الجهد المبذول للحفاظ عليها وارتطم مع الماء سمك يفوق البيضة حجماً لذا تركها القرش متجهاً صوب الغنيمة الكبرى كما بوغت بدر من إفلات القرش لها ليندفع خلفه ساقطاً على الفتحة التي خرج منها، علقت مؤخرته أولاً فيما تشبثت

قدما بالأرض ثم جذبته الصيادة من شعره الى برّ الأمان قائلة:

- نلت مرادك، هاه؟.

- أنتِ بتحذيرك للبئر ظننت أنك تلمحين لوجود شيء ثمين.

زفرت مستهزئة وقالت:

- أن يوجد شيء، ثمين تحت أرضي وأدعه في حاله.

- أجل، لقد فعلت هذا من قبل.. حينما تركتني أدخل البئر حتى لو كان خطيرا.

أومأت برأسها نافية ومستخفة فأشارت للخارج موضحة:

- وسأكررها مجددا.. هيا غادر أرضي أيها.. الثمين.

نهض حاملا البيضة ملقيا كلمات شذرا:

- حاضر.. أيها الخاسرة.

راقبته يغادر وجفلت لما التفت بغتة متسائلا:

- من كان اولئك الناس؟.

هزمت كتفاها غير مكثرتة:

- امرأة أرادت المبيت فوافقت وبعدها غادرت أحضرها

رجل قصير يستفسر عنها.. أو لا أعلم سبب قدومه..

لكني فطنت من نظراته وحديثه أنه يبحث عن شخص.

ابتسم قائلا:

- مثلي تماما.

- هيا ارحل لن أستكين لك.

أطاعها على مضض يضم البيضة إلى صدره لا

يبتغي تركها رغم كبر حجمها المتعب لحاملها. انتقل

بين الطرق السوية والمعطلة والطبيعية تربكه أصوات

الحشرات التي لا ترى كما يزيده السكون رغبة في الاختباء.

الهدوء المميت راح يتلاشى مع زعيق غرباء يطلقون العنان لجماحهم، سار ناحية المصدر وفي لمح البصر صار وسطهم التفت ثلة منهم إليه يحافظون على الابتسامات الخبيثة والمصطنعة والوشوشة في حين تجاهله القلة مستمرين في لهوهم وحديثهم.

استأنف سيره لا يلاقي أعينهم مع عيناه وأوقفه أضخمهم بنصل سيفه في معصم بدر الضام البيضة الى صدر، كشف عن اسنانه الصفراء يلفظ بحجة عوض كلام:

- وجه مألوف.

عم السكوت ليضيف الرجل:

- أنت زنديق كالزناديق الموجودة في العاصمة.. قلت لك وجه مألوف.

ثم انفجر ضاحكا لوحده ولما رمقهم قهقهوا مرغمين خلالها زم بدر فمه ببرودة وقبض النصل يحكم قبضته، تهجمت ملامح الضخم يثقبه بنظراته:

- هياي!.. الكثرة تغلب الشجاعة.. اترك شجاعة الشواحيين عند مواجهة الغزاة الخارجيين لا نحن.

ذاب النصل في مدة وجيزة وقذف السائل اللزج الساخن صوب وجهه حيث رقص صارخا وهنا ضحك رفاقه ضحكا صادحا من ثم استلوا سيوفهم منتشين ورقصوا حول بدر ملوحين.

ألقى البيضة فوق عشب ينبت وسط التربة، تفادى ضربة قوس كادت تبقر بطنه متراجعا وأسكن كوعه في أنف الهاوي بسيفه ليخطف سلاحه وينحر عنقه بخفة.

المهاجم التالي استقر نصل بدر مخترقا جمجمته قبل ان يقرر رفع سيفه، واتجه الشواحي الى الأمام صاعدا النصل ورأسها خطا احمر يقسم الوجه، لمح أحد يمد سيفه صوب بطنه فقفز هاويا على كتفه الأيسر ثم مرره الى الكتف الآخر دون إخراج من جسده.

انحنى بدر للذي دار على عقبيه مولجا النصل في فتحة الشرج وما إن جذبته حتى غرزه في ثدي الموالي ثم طفق يبتر ذراعا التالي قبل رأسه، وللحظات خلق دوامة الدماء الأجسام المحلقة والأعضاء المبتورة المتطايرة. حمل البيضة الناصعة فلا نقطة حمراء وصلاتها منطلقا نحو الخيول فاستوقفته يد تمسك ساقه وقال صاحبها الضخم المحتضر:

- كان.. ليجن.. دك.. مله.. ام!.

أعطاه ابتسامة خفيفة سبقت دهس رأسه بمخمصه لمرة واحدة فجرته كثمرة رمان قانية. امتطى خيلا وساق معه البقية كما وضع البيضة في كيس جلدي مستمرا في طريقه يشرب ويأكل من محتويات ضحاياه.

امتلا فمه بالطعام حتى ثقل فتاته فور ترامي همهمات من شماله وقال بصوت مكتوم:

- تبا، دعوني أملا بطني.

ترجل عن خيله يختلس النظر بين الأحرش فشاهد ستة تحاصر رفاقه وقد ارتعش عند مشاهدة وجوههم الباسمة بشكل مريب إذ اتسعت ثغورهم مثلما اتسع خط احمر يصطبغ شفاههم، وتضيق أعينهم الكحيلية على خلاف أشعرهم البيضاء وكذا الحمراء.

زرد ريقه وارتعدت فرائسه هامسا:

- كلا، ليسوا هم.

بدي ان احدهم لمح بدر من بعيد حينما لوح له
بيده ضاحكا بصوت متقطع يعلو وينخفض، تراجع
الشواحي منطلقا فوق صهوة خيله تاركاً رفاقه عالقين
تحت شباك حديدية يصدح نباح الكلب مع صراخ
زملاءه، ومن بين الدسته خرج اللامح يركض بسرعة
فائقة وعلى نحو مربك، اخترق الهواء والأحراش
متفاديا جذوع الأشجار.

استعصى إيجاد بدر وهو يطارد الخيول ولا يرى
صاحبها، يناهز سرعتها وتقفق قهقهته صهيلها
المدوي. على جانب خيل أسود يصعب رؤيته ليلا
يتشبث بدر في سرج يرمق الضاحك الذي أمامه ينحر
أعناق الدواب في الصف الأول حيث تعثرت الخيول
الموازية لبدر مع غرماها الميتات فامتعض مستعدا
لدوره.

عندما حظ نصل سيف مشبه ملتوي على عنق خيله
وثب بدر الى التالي عندها تنبه له الضاحك فحاذاه قافزا
وجاعلا كلا نصليه العريضان يضيقان في الحزّ لهما
فتحة مثلت في الصفحة المعدنية، كان متقاطعان
يلصق كل حد في كتف كعلامة انتهاء الصلاحية او
الحظر الخاصة بالبضائع والاشخاص.

أحكم قبضته على شعر الخيل ويده الأخرى تجر
السراج ناحيته بغية إسقاط الدابة حتى اوشك المنقض
ان يرسم العلامة في ظهره بفتح ذراعيه بقوة غير
حلول صهوة الخيل بدل بدر الواقع تحت جسدها فاحتك
جسديهما خالقين عاصفة من التربة البنية والعشب
الأصفر.

كان الضاحك يتدحرج في خفة ورشاقة قبلما يثبت
ركبته فوق الارض والثانية مثنية بينما يسيل نصلاه
دما فلعهما يلوي عنقه كأفعى ثم اهتز صدره ضاحكا،
ولا زال بدر عالقا تحت الخيل المحتضر يسمع أنينها،
عض شفته متأوها ليقول ملتفتا يمينا الى الضاحك
الداني منه:

- اقتله رحمة.

- صحبيح.. القتل رحمة.

نبرته تشوبها فحة وتمديد، استأنف سيره وقوله:

- وكذلك التعذيب.. يخلصك من همووومك وعذااالك.

- أتذكرني؟

توقف قرب موضع بدر ثم أجاب:

- نعم.. ولا.. سأرحمك كما سأرحم الدابة.. لكن ليس

عن طريق.. القتل.. أبداااا.

قرفص واضعا نصله الملطخ دما على خد بدر يمسح

فيه الدم فيما يضع الثاني عند الخد الآخر وجعل

صفيحته في الشفتين مولولا:

- إلحق.. لكان دمك.. بيد أنك آثرت حياته على حياتك.

- إنه مجرد حيوان.

- صحبيح.. وانت مجرد إنسان.

ابتسم بدر في خلده اما علنا هو رأسه مستهزئا:

- حسنا، وأنت مجرد ماذا؟

- روووح.. لا انسى.. ولا أونس.. لست جسد ولا بشرة

ملونة.. ساخرا من الحياة.. مستخف بالممات.. شاكر

للقدر.. لاعن للمقدور.

- ومساعد لي على حمل هذا الخيل عن قدمي.

زفر ببرودة ونطق بجمود:

- إذا ساعدتك سأكون قد منحتك طريقا مختصرا للحياة..
ينبغي عيش مرّها وحلوها.. لا القفز الى السهل دوما.
- كيف سأقفز وقدماي تعصران؟

ذهب الضاحك في حال سبيله، وما دام بدر يرى
شبحه هتف:

- إيبية!.. ما لذي ستفعلون بأولئك؟

دون التفاتة خفيفة أجاب جاهرا:

- ما سنفعله بك.

ظهر من جانباه صفان للضحاكين يترنحون حائمين
حول الشواحي الذي صد صياحهم الحاد بيد تضغطان
على أذناه تُصك بدوامة من القرقرة والضحك الجنوني
يرددون:

- الوجه الضاحك يرحب بك.. الوجه الضاحك يبتسم
لك.. أووو! الوجه الضاحك حالا يضحك لك!

قطعوا ترديدهم محمقين في القادمين، رجل قصير
يقود مجموعة انشق زيد عنها غارسا سيفه في الخيل
على صهوة جواده فقال:

- موتا هنيئا.

بصق تيمور ليتساقط كومة ثخنة قرب قدم ضاحك
استحال إلى عابس مثل استحالة رفقاءهم يهيمون
ويدندنون بنغمة حزينة يضربون نصالهم مع بعضها
مبدعين طينيا متناسق وبديع، قهقهه بيركو باصقا
بدوره:

- ياله من صوت مزعج فلنرسم ابتسامة على
مؤخراتهم.

خلقت صدح الضاحكين ترنيمية جميلة تلذذ به بدر
وتناسى ألم ساقه، بصق عكرب صائحا:

- اخرجوا صوتكم كالنغاء اثناء الجماع.
جمالية غنائهم تناسب مع حفيف الاشجار البعيدة
موضعا والقريبة مسمعا، وأيضا مع نفخات الرياح
الهادئة، أعاد زيد سيفه الى غمده قائلا:

- لا اريد جرح مشاعركم ولكن حقا غنائكم.. خراء.
كان في أذنيهم وقرا لا يعون مدى إتقان الضاحكين
لترانيمهم وابتسم تيمور مؤيدا رجاله:

- أيتها الوجوه التي ضحك عليها الزمن.. جننا وجننا
لكم بشرى ترسم الود في ملامحكم المغتصبة.. ها هنا
سيدة.. سيدة السيدات.. يمكن دعوتها ملكة السيدات..
لذا ابتسموا لها وتوقفوا عن تأوهاتكم المثيرة لدابتي..
رغم اني أخصيته.

المهم أن غنائهم جميل، وغضن جبينه مقطباً
حاجباه غضباً:

- وأيضا احضرن زعيمك البائس.. او احضرونا اله
حتى نبهجه.. حالا!.

شق الضاحك الذي حاز على انتباه بدر:

- آاه صديقي السعيد.. عدت.

ولا يزال يكرّ أسنانه الما من ثقل الجسد الضخم
على قدماه النحيقتان صارتا هشتان كما رمقه تيمور
باستغراب قائلا:

- تشبه شخصا نبحت عنه!.

صفع الضاحك جواد تيمور فانتفض حتى اسقطه
ارضاً مع الامرأة المزريّة جاعلا الوجوه العابسة
تضحك من جديد، ولم يبادر من أتباع تيمور ردة فعل
إنما عقدوا أذرعهم في شرود تام.

مرت لحظات باردة يتبادل فيها الاطراف نظرات
التحدي والاحتقار فقطع تفكيرهم قول تيمور يستقيم
رافعا رأسه إلى الضاحك:

- لا شك لدي ان زعيمكم.. ستبتهج بي وبهديتي.. لم
يرسلني أحد إليكم قررت الانتفاع من مغنمي.

لعق الضاحك الصبغة الحمراء على شفته وقال:

- نتحدث عنها كأنها جاريتك.. ملكك.. لك.

- ربما قد..

قاطعه ضاغطا على كلماته:

- كل امرؤ حر بما كسب.. وهو رهين بجزاء فعلته..
هو ملك لخالقه.. والمتمرد ملك لنفسه.

- سحقالك، توقف عن مجادلتى كجدتي.. لتتحدث من
رجل الى رجل.. لا تظن أنك حكيم.

هتف زيد غاضبا:

- أتريد ان نحمك لتواجهه سيدي؟.

لفظها بعد دفع تيمور الضاحك باديا كقزم عنيف ضد
مهرج يقدم عروضاً في المدن، تلمل المهرج ثملا
واوسع عيناه زافرا ليقول:

- لا احد يفهمني لذلك أكره الجميع.. واحب نفسي..
يجدر بكم الحذو مثلي وأمثال هؤلاء.. لسنا مهرجين
نرفه عنكم كما لسنا منغصين نحرصكم على الانتحار.

زمجر تيمور حنقا:

- بكلامك تحرضنا.

ضرب بدر متن الخيل صائحا:

- فليرفعه احدكم عني.

تجاهلوه كما فعلوا في المرة الاولى يتحدثون وهو رابض بينه يريد تتبع الحديث لكن قدماه تشغلانه، تدخل زيد مهدئا الجميع:

- يا جماعة نحن لا نضمر أذى لكم.. ما قاله سيدي صحيح وصادق.. اسألوني أنا عن صدقه.. سنخبركم عن هوية الأنسة الجميلة حالما تأخذوننا الى سيديكم.. الوسيم.

قال باصقا:

- إذا وددت مناقشة الافكار اهلا وسهلا.. ليس هنا.. أجزم ان محلكم رائع ومريح.. واجل يمكنكم اخذنا معصوبين.

والتفت باسم الى تيمور يسأله:

- أليس كذلك؟

انتظره قليلا ثم اشاح عن وجهه صوب الضاحك متما قوله حرجا بابتسامة مغتصبة:

- لا، لا يمكنكم.

اخترق هدوءهم صياح أحد الضاحكين يركض إليهم ببطء شديد، وصل بعد مرور عام ثم انحنى لاهثا يقول:

- سيد باسم..

علق تيمور يقاطعه:

- جميل جمع بين الأمرين.. انحنى احتراما واستراحة.

اعتدل القادم راميا نظرة اشمنزاز له من ثم همس لسيدة:

- الفتى فرّ.. البقية في حوزتنا لا تخف.

- كيف فعلها؟

- لقد كنت الوحيد الذي اراقبهم.. وتعلم عشقي لمعرفة سيرة الناس.. فألهتني تلك الشمطاء.

قاطعه عابسا:

- إنها طفلة.

- ممتاز، ألهتي بقصتها المثيرة عن كيف عاشت في مملكة الاخضر واليابس ثم انتقلت مع اسرتها الى هنا.. هل كنت تعلم ان هناك تحمهم امرأة.. ويسمحون للبيض بالمشاركة في الساطة؟.. عفوا اثناء ذلك كان الصياد حك قضيب ملصق مع قدمه المبتورة بقيد الفتى الذي وضع الحبل فوق صخرة مدبية ثم انسل هاربا.

امسك باسم شعره يقهقه منحسرا ثم ضم عنقه الى صدره يسيران بعيدا وصفعه باطف وقال تتملكه الحسرة:

- كنت تعلم ما يفعلانه وتركتهما؟.

- ك.. آد.. لم.. لم اظنه يحاول الهرب بل خلت الصياد يلهي نفسه بالحك.. او ان الفتى يحاول تثبيت القضيب الخشبي لقدمه.

استدار باسم ينفش شعره متأوها فقبض الآخر معصمه بقوة يهدده:

- لو انك ستخبر الزعيم فساخبره عن كونك أسرتهم وتركت حارس واحد لتطارده شخص واحد بواسطة البقية.. آه كم سيغيظ ويرسم وجهها ضاحك في مؤخرتك المشعرة.

- ماذا؟!..

لكز باسم مبتسما بخبت:

- فتاتك تخبر الكل عنك.

لاك باسم اسنانه ومط شففيه تستفزه قهقهة الرجل فربت كتفه قائلا بنبرة طويلة هادئة:

- لا تقلق انت.. لن اخبر الزعيم العظييم.. وانت لن تفشي.. خطأ ما صنعت.. هممم؟..

حرك راسه موافقا ثم افلت معصمه في حركة حادة تحسسه باسم لاعنا، بينما عاد الرجل للحراسة وقف السيد البشوش يراقب تعابير المجموعة وتوقفت عيناه عند السيدة فدنا منها لاصقا نصله الايمن في وجنتها اليسرى وقال:

- قلت جئت بمحض إرادتك.. لا تدري مدى مقتي.. لمن يخالفون أوامر أسيادهم او ينسجون امر من تلقاء انفسهم.

- لا ادري.

- لذلك اخبرني يا قصير القامة والعقل ما لداعي لمعصية سيدك؟.. أجبيبي!

اخفض راسه حتى يقابل وجهه فلحق تيمور اسنانه قائلا:

- لأن هذا ما سيريده سيدي.. اختصرت عنه مشقة التفكير والقاء الاوامر.

اطلق باسم ضحكة قبيحة اعقبها اخرى مكتومة كأن لسان حاله يقول له: (أحقا؟)، فضحك تيمور بدوره بيد إطالته لها الى ان لمح نظرة ازدراء تنبعث من بؤبئيه التي سرعان ما أخفتها العينان الكحيلتان والضيقتان. أغمد باسم سيفه وكذلك فعلوا أتباعه خلال قوله:

- تعالوا.. نرى كيف سيرحب بكم الزعيم.

تأوه بدر لافظا كلامه عسرا:

- كيف سيرحب بنا الزعيم؟..

امتطى تيمور جواده فخورا رافقوهم الى حيث
أسروا زملاء بدر المتحفظز وجهه انتظارا للإجابة،
همس بخفوت:
- النجدة!.

باغته السكون المريب ثانية بعدما خفتت اصواتهم
متوارون عن الأنظار، عاود ضرب متن خيله يقهقه في
تحسر:

- لما لا يأسرني أيضا؟.

طفق ينظر حوالية حذرا ثم قال:

- كلا لن أخاطر باستخدامها.. فقد يراني أحدهم..
ولتوي تهوّرت واستعملتها أمام الصيادة والحمد لله
اعطت تفسيراً منطقياً فلكنت قتلتها.. آه لو قلت مني
واحد من أولئك الرجال الذي أصفيتهم لحكى ما رآه
ولردّه الى قوة الشواحيين من ثم سيصدرون أمراً قاطعاً
بإعدامي كوني فضحت.. مهارتهم حسب ظنهم.. مهلاً،
الصيادة ايضاً ردت الامر اليهم.. تناسيت ام نسيت؟..
سأتي اليها واطعمها للقرش..
- .. انظر لما وجدته.

اضطر للاستلقاء ليتسنى له رؤية البيضة الملونة
بثلاث ألوان أحمر وأسود وبني قاتم بفعل التربة في يد
معاذ فأشرق أسارير وجهه:

- يا إلهي.. البيضة!.

- اشتقت لي ام لها؟.

- انا من وجدتها.

وضع معاذ كفه على أذنه منحنيا:

- عفوا؟!.

تبسم بدر ضاحكا:

- أتشك في؟.. حسنا لأي حيوان تعود؟..
- طير.. دون شك لطير.. طائر.. الطيور وحدها من تبيض.

تراجع بدر عن إخباره حقيقتها مخافة هلعه وتخلصه منها فقال عوض ذلك:
- تعال وساعدني.

وضع البضة فوق الارض ثم جر الخيل من ساقيه فيما يدفع بدر صهوته، نهض معاذ متراجعا يصد انفه وقال:

- رائحته كريهة جدا!.. متى استحم آخر مرة؟..
- حيوان ميت.. كيف ستكون رائحته برأيك؟..
- على الاقل يدفونونه كبشر.. بالكفن ذو روائح عطرة والمسك.

حمم بدر مرغما نفسه عن التجاهل فقال:

- ساود سماع فكرتك بعدما.. تزيله عني.
- لنتظر حتى يتآكل فسيصبح اسهل عند الحمل.
دنا الشواحي بأذنه بجانبها كفه:

- لم اسمع ما قلتة.. أوه، سمعت احدهم يقول قضيب معدني لقدم الصياد.. وضح لي.

جرّ معاذ الخيل من ذيله ودفع بدر مؤخرته مما فتح مجال لقدمه اليسرى رغم بعدها عن الذيل والتي ربت عليها معاذ شارحا:

- بترت هذه الساق.

تأوه بدر مصدوما ومبتسما:

- لو انك حكيت قصة ذلك بالترتيب حتى تصل الى لحظة البتر.. لكان احسن ان تختصر بهذه الفظاعة.. اي احمق هذا يفعلها هكذا.. اقصد البتر لا طريقة حكيك.

- الخبر المفرح عوّض ساقه بقضيب من جذع شجرة..
الليمون..

- سحقاً، لم يتكبدوا عناء اختيار شجرة أخرى.

- الأخرى قول عوّضه شخص التقيناه صدفة بما يعينه
على المشي.. لكن غير كاف.

هزهز بدر راسه فاهما وقال:

- آه، ينبغي ان يعطيه ساقه.. سيكون كافياً.. متى حدث
ذلك؟

جلس معاذ ماسكا البيضة يمسح عنها التربة فيما
يقول:

- ذلك البدين.. نعم آواني واعتنى.. بي عند ضعفي..

وكذا حماني.. غير انه لم يكن مضطراً لمواجهة.. لقد

أخذته الرجل الى قومه.. يدعون بالدواب أو.. لا ادري

من هم.

- فانتى الكثير.. الكثير من التعليق المتهم.

استطاع إخراج قدمه اليمنى حينما رفع الدابة ثم

ارتقى مستلقيا فوق العشب على بطنه:

- ما رأيك.. نذهب خلفهم لإنقاذ رفاقنا.. أو نستمر في

طريقنا كما اتفقنا في أول مرة التقينا؟

- حقا ستأخذني الى الب.. بارياا.. رالح.

- سأخذك اليه عندما تنطقه صحيحا.. لا، أمزح.

استلقى معاذ بدوره غير انه على ظهره قائلا:

- ذلك السمين ذكر أنه تعامل معك.. وأن مصيرنا قد

يكون مثلك.. كإشارة لقتلك.

زفر بدر بأريحية يقول:

- صحيح، قتلني ومت ثم أقاموا جنازة مهيبه ودفنوني

بجوارك.

ضحك معاذ خلال زفير بدر القائل:

- لدي رغبة جامحة في إنقاذ الفتاة فقط.
- وهل لديك رغبة جامحة تجاهها؟
- تحدث كأنني أعتبركما طفلين.. إنما أفضل قضاء وقتي مع من اصغر مني او في سني.
- لأن الكبار يضايقونك.

اشار بدر براسه نغيا فقال يفسر بيديه:

- لأنني إذا اردت فهم البشر عليّ البدء بصغارهم.. أريد فهمهم فطريا لا بعدما قضوا سنوات من حشو العقول.
- ارتسمت على ملامح معاذ الدهشة والاستغراب فأعلن:

- فهم البشر!.. ابدأ بنفسك.. انت كذلك بشر.

- حقا.. تعتبرني بشريا؟

عبر عن كلامه بمنتهى الفرح من الداخل والمتلهف من الخارج حيث فغر فاهه يعني ما سيقوله، هكذا صاح سعيدا يردد مستلقيا على ظهره ومصوبا يداه الى السماء:

- أنا بشري.. أنا بشري!!

الفصل الثامن عشر:

كانه حدث للتو ما يستذكره الآن، ملقى على ارضية الزنزانة المدلهمة يؤنسه جرد قدر فوق فخذة فهرب فور فتح القضبان الحديدية ودلوف القائد الأعلى بابتسامته الصفراء المقيتة لدى نجيب الذي بدأ يستعيد عافيته.

قرفص اذير دانيا من وجه الجبلي الممتلى كدمات زرقاء فقال مشفقا عليه:

- نسيت جزر رجالي عن أذيتك.. وووه! في الساحة هناك..

أشار بإبهامه خلفه مستأنفا:

- .. فوضى عارمة إثر قدوم.. آح، ما اسمه؟.. رسول
من دولتنا الحبيبة يحمل أمرا قاطعا بـ.. عدم إطلاعك
عن رسالة الرسول هاهاهاخ.

اتجه بجواره يسند ظهره الى الحائط الصلد،
استغرب الجبلي من امتزاج تعابيره بين الامتعاض
والاستخفاف فقال له بصوت رخو تعب:

- حدث لك.. ما لم.. يكن في الحساب.

بصق ازير امام حجره معلنا:

- اكتفيت من انتظار ترقيتي.. غلمان خرقون يعتلون
مناصب قبلي وجلدهم كالدقيق.. اما انا فرمت وطحنت
لأجل هذا المقام المهين.. اراقب القلاع!.. يتبقى لي
تلبيسهم حفاظات.

- لا تبكي.

- اخرس واصغى لكلامي.

تلاحقت انفاس ازير يحكي ما صار:

- بالخطأ قتلت اعز اصدقائي.. نعم هو خادمي ولكني
اعتبرته صديقي.. طريقة مجابهته للناس وصبره
جعلتني احبه.. فقربته إلي.. الآن ينبغي اخذ جثمانه الى
والده وإحضار أخيه او اي احد في سنه.

كان نجيب نائم خلال حديثه فلما انتبه له ارتمى
عليه يخنقه بسلاسله ويصرخ في أذنه اليسرى فيما
تحتك الأخرى مع الارضية الصلبة:

- أتدري لما احكي لك ما في ذهني؟.. احب سماع
كلمات شخص يعدّ انفاسه الأخيرة.. ستأخذ معك قولي
الى قبرك.

سمع خطوات قادمة فأفلته مندفعاً صوب القضبان،
كان القادم هو الرسول الذي رمق نجيب المختنق ثم
رفع نظره الى الخائق قائلاً:

- يجب ان تكون في مكتب مكلف القلعة تكتب ردك.

- لا أحتاج.. بلّغهم انني قبلت.

- سأخذ الأسرى معي أيضاً.

اطلق اذير يده بين القضبان ممسكة رداءه من
الصدر وجذبه اليه مرطماً راس الرسول مع الحديد،
وأغلق صوته:

- الأسرى لي وحدي.. سأتي بهم وأنال رضى الحكام
لوحدي.. انما من دبّرت الخطة فأنا من سأكتب آخر
حروفها.

- حاضر، سأذهب أنا فقط.. خطيبة الملك ستجدها في
ملتقى نهري "فخروم".. من هناك تنطلقون للعاصمة.
ترك رداءه وهمس:

- لديّ طريقي في الدخول المهيب.. لن انتظر استقبال
الغلام لنا.

أماء الرسول موافقاً وناداه اذير قبيل انعطافه
مغادراً فعاد لمكانه مستقبلاً كلماته وهو يدير راسه
لنجيب المستلقي ارضاً:

- ستتعلم طريق جيداً يضاف الى خريطةك الذهنية..
كما قلت لديّ طريقي في الدخول..

ألقى على الرسول تلك النظرة المججلة:

- قلعة الدواب تنتظرهم زيارة ملكية مني.. لذا خذ
معك هاتيه الدابة واذكروني جيداً.. اجعلوهم يترقبون
قدومي بجسد مرتعد.

- من تقصد بأنتم؟

- أتحدث مع دابة اخرى!.. انى لك معرفة مكانهم؟..
سوف تحتاج مساعدة طفيفة.

صفر لمدة قصيرة أوقفها قدوم رجل يتشح بوشاح
ويغطي وجهه لثام، خلف ظهره مقبض سيف، اقترب
منهما مترنحا يتكئ على قدمه اليمنى، سخر منه
الرسول معلقا:

- مساعدة من اعرج.

بصوت خشن دافع عن نفسه:

- تعرضت لضربة خنجر اثناء بحثي عن مخبئهم..
لسوء حظي صادفت اب وابنه خلتهمما سهلين لسرقة
دابة احدهما لكن الاب غدمني.

- قصة جميلة ستحكيها لي في الطريق.. ارجو الا تكون
يداك مثل قدمك.

.. تصاعدت الأصوات، تصفد جسده عرقا، واستحال
لونه برتقاليا من ضواء المشاعل فوق رؤوسهم، وفي
الأعلى شرفة مفتوحة يطل بها الدواب المسلحين
لحراستهم، ايقظته صفة وسعت عيناه وقال لهئا:
- من.. أين.. كيف..

اجابه الصافع على يمينه:

- مرحبا بك في سجن الدواب.. الجو حار ومحموم..
لكن ذلك النحيف يسارع لفك مسامير عن فتحة ستمكننا
من الهرب.

استدار له نجيب ببطء مشاهدا نسخة منه بيد انها
مضاعفة، كتلة لحم مترهلة وشعر اسود تسريحته تشبه
نجيب، ثم سمع صوتا مألوف:

- آاه، ما يزال الفتى يطل علينا.

- ناصر!.

- بل خاسر.

اتجهت الأنظار نحو القائل العازل بعدما حذفوا منه
مخالبه ومنجله، يعقد ذراعيه متجهم الملامح، رمقه
ناصر مزدريا:

- لعبت مع الشخص الخطأ.

قفز النحيف فرحا حينما فك المسامير كلها وأحمد
فرحته صياح كتلة اللحم وأخفض صوته:

- إياك فتحها فالفتى يرانا.. لا شك سيخبر والده عن
فرارنا.. اصبر ريثما يغادر وأما بقية الجنود يجلسون
ارضا فلا يروننا إنما غائصين في حديثهم.

- كأنك تتبرز شعرا.

ضحك الجميع لقول النحيف وعمت الجلبة منهم
ينقلب ضحكا أو يلکم الحائط مقهقها مما جعل الجنود
يطلون ليجدوا سجناء أبرياء ودعاء مبتسمين لهم
ويتكلمون بهدوء والكل جالس في مكانه، حتى النحيف
يتكى على الفتحة قارئا كتابه، عاد الجنود يجلسون ما
عدا واحد، دندن كتلة اللحم:

- بحق امك اجلس.

صدر صوت مجهول من السجناء فانشغل الجندي
يفتش عن الفاعل، واطلق كلام لا يعرف صاحبه:
- ارفق بمؤخرتك.

هتف الجندي حانقا:

- من القائل؟

أخفض كتلة اللحم رأسه صائحا:

- مؤخرتك.

انفجر الجميع ضحكا، وبدى ان الجندي لحظه لهذا
اشار اليه غضبا:

- انت.. يا رفاق فلنمسكه ونطعمه لدوابنا المفترسة.

انطلق نحو باب من اربعة ابواب كل واحد في جهة،
تبعه الجنود يدلفون اي باب نازلين من السلالم
الطويلة والعالية يحجبها اربعة جدران عن السجناء
الذي انتفض أضخمهم:

- الآن نستطيع الفرار.. هيا هيا.

انقلبت الدنيا رأسا على عقب الكل يتسابق نحو
الفتحة، صد بضعة منهم المداخل الاربعة الضيقة
بالكراسي الطويلة التي كانوا يجلسون عليها يتكئونها
على ابواب المداخل، دخل الفتحة من دخل ولا يزال
السجناء يتدافعون ويدفعون الداخل من مؤخرته.

بقي نجيب وناصر وكتلة اللحم فيما تم دهنس
النحيف ورفسه فلا يسمعون منه إلا زفيرا خافت يلفظ
آخر أنفاسه، وفي ركن ظل صاحب الذئب عاقدا
ذراعيه، دلف نجيب ومن وراءه ناصر يطل برأسه على
الذئب:

- أوقفني إن استطعت.. هيا انت تعال.

اجاب كتلة اللحم مرتجفا:

- لا أستطيع.. جسدي لن يدخل.. وأيضا سأكون حملا
ثقيلاً عليكم اثناء الفرار.. اقدر الركض اليك بشق
الانفس فما بالك الركض في الغابات.
- أنت تعرف.

دلف ناصر وسرعان ما أخرجته يد تمسك قدمه،
سقط على ذقنه بينما الجنود يدكون ابواب المداخل
الموضوع عليهم الكراسي بطولها، نهض ناصر
متحسسا الم ذقنه ينظر للدم على اصابعه ثم رفع راسه
مبتسما للذئب:

- كنت اعلم انك لن تدعني افر وحسب.

جمع الذئب كما ثيابه مستعدا للنزال خلفه كتلة اللحم يتقطر عرقا ويده تقبض مسمارا طويلا، جمع رباطة جأشه وغرزه في عنق الذئب مرة تلو الأخرى حتى غادرت روحه ودماءه من جسده تطهر أرضية السجن، هذاه ناصر بلطف:

- انظر اليّ.. لم يحدث شيء.

حينما ارتطم جسد جندي مه المدخل المقابل للقاتل قفز هلعاً يصرخ باكياً، خطف منه ناصر المسمار ودلف الفتحة داعياً له:

- تعال.. لن يرحموك، نحن سنفعل.. تعال وأقسم بالله أني سأمنح لك هنا سأتكلف بحمايتك من هذا العالم.

دنا من الفتحة مرتبكاً، ادخل راسه فعلق جسده بها، ساعده ناصر يجره للداخل ثم توقف، توتر كتلة اللحم:

- مـمـ.. لما توقفت؟

- هكذا جيّد.. شكرا لك وسأفي بوعدتي.. هنا وحماية.

رسم ناصر خط احمر من الأذن الى الأذن وتراجع مواصلاً طريقه ذار ضحيته يتبلع الدم وتسد فتحة الخط كما سدّت فتحة السجن، الابواب فتحت بصريرها والكراسي تهشمت بخشبها، حاول الجنود إخراجهم دون جدوى، صاح التمساح في الفتى:

- أخبر والدك والزعيم.. اسرع.

مرق الابن من الغرف والممرات كطيف تاه في طريقه كونه لم يعتد على القلعة بعد، فأنقذته نبرة والده الساخرة، اتجه صوب المصدر فرأى الزعيم يحادث الأب بينهما رجل ذو وجه ضاحك مقيد اليدين على ركبتيه جاثياً.

خطى نحوهم بتثاقل لا يبتغي مقاطعتهم لا سيما
زعيق الأسير:

- أطلق سراحى وسأحضر لك صاحب المؤخرة
المشعرة.. لقد سلمني إليكم ما يدل على خلاف بيننا..
عدو عدوي صديق أليس كذلك؟.. يمكننا التعاون.
مسد الأب شعر الزاعق وقال مخاطبا الزعيم:
- كفى دوابك المفترسة به.

- كلا، نحتاجه ليرينا مكانهم.. الضاحكون تجرؤوا
للاقتراب من حدودنا كتجرئهم على تجاوز المنطقة
والوسطى واحتلال اراضي الممالك.. لو هذبناهم
فسيكافئنا ملاكها.

- ستترك جنازة ابنك.
- قمنا بها البارحة.
تعاليت جلبلة الجنود يتجهون صوب الساحة يركضون
مستلين أسلحتهم، قدم النمر منحنيا لزعيمة:
- لقد وصل، سيدي.

قررا الانطلاق فما استدارا لهتاف الابن:
- السجناء فروا.

بل اختفت غير مستقرة في عقولهما، حمل النمر
الأسير أخذه الى مصيره. خارج القلعة وسط الساحة
يصرخ الدواب كارهين الزائرين، رشقوا عربة الكلاب
بالأحجار يرددون:

- سحقا للكلاب الخائنة لنا.. سحقا لك.
ردد الغوريلا:

- تفضلين البشر علينا.. تخدمين البشر.

فوق العربة أذير يضع يده في وركيه متفحصا
القلعة لوحده مع السائق وكلابه المستعرة، ابتسم هاتفا
فور رؤية الزعيم:

- هاه، بدلتم الزعيم مرة اخرى.. هوه، ها هو.
وكان اطمئنانه بظهور بيلوف خلفه يتبعه الابن:

- هيه، وجدت البديل بسرعة .

قفز يحط امامهما و اشار زاما فاهه للابن:

- ذاك.. سنغادر.

امتطى خيله وكذلك تحفز السائق للمغادرة، زمجر
فيه الزعيم:

- ألم نتفق على عدم أخذ أبناء الزعماء؟.

سكن بيلوف متفاجئا فيما أضاف الزعيم:

- وانا لم تبقي لي ابنا.. الآخر مختفي.. ارى انك لم
تحضر رجالك هذه المرة.

- لماذا.. أتريدهم؟.

منحه ابتسامة خبيثة طردها الزعيم مبتعدا:

- بعدما تنتهي من الزعيم الأصلي، سنحظى بدردشة
طويلة.

امتطى الاب خيله ليواجه اذير فقال:

- في فترة حكمي ما كنت تأتينا وما كنت ستأتي.. فبحق
الله اخبرني كيف اقنعتهم؟.. تأخذ ابنا من شئت كأنك

ملك.

- نحن نكره الملوك.. ألم تخبرك دابتك المثيرة عن نظام
حكمننا؟.. ربما غدا اصير الحاكم، وهذا ما ابتغيه.. إن

ارضيت الناخبين بأسرى عدونا السابق غدا تعال وقبل
قدمي.. انتخاباتنا وشيكة.. خلافكم البارحة زعيم واليوم

زعيم دون استشارة.. ومن قبل اثناء صراعنا كنت
الزعيم.

اشار اذير للسائق بالمغادرة واعطى نظرة وعيد
بعيناه وسبابته:

- ستندمون.. سوف ترون حيواناتكم تنهش لحومكم.
لاك فمه للانطلاق حتى حال بينه وبين البوابة الابن
فاتحا ذراعيه مؤقفة:

- سارافقك.. انتهيت منه.. انتهت رحلتنا.
عبر الأب عن صدمته بابتسامة عريضة:
- تربيتي انا.

كذلك ابتسم اذير موجهها خطابه للزعيم الجديد:
- نجوتم بأعجوبة.. لا تقلق سأعتني به.. كنظرائه
السابقون.. رحمهم الله هاهاهاح!

ركب الابن مع السائق يدور بعربته صوب البوابة،
حط كف الاب على راحة ابنه يتنفس بضيق:

- كلا، أمزح.. ابقى معي.. كنت سأعيدك الى امك..
ارجوك لا تذهب معه إنه احمق مجنون.

كان اذير مترجلا قرب الزعيم السابق يقف خلفه
مطأطأ الرأس وقال بمرارة خبيثة:

- أنا حزين على وفاة ابنك.. انظر الي انظر لشدة
حزني.

لم ينظر اليه فيما يورجح القائد الاعلى رأسه عاقدا
يديه خلفه ويتحدث بنبرة حزينة:

- انا جدا متأسف هاهاهاح.. صعب إبداء حزنيك.. هل
تريدني إقناعك حول مدى حزني عليك في الفراش..
اسرعي اميرتي لان فارس احلامك مسافر للذود عن
مملكتك.

ابتسمت عيناه التي انكشيت بضربة أب الضحية،
كاد السقوط حيث تشبث بخيله الاسود الفاحم يخب أسفا
على حالة راكبه المتوجه نحو الأب ثم بصق:

- سامحتك على هذه.. لنعتبر الامر تعادل قتل ابنك
مقابل لکمی.. صراحة لکمی ليس أمرا هينا.

واتجه نحو الاب الآخر يكافح لإقناع ابنه فقال ازير:

- ابنك في ايادي امينة.. لا تخف لن يموت مثل
السابقون.. سأحرص على ان ينال موة شريفة.

خرجت من فمه تلك القهقهة المقيتة لأب الذي
زعم في الجنود الدواب:

- لا تدعوهم يخرجون.. اقتلوه!

لم يستجب له أحد البتة فالتفت للزعيم الآخر منتظرا
ردّه لكن هزهز كتفه غير مبالي مجرد قوله:

- الى ان تقام طقوس التنصيب.. انا هو الزعيم.. لا
تتصرف كأنك لا تعلم هذا.

وقال ازير مضيفا:

- لذلك سأخذ ابنك عوض ابنه المختفي.. لکنت انتظره
حتى يصبح مرأي.

يعرف الأب جيدا انه تبقى له امر واحد لفعله، استلّ
سيفه مهيجا خيله فوقفت الدابة على حافريها السفليين
ما اوقعت ازير المعتدل بسرعة يستل سيفه الطويل،
مرت لحظات يترقب الخصم هجمة خصمه ويدوران
حول نفسيهما في دائرة تضيق وتضيق حتى تحتم على
احدهما استهلال النزال.

كما هاجت الكلاب تخدش القفص جميعها مركزة
على الأب تريد الانقضاض عليه، رغم تراجع الاب
للوراء موقفا سيفه بين عينيه إلا ان نصل الخصم قبل

السيف لشدة طوله وفراغة المهاجم، لذا فضل التفادي عبر الانحناء او القفز على التراجع.

قفز وانحنى وتحنى للجوانب فلهث امام سلامة ازير لا يكل ولا يميل، انحنى الاب لكنه قوبل بحدائه، قفز وقوبل بلكمته من الاسفل الى الذقن وعندما مدد ازير سيفه ناحية البطن تراجع الاب متأخرا فاخرقه النصل رويدا غير انفلاته منه لما سقط على ظهره.

أمطرت على الاب ضربات متكررة ومختلفة الاتجاهات فيما هو مستلقي، يرفع سيفه يصد ويخفضه لالتقاط أنفاسه، وجه ازير حزه للابن بينما يحدج الاب ساخرا:

- تقاتل من اجله لعله ابن بار وصالح.. وهذا ما اريده..
ابن بار رفيق صالح وصديق فالح.

- إذا قاتل من أجله أيضا.

مط ازير شفثيه تمطيطا ليصنع بها وجهها متفهم:

- حسنا، سأفعل.. بطريقتي.

ضرب قفل القفص بغية إسقاط قضيب معدني صغير يغلقها، وأتمت الكلاب بقية الفتح مندفعة بعنجهية نحو الراقد، استطاع تحييد واحد إذ خرج النصل من عنقه، ولكن علق به فتمكنت الثلاثة من الوجبة بسهولة، تمزق اللحم وتهشم العظام، شهوة جامحة للافتراس، دابة فطرية تتغذى على دابة متكررة، صراخ مكتوم غير ملحوظ امام اصوات المضغ والعض.

قرفص ازير يضع ذقنه على مقبض سيفه ويشاهد الوليمة عن قرب، في حين فقد الابن وعيه يضع رأسه على كتف السائق، الزعيم الوحيد أخفض رأسه احتراماً لرفيقه ففعل الدواب مثله. انتهت الوليمة بعد رمي ازير

يد الاب المبتورة الى داخل القفص فتسابق الثلاثة عليها وأغلق القفص مولجا القضيب، اقترب من الضحيتان يتأوه حزنا:

- أووه.. المخنث قتل ابني..

التفت باكيا الى الزعيم وصاح:

- اشعر بك.. فقدان الابن صعب.. صعب جداً.

امتنع الزعيم عن الكلام لكن بعد قوله:

- غادر حالا!.. وقتنا مليء بسببك.. جنازة أخرى ثم

تهذيب حقراء مثلك.. يضحكون ويضحكون إلى متى؟!..

في لمح البصر غدى القائد الأعلى مبتسما كعادته

وقال:

- لن تصلوا إليهم باكرا وتقبضون عليهم.. لان ليس

لكم خيول وأحصنة.

احدث مجيئ النمر ضجيجا بوقع حذاءه، انتبه له

ازير وهو يقول:

- لدينا ما أفضل.. عربات تجر من طرف السجناء..

وازف لك خبر اننا سجننا العديد وصنعنا الكثير.

تلاقت أعينهم في تحدّي بدأه ازير:

- و.. أين هم.. هؤلاء الخيول البشرية؟.

لهي لحظات قصيرة حتى انفصل لوح مرّبع معدني

عن الجدار وسقطت المسامير كأطمار، تبعه سقوط

السجناء مشكلين جبل بشري، حط فوقه الجبلي وانزلق

للأسفل بينما لحقه ناصر منجرف تجاه الأرض.

زفر النمر بأنفه ينثر غبارا داعب فم أزير والأخير

يستطيع رؤية فمه أيضا كونه نزع فم القناع بسبب

تكسّره، امتطى أزير خيله خلف العربة المنطلقة ملقيا

كلمات مقتضبة:

- أتمنى لكم هجمة مرتدة.. وتسديدات موفقة.
وأغلقت البوابة بمصراعيها ثم نزل جدار معدني
قادحا الأرض من ثم أنزلوا شباكاً، الكل ساكناً والكل
مترقب..

.. القاعة الوحيدة الواسعة عجت طرباً وغناء من
الفرقة الغنائية مضاف إليها نسوة يرنمن وصدحن
بعذوبة أصواتهن، جلس الزعيم على عرشه رافعا
قدحه فرفع الحاضرون كؤوسهم زاعقين، وأعلن:
- نخب الهدنة مع الخفاش!..

التهوا حديثاً وكلاماً فيما انشغل البعض مع الوليمة،
ورفقاء الزعيم يرقصون حول النسوة مخمورين، غير
النمر الذي جلس بجوار سيده يتهامسون:

- نحتفل الليلة وننتقم غدا.. سيدي أنت عبقرى حقا.
- خلّص عدونا مزاحم لعرشي.. وسنصنع له عدواً.. إن
أمسكنا ولو واحد من الضاحكين ثم نلقيه عنده فسوف
يحرقون قلاعهم عن بكرة أبيهم.. خلّص عدونا ابنان
لقيطان بينما يتمتع أنبائي في جزر "أبناء الحيتان"..
- جيد تحالفنا معهم مؤخراً.. رغم انه مرّ خمسة عقود
ونصف على آخر غزوة لهم.. لكن إن أعادوا الكرة فلن
يمسّونا ولن نمدّ لهم يد العون.
- أوجدتم اللقيط بعد؟..

استغرب النمر:

- وما حاجتك به؟

- كلا ينبغي إيجاده لكي لا نثير شكوك أفراد جماعتنا..
هم بالفعل يلاحظون برودة علاقتي مع لقطائي الذين
يحسبونهم ابنائي.. آه كدت انسى ابداً تحضير المرأة
القادمة لنصنع لقطاء جديدين.. لن يتأخر الخفاش عن

القدوم لأخذ ابني اللقيط.. ربما قد يكون ابن بيلوف مات الآن، فتى مثله صعب النجاة مع شخص كالخفّاش.
زمجر النمر مخالفا إياه:

- من حديثك تظهر عدم واثق من الخطة.. لما سنصنع لقطا آخر إذا كنا سننهي عدوانا بحجر واحد.
- يدعى احتياط.. خطة بديلة.. لا تتيقن جدا فيما سنفعل.. الأخطاء الغير المتوقعة تحدث دائما حتى صارت متوقعة.

غاص حديثهما وسط الجلبة والضجيج حيث تزلزلت القاعة بصياحهم، هاج رفقاء الزعيم لما التقطوا النسوة يقودونهن لإفراغ شهواتهم، وصاح التمساح مقهقها:

- لنصنع لقيطا بهن.
جفل الزعيم غير مكملا شربه فوضع القدرح بهدوء ثم التفت الى النمر المنقل عيناه بين زوايا القاعة توترا، فهمس له:
- كم واحد أخبرته؟

- الظاهر.. اني اخبرت.. دون قصد.. الفتاة التي تدفئ فراشه كل ليلة.. أتذكر الليلة التي ارسلته مع الذئب واثنان آخران للهجوم على مسار الأخوين ملهام.. لم ترسلني فغضبت وأردت صبه على أي احد فكانت هي في طريقي.. فصبيتها عليها.
- بقمك؟

- بما أفضل منه إقناعا.
كان الزعيم مستقيما في جلسته ومحط انظاره:
- وهكذا اخبرته الفتاة عن فعلتك.

- تقريبا.. وعدتها بإخبارها سرا وهو الذي نعرفه.. في المقابل لا تُعلم التمساح.

- وعدتها به؟

- لا، بفمّي.

- اعرف.. فك.. نعم، احمق!.. قلت وعدتها بسري ، أليس لك أسرار؟

- مدفونة.

مدّ للنمر خنجرا وقال:

- وهذا ما ستفعله بالتمساح.. هممم؟

التقط الخنجر مترددا ثم أحنى راسه واقفا ومطمئنا:

- أعشق لعبتك القدرة.

قطع النمر شوطا مارا من شرفة مغلقة وعليها ساريتان قصيرتان تضيق وتتسع فخرا بإبداع صانعها، تطل الشرفة على السجناء المربوطين مع عربات الجرّ، جالسين على الأرض تشكّيلتهم تبرز الاسـتعداد للانطلاق.

بلغ غرفة اخترق ستارها المخملي فصمت قاطنوها

مبتسمين له، دعاه الجاموس:

- تعال واحظى بوحدة.

قدّم له امرأة كبيرة في السن ثم قهقه المقدم:

- جرّبها فستشعرك بالأمومة.

- اين هو التمساح؟

- لعله عالق في مدخل غرفة خاصة.

فتّش عن الغرف التي تكون للزوجين، لمحاه يحاول

الدلوف فيمنعه أنفه الأخضر الطويل:

- ساعديني أيتها الحقيرة.. تتفرّجين لا أنت تعرّيت ولا أنت أعنتيني.

أعانه النمر بقوة لوت انفه وألقته فوق الفراش،
أغلق الباب وحينما انتبه للفتاة اشار اليها للخروج
فهرولت هاربة ثم أغلقه ثانية، نزع التمساح قناعه
ليكشف عن وجه بشع منكمش دعا النمر للتهكم:

- لقيط من لقطاع الزعيم.. لا اعلم ما لخطأ في نطفته..
جميعكم تخرجون كمخاطي.

- ماذا تريد؟.. غادر فلا ميل لي تجاهك.

- سأحكي لك المستقبل.. أقتلك، أغتصبك، ألقى جثتك
المحروقة في نهر، يلتهمك تمساح، يعيد الزعيم صنعك
أو صنع إخوانك.. هذه دورة حياتكم البئيسة.

- م-م-م.. ليس هكذا نعاقب كلامك صحيح ما عدى
جزئية الاغتصاب.. جيد أني لم اسمع ضرطك تعال
وأخبرني.

انقض النمر بخنجر عليه فأمسك التمساح معصمه
مبعدا الخنجر عن عينه فيما يضغط النمر بكلتا يديه
لغرزته، ثقل التمساح ولم يفلح مراده مع النمر فتعصّر
لقول:

- كانت تفلح معي من طرف العاهرات.

سلك التمساح قبضته يلکم حجره فرأى حدقتا عينيه
تتسعان، نطحه النمر وأما هو كرر اللكم فكرر الآخر
المنطح، من بين جنبات أضلع النمر نبت نصل سيف
يشق ظهره الى بطنه الى بطن التمساح، أعاده صاحبه
بعد مسح الدماء عنه الى غمده قائلاً:

- بتّ وحدي أعلم هذا السرّ.

عاد الزعيم لعرشه منادياً على الرفقاء اثناء مروره
منهم وأمرهم:

- ابحثا عن النمر والتمساح.

لبث غير بعيد حتى جاءه الغوريلا مرتبكا:
-سيد.. سيدي قد تشاجرا وغُدر بهما من الخلف.
التفت إليه: { أعلّي قتله كذلك كونه يعلم سبب وفاتهما؟ }، وقال:
- إذا انت الفاعل.. ببساطة.. تخبرني طريقة موتهما..
قاطعته:

- لا، الجميع فطن إلى ذلك.
- جدوا تفسيراً آخر.. لنقل الفتاة التي أخذها التمساح هي الفاعلة ونهي الموضوع.
- لا يجب ان ينتهي هكذا حتى لا تتكرر.. ويتجرّان على فعلها نظراً لأن الزعيم لم يعبأ بالعقاب.
- ذكائك يدل على بزوغ صفات نائب الزعيم.. هنيئاً لك.
- مهما حوال التخلّص منه يستنتج امورا اذا عيّنه النائب امام الحاضرين الغير المهتمين ففرح النائب لوحده وانضمت فتاة ضخمة لفرحتهن صفع الزعيم مؤخرته أمرا:
- تخلّص من الفاعلة.
- أول أمر بصفة النائب لهو أمر مهيب.. سأحرص على تنفيذه بنفسه.
- ثم عاود صفعه هناك:
- وهذا أمري الثاني.. نفذ بنفسك ولا تُعلم أحداً.. حتى غولتك لا تخبرها.
- حاضر.
- ظل النائب منحنيّاً له لصفعه فرمقه الزعيم مستغرباً فقال نائبه:
- أوو!.. تلك هي الأخيرة.

.. في الصباح الغائم يتسابق السجناء ركضا جارين
عرباء تحمل ما بين جنديان وأربعة بشق الأنفيس
المتلاحقة، لا يعلم الجبلي أهو حسن حظه يحمل الزعيم
فقط أو تعسه يتلقى سوطه أكثر من رفاقه، لكنه استقر
في اعتباره تعسا بهبوب الرياح وهطول المطر صانعا
وحلا غائص، كان تقلب الجو مرافق لدخولهم الطريق
الضيّق يستدعي مرور عربة واحدة.

صرخ فيه الزعيم بغمه وسوطه المفرق:

- لا احد امامك اسرع.

يتجاهله الجبلي كتجاهله للطريق عكس عدم تجاهله
للهثة ونداء جسمه للراحة، أصبح الطريق اشد ضيقا
وانحدارا فلئن تفلت عجلة لتوقع المحمول والجارّ
فينجرفون ويبتلعهم ظلام الغابة السفلى. أسرع نجيب
يسبق من ورائه ليبعد عنهم فأرضى الزعيم المقهقه:
- جيّد، هكذا أريد.. الله!.

واحد يستمتع بالطريق منتشي يدع الرياح تلطمه
وينظر إلى الطبيعة، بينما يجاهد آخر على إسعاده حيث
كلما خفق في ذلك نال طعم السوط وكلما نجح نال
السعيد طعم السرعة والحريّة، عزم نجيب: { فلننال طعم
المجهول! }.

بشكل مباغت احكم قبضته اليمنى يرفعها مع
العمود الذي ربطت يداه به عبر سلسلة حديدية، اهتزت
العربة مائلة لليسار وباتت هي التي تجرّهما للهاوية،
تنبّه الجاموس يجرّه ناصر إلى ابتلاع الغابة لعربة
سيده من ثم ابتلعت نجيب المنزلق وأخيرا سيده
المتدحرج.

صاح للتوقف فلما توقفت عربته فرت الرياح بندائه
فلم يسمعه غيرهما إذ ارتطمت كل واحدة مع التي
أمامها، منها وقع له مثل وقع سيده لكن الأغلبية
سلموا. وقف الجاموس يخرق نظره في الشمال
الغربي لرؤيتهم داخل الغابة أسفلهم، اهتز النائب واقعا
على جانب العربة يتشبث ما استطاع بالعمود الذي
يجرّه ناصر يترنج ويتميل يمينا وشمالا، صاح فيه:

- توقف وإلا ستقتلنا!

- فك قيدي!.

- على جثتي.

تجرف العربة لليمين ثم تجرف لليسار خلفها
المجموعة تلحقها ما يعني سيطرة المحمولين على
الجارّين، سيطرة السوط على الأظهر. سلم النائب
جالس بأمان وحمل السوط يصفع الهواء راسما خطوط
متعرجة في ظهر ناصر ليخبو جماعه لاهثا وجسده ما
يمنعه عن الوقوع سوى العمودان المقيدة فيهما يديه.

.. خرجوا لمكان فسيح افترش السجناء الارض
محافظين على القيود وأيديهم مرفوعة سواء النائمين
على بطونهم أو ظهورهم، في حين اتجهت فرقة يقودها
الجاموس بحثا عن الزعيم. اخترقوا الظلام البالع يمسك
وحيد القرن مشعلا ضوءه خافت، ركض النائب فور
لمحه العربة المتكسرة ولا احد بجوارها.

التفتوا صوب مصدر طققة أوراق الشجر
المتساقطة على الأرض، أشار بسبابته:
- هناك، انطلقوا!.

جسد نحيف يوّلي ظهره إليهم بلغوا إليه مستأين
أسلحتهم البدائية، دار الجسد ببطء موسعا ثغري
ابتسامته الخرقاء، اندهش لأشكالهم:

- ابن اللعينة لم يكذب في الوصف.. رؤوس حيوانات!..

يوّد القهقهة فتصده دهشته فنأدى:

- زيف، فراول.. تعالوا لنتيجة المضاجعة في
الظلام.

خرجا من الجانبين، خلف الرفقاء وقف نجيب خانقا
بسلسلته حنجرة الزعيم، ارتعدت فرانس النائب الذي
ألقى مطرقة مفزوعا:

- لستم أعدائنا.. عدونا الوجوه الضاحكة سوّد الله
أيامها!..

نطقها بصوت أجش، القى رفاقه أسلحتهم وعلق
نزار ساخرا:

- ما لذي ترمونه على الأرض؟..

شد نجيب خنقه ليسجح حنجرة الزعيم متدفقا دما
خفيف وقال بغیظ:

- سندعكم ما إن نقتل هذا.

- خذوا السجناء.

انبلج وجه نزار قائلا:

- سجناء!.. ثم نكوّن بهم عصابة نأخذ حقنا من الحياة.

- بشرط.. ترك زعمي في سلام.. ولم لا تعينوننا
ضدهم؟..

نظر نزار لفراول ذو الشعر البرتقالي:

- ما رأيك؟..

- المهم يفى هذا الجبل بوعدده.. نصف محتوى
الصندوق.

- وسأفي!.

أشاح نزار وجهه عنه تجاه زيف:

- أنت؟.

- نأخذ السجناء، نتركهم وشأنهم.

فصل نجيب راس الزعيم بدون قصد بعدما كان يشد الخناق وتآكل السلسلة الحنجرة، سقط الرأس قبل الجسد، حمل الرفقاء أسلحتهم صوب الثلاثة ما عدا النائب صوب نجيب الذي رفع الرأس وضربه به، جثا الجاموس يمسح الدم عن أنفه فاستغل نجيب ذلك معيدا الخنق بالسلاسل صاك اسنانه:

- ستموت بالأداة التي قيدتموني بها.. فإت أو ان التراجع.

رقص الثلاثة يجرحون ويقتلون، يصدون ويهجمون، بالنسبة لفروال المقاتل على يمين نزار فصد ضربتان مختلف صاحبها ثم شق حنجرة الاول وأولج النصل في منتصف جبين الثاني. قرفص زيف باترا ساقى جندي، ووثب نازل يمسك قبضة سيفه فوق رأس الآخر قبلما يدور حافرا خطا احمر قاني في الصدر من الكتف إلى الكتف، أما نزار يخرق بصله جسدين ملقيان على بعضهما البعض في مختلف المناطق يقهقه بجنون، لولا إبعاد زيف وفراول له لم يكن ليتوقف..

.. السجناء استيقظوا ركلا يعيد الجنود ترتيب الصفوف التي اخترقها نجيب ورفاقه يحمل في يميناه مطرقة الجاموس ويسراه تمسك شعر الزعيم فقذف الرأس يتدحرج يخرق قلوبهم، هتف نجيب رافعا مطرقة:

- إما تخنعوا أو تموتوا مثله.. أيها السجناء عليكم بهم!.

تردد الأخيرين لكن بعد تهشيم قناع قط اسود مع صاحبه كان يهاجم الجبلي تحفزوا للقتال، ينقضون على الأقرب ومن الطرفين غادرت الأرواح وتطايرت الدماء، ولا ذو قناع سخيّف تجرّأ على زمرة الجبلي المشاهدين للمعركة، قام بضعة دواب بمجاراتة دابّتهم يعضون وينطحون يمضغون لحوم ضحيّتهم وينقضون كمثّهم، نجى ثلة قليلة من السجناء فليس كلهم خبراء في القتل.

الناجون من الدواب يجروّن السجناء فيما يجرون فيلان عربية نجيب ورفاقه، انتبه صاحبه المطرقة إلى جندي يحمل ناصر ليلوّح للبدّين الذي ردّ بتحيّة إجلال، واستعرّ الملوّح شيء يثبتّه الجار خلف ظهره معرباً عن ماهيته متعجباً:
- فآسي!.

صرخ للتوقف ووجهه سبابته حنقا إلى حامل الفأس صائحا:
- أنت تعال!.

جرّ عربته نحوه مرتجفا سوّطه ناصر للإسراع، ومدّ نجيب يده فقال:
- تلك التي في ظهرك تخصني.. أين وجدتها؟.
- كانت مع الرسول.. ولما تيقنت من تجاهل الزعيم له ارتأيت الاحتفاظ به.

صعدت معه نشوة القيادة لحد الرأس فوثب قبالة الرجل يحرقه بعينيه زافرا:
- أعطيني إياها راکعا.. انتما فكّا قيده.

حطت عيناه على سجينين انخلع قلبهما ثم نفذ أمره،
ركع الرجل مانحا الفأس بكلتا يديه مخفض الرأس، تلذذ
نجيب بالنصل تداعبه اصابعه فيما تنقر الأخرى
المقبض، ووضع رأس الفأس على راس الرجل يخاطبه
بخيلاء:

- حملته ولم تحترمه ولا صاحبه.. لعلك لا تعلم مقتي
للمسيئين به.. سحقا لنحسك، فات أوان المعرفة.

رفع الرأس الفولاذي ليهوي به على الرأس
البشري، انفجرت الدماء فائرة وبصقت قفاه الفوران
لما أخرج فأسه منتشي. خانت الكلمات الجميع سوى
نزار المبتسم، وانطلقت العربات في صمت مطبق ناسب
موقعهم.

لم تكن وجهتهم الوجه الضاحك بتاتا فقد انعطفوا
يمينا يقطعون طريقا على التوالي، ثم بلغوا ممر يرغم
عربة واحدة للمرور فعادوا للتشكيلة الفارطة، وبالطبع
كان نجيب متقدما عليهم خلفه ناصر، ويلف نزار
السوط حول عنقا الفيلين لئلا يوقعانهم عن قصد.

ما انتبه أحد للذيل المرفرف في غصن شجرة مرقوا
أسفلها، ولا القائم الأيمن الأمامي على يمين الممر
معقود فيه عمود قصير، لكن فراول نبهه حدسه صوب
القائم الأيسر السفلي وقرّر عدم الفصح عنه، زاد من
شكوكه القائم المتبقيان وضعا على التوازي بنفس
طريقة الآخرين.

هنا فجأة هتف صوب رأس حيوان منتصف الممر
حيث كانوا سيدهسونه شاردين بذهنهم فيما ينشغل
الجارّ مع أنفاسه الجاهدة، فقال الهاتف:

- كلب ميّت!.. لا تمروا فوقه ربما مسحور من مشعوذ
حقير.. فلنفتح فاهه قد نجد ورقة للطلاسم.

وثب فراول صوبه فاهتز كيانه وظنوا ان السحر بدأ
مفعوله معه، خاب ظنهم عندما حك مؤخرته مستغربا
ودور رأس الكلب ليتفاجؤوا من الابتسامة الحمراء
المصطنعة له، نهض نزار الغير المتفاجئ يصفق
بحرارة:

- هذه فعلة شنيعة حقا.

- ألقى الكلب اللعين ولنواصل.

لفظها نجيب أمرا يحدج المأمور المتردد الذي خنع
راكلا الرأس ككرة ليتدحرج للأسفل، ثم وثب لمقعده في
العربة يتزاحمون إلا نجيب جالس مرتاح. استمر
سيرهم إلى أن انخفضت الطريق فجنبت سرعتهم
هابطين تحفهم الأشجار بحفيفها المرئم، دلفوا بين
صخرتين عريضتان وعند بلوغهم آخر الممر
استوقفتهم الأعمدة المعلق فيها أربعة أشخاص.

همس زيف لنجيب:

- أتذكر الخوازيق في القلعة.

وثب نزار يقبل الأعمدة وأقدام المشنوقين مبتسما
ودموعه تكاد تنهمر:

- كلا، هذه.. خير من السابقة.. عسى أن ألتقي بالفاعل
سوف أكون تلميذه النجيب.. صحيح أيها الصياد؟.

قبل قدمه الشاحبة كشحوب وجهه الأبيض، نظر
للمتشابهين قائلا:

- لا، لن اكون تلميذه.. مثلا هذين التوأمين كان من
المفترض شنقهما بنفس الطريقة.. واحد بقر بطنه أما
الثاني لا.. آسف يا معلّمي أنت فاشل.

رَبَّتْ عَلَى فَخْذِ الرَّابِعِ وَقَالَ:

- مَوْتَتِكَ مَبَالِغٌ فِيهَا.. لَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَزِيدَ رَسْمَ ابْتِسَامَةِ مِثْلِ أَقْرَانِكَ.

كَانَتْ ابْتِسَامَةُ الْأَرْبَعَةِ حَمْرَاءَ وَأَعْيَنَهُمْ سَوْدَاءَ مَحْذُوفَةَ الْأَهْدَابِ، صَفَرَ لَهُ نَجِيبٌ لِلْمَوَاصِلَةِ قَبْلَ قَوْلِهِ:

- سَنَعُودُ مِنْ حَيْثُ رَأَيْنَا الْبَقْعَةَ الْخَالِيَةَ مِنْ بَعِيدٍ وَمِنْ ثَمَّ نَشُقُّ طَرِيقَنَا عِبْرَ الْإِنْحِدَارِ.

.. تَظْهَرُ الْبَقْعَةُ الْمُتَلَوْنَةُ بِالْوَحْلِ عَلَى مَدَى قَرِيبٍ

نَوْعًا مَا، نَزَلُوا مِنْجَرَفِينَ فَتَعَثَّرَ الْجَنُودُ وَالتَّوَى كَاحِلٍ

أَحَدَهُمْ لِيَنْتَقِلَ الْمَحْمُولَ إِلَى عَرَبِيَّةٍ سَجِينٍ يَرِافِقُهُ تَارِكِينَ

الْجَنْدِيَّ يَتَقَطَّعُ أَلْمَاءَ، وَصَلُّوا بِصَعُوبَةٍ الْأَرْضَ الْمَوْحِلَةَ

تَغْوِصُ أَقْدَامُهُمْ وَعَجَلَاتُ الْعَرَبِيَّةِ فَيُضْطَرُّ السَّجْنَاءُ أَنْ

يَرْفَعُوهَا عَكْسَ رِفَاقِ نَجِيبٍ يَجْرُونَهَا فِيمَا يَعِيشُ جَوْ

حَمِيمِي مَعَ فَاسِهِ:

- لَنْ تَفْلَتِي مِنِّي بَعْدَ الْآنِ.

سَلِمُوا مِنَ الْبَقْعَةِ دَاخِلِينَ فَوْقَ سَلْسَلَةِ بَقْعٍ تَغْرُقُ

مَوْطِئِهَا هَدَفَهُمُ السَّاحَةَ خَارِجَ بَوَابَةِ الْأَشْجَارِ، فِي

مَنْتَصَفِ الْبَوَابَةِ عَمُودَ طَوِيلٍ جَدًّا اسْتَغْرُقُ مِنْ رِفَاقِ

نَجِيبٍ مَهْلَةٌ حَتَّى يَرُودُوا الْأَمْرَأَةَ الشَّبِيهَةَ الْعَارِيَةَ مَرْبُوطَةً

فِيهِ بِمَسْمَارٍ فِي وَسْطِ عُنُقِهَا وَأَخْرَجَ يَخْتَرِقُ كَلَّ سَاقِيهَا

مِنْ الْمَقْدَمَتَيْنِ إِلَى الرِّبْلَتَيْنِ فَيُثَبِّتُهُمَا مَعَ الْعَمُودِ الْمَحْفُورِ

فِيهِ.

ظَلَّ السَّجْنَاءُ وَالْجَنُودُ يَسْحَبُونَ الْعَرَبِيَّاتِ مِنْ بَيْنَهُمْ

نَجِيبٌ يَدْفَعُ عَرَبِيَّتَهُ مَعَ نَزَارٍ مِنَ الْوَرَاءِ بَيْنَمَا يَجْرُهَا

الْفِيلَانِ أَمَامًا وَزَيْفَ رَفْقَةٍ فَرَاوُلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجَانِبِ،

تَوَقَّفَ نَجِيبٌ مَرَبْتًا ظَهَرَ نَزَارٌ يَحْثُهُ عَلَى الْإِسْتِنَافِ

بدونه ثم خطى خارج البقعة يترجح ويوشك الوقوع حتى سلمت قدماه فوق الأرض المستوية الصلبة.

اتضح سبب خطواته بروز شخص باسم يجر فتاة سمراء ممزقة ملابسها ويبرق السائل الأحمر في سودة سحنتها، تبكي في صمت وترتجف علنا، وقف أمام العمود يواجهه نجيب المتحفر للقتال بقبضته للفأس، ظهر صف من الضاحكين خلف باسم والعمود أيادهم تمسك مقبضي نعليهما استعدادا للمعركة الوشيكة.

استند باسم بمشطه الايمن على ظهر الفتاة واتكأ بمرفقه على ركبته يهمهم متفحفا هيئة نجيب، وبين كفه وذقنه فتحة النصل العريض، تفوه الدخان من أوعية مثلثة معلقة مع الأغصان فأحاط السجناء الضباب المحمّر للأعين وهم يتعثرون مع أجساد في الوحل ظنوا أنها حيوانات ميّنة ثم نبتت الأجساد تتفرقع عظامهم بغية الاستقامة، فانتصبت ظهورهم كصوت تكسر الجليد.

خلف الطين الملطخ وجوههم تختبئ ابتساماتهم المفرطة يقابلون لأعينهم نصالهم المتقاطعة فلمّا أنزلها بقوة تطايرت الرمال المبتلّة، ليسوا جميعهم اعتدلوا ساكنين وسط السجناء بل منهم انبعث من قبره يحكم قبضته حول ساق أحدهم أو يخمد نصله المتعطش في الغضاريف.

ارتبك السجناء يزدردون ريقهم في هلع بخلاف الجنود الدواب قد زادوا عن حوزة أنفسهم يقاتلون بضراوة مستخدمين أيا كان، لكن الضاحكين تخلصوا منهم ناحرين الأعنق وباقرين البطون. استدار نجيب

يهوي نصله على أديم ضاحك لتوّه استقام ثم انتقل إلى
العمود الفقري لآخر مازال منحني.

تشجّع بعض السجّاء فقرّروا القتال يكافحون على
عدم سماع همهماتهم وضحكاتهم المنرفزة، حجب
الضباب المجزرة عن باسم يقهقه بيد أنه استغرب:

- عجيب!.. خلّتهم الدواب من سيّاتون.. ولا سيما
زعيّمهم بيلوف الداهية.. أعددت له هاتمه المفاجئة
الصادمة حتى يرى مدى تغيّر نهجي وزيادة تخطيبي..
كما كان يفعل معنا منذ زمن انقضى.

بينما يلفظ كلماته الأخيرة مرق خلفه كالسهم مجهول
فتح حنجرة صف الضاحكين في آن واحد لتتفجّر الدماء
على خط واحد، خلق مروره غبار ثقبه جسد المجهول
يندفع تجاهه فأخرج باسم نصليه بسرعة يصّد الهجمة
الأفقية نحو عنقه، تتحى المهاجم جانبا ترفرف عباءته
الملوّنة، التقط باسم أنفاسه ذاكرة اسمه بنزق:
- أنت أيها الشواحي اللعين!.

صار هذا الشواحي اللعين فوقه متشقلبا وبسرعة
فائقة يسدّد ضرباته من مختلف الاتجاهات، لا يقدر
باسم على صدّها لهذا يتفادها ويتحى عن مسارها ثم
يتراجع متشقلبا هو الآخر. صعب معرفة من البارح في
تأدية حركات الخفة والرشاقة.

لمقبضي نصلاه فتحة دائرية في المؤخرة أدخل في
كل فتحة شفرة تتصل بسلسلة حديدية سميكة ثم رفع
سيفاه القصيران إلى السماء ينقل قبضتيه للسلستين،
وراح يقذف النصلين نحو الشواحي المحلق يميننا
وشمالا حيث صار هو من يتفادى الهجمات المتذبذبة
للسلاسل على الأرض وكذا عندما يفتح باسم ذراعيه

مدورًا معه النصلين المحلقان ثم يجمعهما صوبه فيقفز
بدر فوق الذي على يمينه فيما يصد الشمالي.

ليس دوماً يفلح معه الأمر إذ تعرض لجروح بليغة
وأيضاً طفيفة، إن استجاب لنداء جسده للراحة فسيهاك
لا محالة أمام دوامة السلاسل المتشعبة بالنصلين لا تدع
له مجالاً للوقوف والتقاط أنفاسه. قفز متراجعا للوراء
فور رفع باسم سلاسله عالياً ثم هوى بالشفرتين
الماضيتين على موضع بدر الذي تراجع، من ثم جرّ
الشفرتين يحرث بهما الأرض فحلّق باليمنى يقطع ربع
دورة لكن بدر صدّ بسيفه المحتضر، قد تشدّر لكثرة
الاحتكاك والقبلات الخالقة لشرارات صفراء تطن وترن
في أذنيه.

كذلك بدر تفزعه ضحكة خصمه المتوالية الذي خلفه
الضباب يسمع منه صراخ المقاتلين وتمزق اللحم مع
تهشم العظام وصوت اختراق الجلد أو البتر كما تظهر
الدماء المتناثرة بين الفينة والأخرى. انطلق بدر يركض
عازماً على إنهاءه لكونه يكره من يطول نزاله معه.

انطلق باسم أيضاً قبلما يقفز فوق جسد بدر
المتزحلق والمقدم قدمه قصد إسقاط صاحب السلاسل
الذي سدّد ضربات للأسفل فتمطر النصال قرب جسد
بدر فكلما أفلت منها يجذبها القافز ثم يعيد إطلاقها، حط
باسم بسلام خلف ظهر بدر الجاثي بركبته حينها لاحظ
امتلاء أجزاء مجدها بالجروح تفور الدماء ملونة
العباءة لا سيما في البقع بيضاء، ولاحظ باسم اختفاء
الفتاة ليلمحها عن يمينه تجري وراء ذلك الفتى.

نهض بدر يعصر قبضته غضبا ويحتك صفا أسنانه
التفت قافز لتسديد سيفه لا بغرض الضرب إنما قذفه

تجاهه غير أن نصلاه تذبذبا على الأرض يتموجان حتى
استقر في حلمتي الشواحي يلعقان الدماء وهو مندفع
فابتلعه الضباب فيما أخرج باسم السيفان من جسده
بعنف وعاد لإمساك مقبضيهما مجددا، ولعق الدماء
اللامعة.

أرجع نصليه للخلف منحنيا ثم خطى ببطء أعقبه
زيادة سرعته تدريجيا بعدما ألقى نظرة على رجاله قد
فارقوا الحياة. كأنما رُكب له عينا الغزلان يتجاوز
الجدوع التي تظهر أمامها في لمح البصر وتختفي عند
انعطافه يمينا وشمالا لتفاديها، وأمامه الفتاة المطلوبة
تجري وتقف لتسعل وتكحّ ثم تواصل الجري خلف الفتى
الراكض غير مهتم بها بل يرمق البيضة للاطمئنان وما
التفت للسمرء قط.

الآن هي في متناول الضاحك الذي قفز لا
للاقتضاض عليها بل للابتعاد عن شقوق الأرض
المتزلزلة ينحرف نهر من التربة والأغصان والنباتات
في خط متعرج سرعان ما استقام بعد اقترابه من
الهدف وصار أسفله، اندهش باسم غير مستوعب لما
الأرض تنشق وتهتز يطارده موج بني قائم أينما توجه
تبعه، فغرز نصله الأيسر في أعلى الجذع الواقع يمينه
من أجل الارتفاع مخافة ان تبتلعه الأرض، وعوض
الابتلاع لفظت الشواحي يقدم نصله أولا فمرق من ظهر
باسم الذي طار متشبثا بمقبضه وأصق قدماه في
الجذع، وأما بدر تدحرج تحتك ركبته مع التربة
لتساعده على التوقف.

زفر باسم غيظا:

- مستحيل أن تكونا بلغتهم هذه المرحلة.. ايها السحرة
رغم علمي أنكم تقتلونهم وتأسرون جميع الساحرات..
لعلكم استعرتم السحر الأسود منهم.. كلا، الأسود له
حدود.. استعرتم السحر.. الرمادي..

خطا بدر وعلى يساره يتعلّق باسم المنقض بعنجهية
حيث ضرب على شكل قوس أفقي رداءه المرفرف
يمزّقه ظاناً أنه جسده، انزلقت مؤخرته لا يجد ما
يتشبّث به ليوقفه إلى أن أوقفه جذع صلب بين فخذه.

أحكم بدر قبضة سيفه المقلوب شفرته مصوبة
لحلق باسم المفترش ظهره أرضاً وعيناه متسعان يكتن
ألمه الحارق، علا ضجيج لفت نظر الشواحي، عرف
من ضحكاتهم أنهم رفاقه فاختر الفرار حتى يستطيع
إنقاذ صاحبيه: { ولكن هذا الأحمق شاهد ما فعلت.. هو
كذلك يملك مهارة ليست بشرية مخالفة للطبيعة.. من
يكون؟! .. وهل يعلم رفاقه بهذا؟! }.

فرّ عندما اقتربوا وأمرهم باسم الحاق به ففعلوا
يركضون لاهثين سرعتهم عادية مقارنة بسيدهم
والشواحي المختفي عن أنظارهم، فتح ذراعيه بينما
يركض يتمايل ليضرب ساعده الجذوع من كلا الجهتين
ما نجح في غلق الطريق عنهم مشكلاً غابة الأشجار
الساقطة والمنحنية والضامة بعضها البعض.

عاد الضاحكون إلى سيدهم خائبين فقد وقعت أشجار
على بضعتها لتكوّن جداراً يمنع أي شخص المرور،
حملوه يسندونه لنفس الجذع فقال:

- تخلصتم منهم جميعاً؟.

لم ينصّب مساعده بعد تسليم السابق إلى الدواب
قصد إدراجهم لمصيده، فأشار إلى ضاحك الأصغر في

المجموعة والأنحف يمسك خنجرا نقيًا كوجهه لا يدري
ما الغرض منه ثم جاهد على القول:

- أنت.. صرت مساعدي الجديد يجدر بك إخباري بجميع
المعلومات.. والأخطاء من الآن وصاعدا.. أما أنتم
فستتصاعون له وإياكم التتمر عليه ثني أو عصيانه..
مخالفته تعني مخالفتي.. أنت مساعدي ما اسمك؟..

أرخصي يده المشيرة تهوي على الأرض: { باختياري
له لن يتجرأ على إهانتني كالفارط.. أرجو ألا يغتر
بنفسه }.

دنا المساعد مترددا بادئ الأمر وقرفص مجيبا بنبرة
شاكة:

- لَمَّا.. انقشع الضباب لم نجد.. على ما اذكر شخصا
حيًا.. ربما هرب البعض.

- ماذا عن ذلك الضخم.. صاحب الفأس؟..

- أجل وجدناه ميتًا أيضًا.. تأكدت بنفسي.

حدجه باسم بوجوم:

- كيف؟..

- ما كان يطلق زفيرًا.. وأيضًا هو مليء بالجروح
والكدمات.

- مثلًا لو جرحتك ومات وجهك الجميل بالكدمات
سوف تموت.

أطبق يفكر ثم أجاب:

- إذا جرحت مشاعري قد أموت.

ضحكوا بدل ان تضحك وجوههم، زمت الافواه ما إن
نهض باسم بنفسه وزمجر محفزا:

تخلصنا من عدونا اللدود.. وقانون المنطقة الوسطى
يقول كل ممتلكات المهزوم لك أبد الأبدين.. أراضهم

لنا، نسائم لنا، دوابهم المفترسة لنا.. قلعتهم الكئيبة
لنا.

نزع السلاسل عن الفتحين غامدا سلاحه فيما
تصدح حناجر أتباعه بالتهليل وصياح النصر المختلط
مع نشوة القتل، ما عدا المساعد انسل داخل الغابة
وأنزل سرواله كاشفا عن جلد أبيض مشعر ثم قرفص
يتبرّز على جذع حافل بأثر النصل تصعد الثغرات
الطويلة فتنتهي بين غصنان الأيمن عليه رجلان أشقر
وأصهب، أما الأيسر يجلس فيه رجل نحيف مبتسم
بمرارة يمسك فأسا ملطخة بالدماء.

الفصل التاسع عشر:

أمامهم نفق يشق نهر مياحه معّرة طريقها مارة تحت أقدامهم التي تلطم المياه، هدوء عام وصوت وقع الأحذية على صفحة الماء هو الطاغي، يترامى أحيانا زقزقة عصفور فيختفي لمدة.

الجميع مستلّين سيوفهم وتروسهم سوى القائد بلباس عسكري فاخر يستل فقط سيفه البديع بريقه حجبته سقف النفق خلال دلوفه، والجميع يعتمرون خوذة سواه يذر تسريحة شعره الكستنائي المموج المربّع كوجهه. بدأ صوت أقدامهم على الماء ينخفض ويبدأ كلما غاصوا في الظلمة لا يشعلون نارا مخافة لفت الانتباه وإفساد الاختراق.

صدّ سيرهم قضبان حديدية، بإشارة من القائد المعتدل جسما وشديد الوسامة التقط جندي بدرعه الأحمر قنينة جلدية أفرغ سائلها الأسود على الحديد، ثم حك الآخر خنجره مع حجرة فأشعل النار الخفيفة بغرض إذابة الباب الحديدي.

ليس هناك ممر في اليمين، ممر شمالي اتخذوه بحذر وبتثاقل، الآن برز صوت قعقعة أسمال دروعهم وخشخشة غمادهم المنمقة، انعطفوا يمينا تحت ضوء فوانيس متأرجحة بخفوت، تصاعدت ولولة أهل المكان، يدكون القدوح مع بعضها ويدقونها على الطاولات.

لصق القائد بظهره مع الجدار بجواره قاعة الرجال يلتهون، بطرف عين أحاطهم يتفحص قسماتهم التي أكلها الزمان، جمع القائد إبهامه مع الأوسط يشير لجنوده للهجوم فاندفعوا يصرخون حتى يفاجئونهم.

لم يشارك في القتال يسند ظهره إلى الحائط الذي وسّخ درعه المتقنة الصنع، ثم دار مندفاعا بدوره بعدما أغاظه الصراخ وحفزته التمزّق على الانخراط إذ بقر بطن أول مهاجمه بدون صد هجمته، وانحنى لرمية الساقى زجاجة من على منضدته، سمع القائد هسيسها وتكسّرهما المدويّ مع الحائط ثم قرفص مستديرا ليخمد نصله في بطن سمين وهو ماسك كوب الخمر.

رفع سيفه لوقف هجمة سفلية هوى عليها قبلما يعيد رفعه لرسم فتحة طويلة مائلة في صدر المهاجم وأعقبه بخلق فتحة واسعة من حلمته اليمنى إلى الأذن فوقها. كان الجنود متمرّسين في قتالهم يصدون وسددوا يهاجمون ويدافعون حتى أفرغوا القاعة،

اتجهت الأنظار نحوه انتظار الأمر التالي، لكنه نادى
مقرب إليه يعرفه بخوذته ذات القرنين عكس خوذهم
المستديرة تحفها أغصان حبلى بأوراق الشجر.

فحدّثه بسؤاله المقتضب:

- هل من جريح أو قتيل ضمننا؟

- كلا.

- جيّد، استأنفوا السير ولا تدعوا شخص مهما كان أن
يفرّ.

أحنى رأسه قائلاً:

- حاضر، مولاي سمير.

- أنا الآن قائد الدورية التي أرسلها الملك لا خاله..
اذهب!

اخترق المقرب صفوف جنوده منقسمين لجزئين
انعطفوا في اتجاهين مختلفان، يلحقهم سمير داهسا جثت
من قتلوا وقاتلا الناجين. خرج أفواج الأطفال يركضون
هلعاً فلم تقدر النسوة المكافين بهم على إخمادهم،
فاستغرب سمير:

- أين نحن؟!.. المفترض أن نكون في مخفر الجماعة
السريّة.. إذا صحّ قول ابن عمّ الملك أن لهم بنايات
متنوعة كثيرة.

جاء جندي هرعا إليه فانحنى قبلما يقول مستقيماً:

- لسنا في المقر الرئيس.. نحن في.. دار الأيتام.

- مُرهم أن يجتمعوا!!

- لك هذا سيدي.

أخبره حدسه بوجود شخص دلف باب غرفة وراءه
استدار بغتة محكما قبضتاه على السيف المحافظ لدماء
الضحايا، أسرع خطاه نحو الغرفة فركلها مكسّرا الباب

فوجد رجل يلقي رسالة فوق مكتب نصف دائري يجلس في خطه العريض غريب ضخمة الجثة، وفي زاوية يضع سيفه العريض ذو الثقب في المقبض.

الغريب يقلب أوراقا صفراء متجاهلا سمير الذي عرف اسمه حينما اقتحم وسمع الرجل ينطقه متوترا:
- هذه رسالة من السيد ملهام الأكبر إليك يا نكير.

فوجع الرجل محققا في سمير المغضن جبينه والعاقد حاجباه يزفر لإنعاش تفكيره، وأراد المفجوع الخروج هاربا فنجح رأسه بينما ظل جسده قرب الطاولة، زمجر نكير ليس لموت الرسول بل لتمزق ورقة يقرأها فخطبها مع سطح المكتب العاج كتبا متراصة وأوراق متفاوتة الأحجام بعضها مفرد والآخر مطوي، يرتشف من قنينة زجاجية زرقتها تمتزج مع البياض تشبه التي قذفها الساقى.
هتف فيه سمير يلمّ شتات نفسه:

- كيف اختبأتم هنا.. من يمدكم بالموارد لتبنوا مخابئكم؟.. تفضل الصمت وأنا الغبي الذي يسأل منتظرا إجابة صريحة.. أمثالك نملك دواء إزالة الخرس.

اهتز الغريب معه المكتب يرفع بيده الضخمتان صوب سمير المرتجف حيث بات فخذاه تحت رحمة الخط المستدير للمكتب وارتدى سيفه محتكا بعيدا عنه. ثم رفع نكير هذه المرة قدمه الهاوية على الحافة المستقيمة للمكتب مما صرخت عضلات سمير بعد صياحه مخرجا لسانه.

كرّر الرفع والهوي مرارا وتكرارا حتى تكسرت الحافة فهبطت قدماه ضاربة الأرض فلحسن حظ سمير كان يباعد بين قدميه إذ حطت قدم الهاوي بين فخذيته.

أبعد عنه الكتب بل قذفها نحوه والزجاجة تشذرت مع مرفق الغريب الصاد لوجهه، كمّش سمير الأوراق يرميه أيضا فتداعب خد نكير.

هذا الأخير أمسك رأس سمير يعصره ويضغفه حتى انفجر تنثر الدماء على وجه نكير المبتسم ابتسامة وحش لفتاة.

دلف الجنود هرعين ففزعوا لمراى قائدهم لوحده في الغرفة وقد جثا المقرّب باكيا:

- بماذا سأخبر الملك؟.

.. ردّ الملك بابتسامة:

- جيّد، لحق بأخته.

نزل عليه الرد كالصاعقة فأمسك رأسه ثم ركض واثبا فوق حافة شرفة وأرخی جسده هاويا لأسفل سحيق واختفى بالسحب، أثناءها استمرّ الشاب يخطو بأريحية: { انتهيت من عائلة الأوغاد.. والدي اغتصب ابنة حاكم سكورم فزوّجها له الأخير ثم طلق والدي الحقيقية قبل تنصيبه ملكا وعند تربّعه العرش جعل زوجته المغتصبة هي الملكة وأنا هو ابنيهما.. حكاية لعينة.. رغم أنني أكره محمود ملهام لكن لديه دليل قاطع.. والدي الحقيقية.. هي الآن آمنة في قلعة الاستجمام {.

دخل البلاط ينتظره صفان من أربعة فرسان هم مرافقوه وحرّاسه الشخصيين، كان سابقا سبعة فرسان وبعد مائة عام على هذا النظام حدثت أسطورة " رحلة الفرسان الأربعة عشر " التي لا يصدقها إلا صنف قليل من الانس ينضم إليهم أصفهان.

مرّ عبرهم فتشكّلوا متقاربين يقدحون الأرض في
انتظام، اعتدل المنادي الذي وظيفته فقط تنبيه الناس
بقدوم الملك يرفع علم المملكة ويصيح مجلجلا:
- انتباه!.. جلالتة قاءاااااادم!..

كان خلف عرشه دائما يعجب بالشجرة الباسقة
تغرس من فوق العرش إلى السقف المجوّف تبزغ
الشمس عبر الزجاجة الدائرية ساطعة في مكان معين
وهو دائرة يطأها كل من يريد مخاطبة الملك حيث
رسمت بعيدة عن الدرجات وعن العرش الذي جلس
الملك عليه بوقار فانحنى له الحضور بوقار أيضا.

لا يعبأ بشكاوى الناس متظاهرا بالاستماع عاقدا
يداه بينما يتناقش مع مستشاره الجديد فخاطبه بخفوت:

- قل لي سيد محمود.. كيف تحدّيت أخاك وقمت بعملنا.
- يهمني مصلحة العامّة والمملكة فلو سقطت سقطنا
معها ولم نجد من يحمي ظهرنا.. أما أخي فليس له
سلطان عليّ منذ رح.. وكذلك مولاي أثق فيك لدفع
ثمن خسائرنا، دار الأيتام تلك باهظة.

يتهدم محمود بثياب حريري أحمر حافل بالأشجار
الخضراء الصغيرة ذات الجذوع السوداء تنتثر في
اللباس، في حين تزيّن الملك بقميص سندسي كلون
سرواله المجعد، بلا تاج أو صولجان اللذان أذابهما
لصنع مقبض سيفه الذهبي والغمد المطعم بالذهب،
دائما يلتفت شماله لخطف نظرة عنه فوق وسادة
حمراء تحيطها خيوط صفراء التي فوق طاولة نحيفة
وفارعة الرجل الواحدة ومستديرة الرأس.

صفّق الملك ونهض صائحا:

- أعطوا البقية ذهبات فايغادروا.. المال سيحل مشاكلهم.

تهللت أسارير الناس يدعون له بالسداد والحراس يقودونهم خارجا، خاطب مستشاره متوجها نحو سيفه:
- انتظرنى في المجلس الاستشاري الجديد.. ستحبّه.. قودوه إليه.

في رمشة عين كان محمود بين جنديان معتدلا الجسم يخشخشان بدرعيهما ويضربان قاعي رمحيهما على الصرح الممرّد بالقوارير. نعم الملك بهدوء وخصوصية حتى مع تواجد خادمين رفقة جاريتين فلا يضايقانه بتاتا معتبرهم ممتلكاته لا غير.

حمل سيفه تسري قشعريرة وتوخزه وخزة مضيئة فور لمس نصله اللامع ذو البياض السابغ:
- صعب عليّ تلطيخك بالدم.

وتذكر قول صانعه عند منحه له كهديّة حيث نبّهه أن النصل يطرد السوائل كلها فلا يترك أثر لها، وجرب إخماد وهجانه في صدر سجين ليتأكد قول الصانع بانسكاب الدم مودعا النصل ولم تتبقى فيه قطرة واحدة.

راح يضرب الهواء عشوائيا فلكان يصارع شخصا لأردى الملك قتيلًا، يعيب على سيفه ثقله المخالف لصغر ونحافة الغلام. استوقف هسيسه نداء منادي خارج باب البلاط فصاح الملك للحارسين في الداخل أيضا يعتبرهما ممتلكاته فلا يخجل منهما، دقا خلفهما ليفتح مصراع من طرف حارس في الخارج ودلف الرجل المنادي على الملك يلهث.

بإشارة من عينيه قدّم له خادم كوبا ماء شربه بنهم، وضع الملك حدّ السيف على كتف الرجل مبتسما:

- أسرع!.

- مولاي، وردتنا أخبار عن قافلة جلالة الملكة.. تعرضت لهجوم مباغت.

- وهل هناك هجوم غير مباغت؟.

رمقه مستغرب الرجل المرتدي رداء خمري يبلغ أسفل ركبته، نقل الحد للكتف الآخر:

- وظيفتك انتهت.. إيتني برسائل مفرحة في المرة القادمة.. كومة الرسائل التي تصلكم دائما تختارون الأخبار المفجعة.. اذهب وإن سألوك أخبرهم ان الملك جد حزين وسيفعل المستحيل لاستعادتها.

- أية استعادة؟!.. لم يأسروه يا مولاي لقد فرّت قد تكون في خطر.

من نظرات موظف الرسائل يرى فرحة عامرة بخلاف خيبة ظن لدى مولاه الذي أزاح عنه حدّ السيف وقال:

- نعم سنعيدها.. قصدت سواء كانت مأسورة أو فارة.. اذهب، اذهب.

استدار يشير إليه للمغادرة وقطع طريق محمود بسرعة ملقيا سيفه علما أنه يحبه لكن خدمه سيعيدونه لمكانه، كلما يقترب من المجلس الاستشاري تظلم الدنيا على الماكن وعلى تفكيره، يخطو بتعابير واجمة أشرفت لما فتح الباب تاركا أشعة الشمس تسطع عليه.

خرج إلى الخضرة والنسيم المنعش تفوح من الزهور البيضاء والحمراء والوردية والصفراء أريج هداً من روعه، قبالتة فرد إزار سميك خيوطه تحت خيمة بيضاء مفتوحة، افترش محمود وثلة من المستشارين الذي علق عليهم الملك دانيا:

- تبدعون في ارتداء حلة جميلة.. وتتعاملون مع المشاكل وطرح الحلول بالتقليد والتكرار.
لم يجلس مثلهم بل مديده فأتى خادم بكوب ضربه الملك ممتعضا:

- ليس هذا أيها الأحمق.. أحضر مضربي الحديدي.
أحضر خادم آخر مضرب طويل يلتوي عند الرأس، ووضعت كرة فضية فوق عود غليظ، رفع مضربه جانبيا ثم سدّ ضربة ارتطمت الكرة مع خوذة حارس فوق الأسوار الخلفية فترجّح يبحث عن شيء يستند إليه فاستند للحافة ثم مال واقعا، كل هذا أمام أنظارهم يبتسمون والملك أصفهان يتلوى ضحكا.

يعشق مناقشة معضلات دولته أثناء لعبته المفضلة، سدّ ضربة أخرى اختفت مع الغيوم وهو يقول:

- متى سيأتي الملوك.. ومتى ستأتي زوجتي؟.
يُعتبر محمود المستشار الرابع، الأول ضعيف يعرف بلباسه الشفاف البارز للحمه وشحمه، والثاني فارغ القامة وذو بسطة في الجسم لكن منظره المفجع المليء ندبات وخطوط حمراء جراء تعرّضه لحريق في صغره، أما الثالث امرأة اصطفاها الملك لجاهها وغناها وجمالها قصد حمل المستشارين سواء المدنيين او العسكريين على قبول قراراته كونها مجرد زينة تقول بقوله وتؤيده.

بعدها أجابه محمود هزهز اصفهان رأسه مستوعبا:

- العشية، أممم!.. إذا زفاننا في منتصف الليل.. ملك الوائليين عرييد حقا.

فسر له المعتدل جسما امرا:

- لديهم رئيس.
- أعلم يا عنتر.. درست تاريخ القارة من القيامة الأولى إلى حد الساعة.
- ضرب الملك ضربة أخرى كسرت إناء فخاري غالي الثمن بعدما كسرت الضربة الفارطة ساق خادم:
- يا لتعس حظي!.. صعب إيجاد إناء مثله بأرخص ثمن.
- وضعوا له كرة ضخمة غير تكسر المقبض المفاجئ لحفيظة الملك الذي رمق خادمه مندهشا:
- قلت مقبض من حديد.
- مو-مولاي.. ذاك ما كان عند والدك المرحوم.
- آه، يطلي أغراضه.
- قطف الضعضع حبة عنب لقمها بعدما قال:
- هل أعدد سيدي طريقة استقبال الضيوف و.. خطيبته.
- اركلها!.
- أمر خادمه بركل الكرة فلما فعل طفق يتحسس أصابعه المفرقة يبكي ألما، ركله الملك بمشط حذاءه الأحمر الفاخر مطرز خيوطا سوداء حذافيرها ذهبية، جلس الملك مستلقي على ظهره وشبك أصابعه في صدره.
- تخللت الرياح جنبات الخيمة المرفرفة أسمت الملك:
- هل الأمر بهذه البساطة؟.. تجتمع ستة دول لغزو دولة.
- صحح له محمود مستند على مرفقه الأيسر ليقابل الملك:

- خمسة.. بسبب زيجتك مع الوائليين قطعت سكورم
علاقتها السياسية والاجتماعية معنا.. المعاتيه اعتقدوا
اننا سنمد لهم جيشا يضاعونه على الحدود مع
الوائليين.. صراع الحدود لا دخل لنا بينهما.
دندن الملك:

- خمسة.. مملكة الأخضر واليابس تملكهم امرأة
سوداء.. مملكة الجنوب الأقصى لديهم أربعة كراسي
أي أربعة أقاليم بأربعة حكام.. يجتمعون في بلدة غنية
ومن هناك يسيرون دويلاتهم.. مملكة الويلات يحكمهم
أربعة عشر رجل يشكلون مجلس الشعب بدون ان
ينصبوا رئيسا له.. أما نحن ملكية وراثية لا مشاكل لا
توترات.

ابتسم محمود بخبت قائلا:

- تعي مدى قوتك حين قدوم العواصف لا في الجو
الصافي.

.. الشاطئ الذهبي، حبات الرمال مساء، الشمس
دوما بازغة، الأمواج هادئة تنسج لطمات خفيفة مع
الصخور تريح القلوب، طاولة خشبية مستديرة لكن
خشبها من النوع الفخم المكشط جيدا، خمسة حكام
حفاة اجتمعوا، بل حاكم واحد مقابل مندوبين أو
مبعوثين يمثلون دولتهم.

مبعوث شديد السمرة له شعر أحمر يقف خلفه
رجل أسمر معتدل الوقفة هتف:

- مبعوث الجنوب مملكة السود.. رامز الأحمر معكم.

خلف أزيز غلام أشقر مرتبك هتف يردد اسمه،
وخلف امرأة عجوز شمطاء يقف رجل عجوز يهتف
بصوت رخيم:

- ممثلة الولايات جارة السيميريتان.. جريرة.. معكم.
- ممثل الجنوب الأقصى، مملكة الثلوج، ومهد البشرية.. معكم سيلبور.

خلفه المبعوث المبطن برداء صوفي أبيض
وخصلات سوداء رجل عاري الصدر والذراعين،
وأخيرا وقف نديل ابن عم الملك زائرا:

- ملك بألف ملك.. ليس غلام بل معجزة العصر.. سيد
الأراضي الخضراء وما وراء النهر.. سليل قاهري
الغزاة ولا سيما أبناء البحر.. حاكم لا يرخي قبضته،
زعيم متقد لا يرخي جفونه.. أب عائلة سيميريا
الأصلية..

قهقه أزيز قائلا:

-صحيح، والباقي تقليد.

زمجر نديل يودّ الانقراض عليه فيما واصل القائد
الأعلى بابتسامته الصفراء:

- أحضروا للغلام زوجته ليفرخ فرخه.

ضجّ المكان بالهمهمات حتى حراس كل دولة
يتحفظون بمقابض سيوفهم ويلقون نظرات الحقد على
بعضهم البعض. هتف رامز بغية تغيير دفة الموضوع:

- سيّد أزيز اين هي عروسته؟

- صاحب العروسة من يجب طرح السؤال.. اهتم
بشؤونك.

زفر رامز غضبا وقذف كأس مرقت من خد الغلام
تخدشه الحافة الماضية وتجاهل الخط الأحمر، انتفض
أزير مرتشفا كوبه ثم بصقه بقوة كنافورة صوب رامز
الواقع على يمينه.. تطاير الطعام والشراب من كل

الجهات حتى أصفهان كان مستعد يقذف من خلال كيسه حجيرات ما إن تلطم الوجه تلطخه بالبراز.

بينما انقض الحراس على بعضهم البعض يحاولون تجنب استعمال السيف ما أمكن، يعض سيميري أذن وائلي فمزقها، واحمرّ أنف الجنوب الأقصى من لكمات الأخضر واليابس، لم يكونوا ليتوقفوا، جميع مكارم الأخلاق ولباقة الحكام خلعوها عراة كاشفين عن ديدنهم، أزيير يخبط أزيير راس رامز مع الأرض وتتقاذف الشمطاء مع سيلبول بالأيدي، حتى الواقفين خلفهم انخرطوا إذ انحى الغلام للكمة نديل وسدد له واحدة في الحجر أقعدته أرضا، ومن وراءه طوحه مرافق العجوز ليقبل الرمال.

دوت دقات الطبول من كلا الهضبتين وسلطت أضواء مشاعل نحو قارب متوسط الحجم تقف امرأة مغطاة الوجه بين رجلان مفتولا العضلات يجذفان صوب اليايسة، أمامها جارية تلقي الورود الحمراء من سلتها، فبهذا خبت الفوضى والكل فاتح الطريق لها حينما سارت فوق الألواح الخشبية لئلا توسخ خفاها النحيفان المتلألئان من المرجان عكس الحفاة.

سارت الخطيبة محنية الرأس لا يرى وجهها حيث تغطيها عباءة مفصّصة باللؤلؤ، ترتدي سواران ذهبي والذني حول معصمها الايسر فضي كلاهما برّاق، وحطّت خطاها قرب الغلام الساكن في مكانه رفعت رأسها مبتسمة بشفتين شفافتين وحليب اصطبغ محياها المنتفخ المتورد، جاهد مرافق أزيير على إشاحة وجهه المنحط عن الوجه الملائكي لكنه واصل النظر.

محمد أزيير بجانبها وهمس:

- خطيبك هو الذي على اليمين.. معلّم بكدمة في الخد..
لقد علّمته لك.

- جفّلت معيدة تغطية وجهها واتجهت صوبه خطيبها ثم
صفّفته فلامس موضع الصفعة مبتسما وأدار وجهه
قليلًا:

- صفعة هنا أرجوك لتحقيق المساواة.

فصفّفته أقوى من السابق سمع أزيز رامز يتمتم
لمرافقه:

- صفعة العاهرات.

كتما الاثنان ضحكهما ليتوقفا حين انهيار الطاولة
المستديرة وبضعة مرافقين فوقها..

.. داخل بلاط الملك يمسك يد خطيبته على رأسها
الشال يجلس بينهم على كرسي مستطيل شواحي برداء
أحمر، يمسك كتاب بلا زخرفة أو نقوش ويقراً فيه:

- رب السماوات السبع والأراضي التي لا علم لنا بها
سوى من أصفيته وعلّمته.. ذكر وأنثى اجتمعاً قبل ان
يكونا ملك وملكة.. هما عبدان لك الآن يتذللان قبل ان
يكونا حر وحرّة.. اتحدا لمناهضة عبث دولة خالفتك يا
الله.. نحياً خلافتهما جانباً في سبيلك.. بارك لهما.

أغلق الكتاب عنوانه صريح "نواميس القارّة"
نهض يعرض فوق منضدة صنعت على هيئة كتاب
مفتوح وأغلق الطيّة عليه بعنف، تقابل مع الجالسين
وهو واقف يرفع يداه مرنما:

- هل تقبلان بالتحامكما؟.

بصوت واحد:

- نقبل.. نقبل...

تلاقت نظراتهما الباسمة كشفاهما وأردفا:

- .. نقبل.

ابتسم الشواحي بمرارة:

- وأنا لا اقبل هذا الاختراق الصارخ لنواميسنا.

ظلا العشيقان يرمقان بعضهما ثم التفتا له بغتة
مندهشين كما توحدت دهشة الحضور والمبعوثين
يولولوا فيما نظر الشواحي للفراغ مشيرا برأسه
للمجهول...

.. بعد برهة تفجّر دخان اسود لفظ نار هوجاء
كسّرت زجاج السقف، وتكرر الانفجار عينه، الحراس
مثل الناس فزعين يحدقون عاليا للدخان ويدهم ترتجف
قابضة السلاح.

تهشّم السقف هاوي على الناس والحراس على حد
السواء، فوضى مضاعفة عن الأنفة حيث وقعت صخرة
داهسة العرش، انزلق طائر بشري في جذع الشجرة
واستندت قدماه للسخرة ليتشقلب ويحط على ركبته
مستلا سيفه، هوي الشواحين بردائهم الرمادي
والوردة المحترقة يتشبثون بمقبض سيوفهم المتصلة
بحبل الخطاف المحفور في بقعة من السقف.

لا تطأ أقدامهم الأرض أما قائدهم فدنا مزحجا
قلنسوته صوب الشواحي وانحنيا احتراما فقال الأخير:

- جئتم بطلبي.. يدل على تغيير كبير لمصيرنا.. حان
وقت تهذيب المتمرّين وليعرفوا من هم طائفة آيت
يهرم الشواحي..

اعتدل القائد بابتسامة قائلا:

- الشواحي بدر التيزي في خدمتك.

وسامة مختفية مع محياه المنتفخ والمجعد، شعر
أحمر مقدمته وأسود مؤخرته ينسدل خلف كتفيه وتلمّاه

كرة حديدية شائكة، أخفض رأسه يرفع شعره ليهوي
بالكرة على جندي سيميري فحطمت خوذته المعدنية
وتدفق من خديه الدم القاني، أحمدا الشواحييون حماس
الجنود بإفراز غاز منوم انبعث من الكرات التي
أطلقوها.

يمرق الملك المرتجف أثر الدم على ذراع بدر
فرمقها هو الآخر لينظر إليه مغضن الجبين:

- هذه أثار دفاعنا عن بلادكم.. بينما انتم تخططون
لتدميرها.. ألا تعي معنى اتحاد أكثر من نصف سكان
القارة ضد دولة واحدة.. حرب عالمية رابعة تريدون..
ادرس التاريخ أيها الطفل المدلل.. الدولة التي تريد
غزوها ملكية مثلكم فلما لا تتعاون معها.. فقط منعتك
غريزتك الذكورية الساطوية عن التحالف مع مملكة
النساء.. دولة يحكمها النساء ويحتكرون مؤسساته
وإداراتها وأقاليمه.. لا أقول هذا تملقا للنساء فهناك
نسوة بشعات.. يخخخ!.. ولكن لأنهن ناضلن لنيل
مبتغاهن.. تخشى ان تعم ثورتهم على باقي الدول.

اشار بسيفه للمبعوثين فشكوا صفا قرب الملك،
فسلك بدر يده خلف سرواله تحجبه العباءة عما يمسك
للناس ثم صوّب نحوهم السلاح الصغير الملتوي ذو
فوهة واسعة، وابتسم بفتور:

- نساء مملكة النهضة يرسلن قبلاتهن لكن.

وأطلق الزناد قاذفا حبة لولبية صغيرة من
الرصاص مدويّة صرخة ما سمعوها من قبل أبدا،
فاخرقت جبين رامز وثقبت الزجاج كثقبها لقفاه ولم
يرووا مستقرها، بإبهامه أخفض زر ثم ضغط الزناد
غير منتظر تقشع الدخان من الفوهة مخترقا الفم

الفاغر للعجوز الشمطاء، ضغط الزناد ثاقبا حلق
سليول، ضغط راسما دائرة حمراء في عين أزيير
اليسرى بيد أنه تنحى فمرقت حافرة أسفل عينه ولم
تسقطه صريعا كغرمائه إذ جثا لاعنا يضغط على عينه.

خرجت الرصاصة التالية في لمح البصر تماما كمن
سبقها غير انها عوض الخروج من وراء الضحية ثبتت
بين اضلع صدر نديل الذي دفع ابن أخاه يحميه بروحه
وسقط عليه، ليست سابقة لدى أصفهان رؤية أحد
يموت قريبا كان أو غريب عليه، شاهد لحظات والده
الأخيرة والسمم قد أحاله إلى زرقاة وملا وجهه بالرغوة،
رأى السجناء يموتون بضربة سيفه.

أطلق بدر بدل الرصاص خطافه إلى السماء ورفع
نفسه فيما احتضن الشواحي الأحمر طائرا آخر ككون
بدر تؤلمه ذراعاه المجروحة، ثم طاروا تحت ضوء
القمر البازغ تبعه رفاقه يلقون الكرات المتفجرة على
البلاط، وخاطب بدر صارخا لشدة الرياح شواحية
يعرفها من الخصلات الشقراء التي تطل من أسفل
القلنسوة:

- ميساء.. الآن!..

فتحت ميساء سداة قنينة صوفية بفمها وتركبتها
تحلق وسطهم قبلما يطلق عليها بدر يعضّ مقبض
سيفه محلقا في السماء رصاصة نثرتها فيما تتعشى
النيران الخافتة على السائل الأزرق فتتدفق شرارة
زرقاء يتخللها رغوة بيضاء غطت كياتهم ومعهم صقر
لسوء حظه صادفهم.. حينما تلاشى البخار الأزرق كان
القمر وحده المحلق.

الفصل الختامي:

لا شيء مثير للاهتمام، غرفة خانقة رغم وسعها، مظلمة رغم الفانوس المتدلي اسفل السقف المتهالك، يتراقص الضوء بتأرجح الفانوس ما يجعلك تعاني لقراءة هذا الكتاب الذي في يديك تضعه على ركبتيك اليمنى المثنية فيما تسند ظهرك إلى وسادة بيضاء التفت لها لتعدّلها غضبا حتى تريح ظهرك.

ضقت ذرعا من القراءة العسيرة حيث يصعب التركيز كصعوبة محتوى الكتاب نفسه لحد الآن وبلوغك آخر صفحاته تجهل عن كنهه وموضوعه، لأنك لست في مجالك.. نهضت قاصدا التوجه الى

تخصصك، قطفت سيفك ذو الشفرتان المزدوجتان،
أسميته " قاهر المخنثين " نعم قصدت ما تعنيه
وصبرت على ضحك رفاقك.

في يومك التاسع عشر وأنت داخل السفينة قد
اعتدت تقلبها وتمايلها، أجل تجشأت في الأيام الأولى
وفقدت وعيك أحيين، لكن صرت واحد منهم وبت
صديق البحر، تعشقه عندما يلطم نافذتك الزجاجية،
فتوجهت لرؤيته يريد يصفعك بحنان فيما تبتم.

كذلك سكانه المؤلفين أو المتوحشين هم عائلتك
يسبحون قرب نافذتك لكي تراهم، تفرح لما يلتهم قرش
صويحاتك الصغار بيد أنك غضبت حينما نبت في بطنه
رأس حربة مربوط حول آخره حبل فتسارع الصيادة
لأسره.. رغبت في إنقاذه لذا خرجت من غرفتك مطلقا
زفيرا غاضب.

انت بين صفوف غرف بقية الطاقم ترى امامك
منعطفين بدون تفكير خضت الايسر، خرجت مباشرة
لقاعة هي اشبه بحانة خمور عجت بالطاقم السكارى،
ولمحت الربان ذو الرداء الصوفي والقبعة الرمادية
ترى الريشة الحمراء وهو مولي ظهره لك.

حط كفك على ظهره برفق فالتفت مبتسما وكاشفا
أسنانه الرمادية الفضوية، رأس طويل خلاف لحيته
الرمادية التي تخرج خصلة منها فقط، قلة من يعلمون
لون شعره وأنت من بينهم. دعاك للجوس قربيه
فعلت، وقال:

- ارتشف يا بني.. هنا لا توجد أمك او ابوك.. انت
الرقيب على نفسك.

ارتشفت كوبا ضخم أرغمك للانحناء إليه للشرب،
ملأت رغوته أنفك فداهمك الزكام وأغاظتك قهقهة
الربان الذي قال:

- ذكرتني بسمك المطرقة منحناه هذا الشراب فصار
ينطح ما يصادفه.. لدرجة نطح دولفين بحجم القارة..
نحن قتلنا الدولفين.. دعني أفكر، أجل نقدر على القارة..

تهزهز رأسك متفهّما، لديك ما تقوله في جعبتك
ولكن شيء ما يوقفك، يزمّم فمك، يصيبك بالتمتمة
والتأتأة، فسابقا تلعثمت امام ساقية الحانة ما جعلك
عرضة لضحك روادها، هكذا فضّلت الصمت مقتنعا أن
إنجازاتك سوف تتحدث بذلك، ولعلّه دافعك الأول لخرق
أمر والدك ونظام موطنك.

أحاط بذراعيه عنقك باسمًا:

- أصغر عضو في طاقمي.. أحب جرأتك، من هم اشجع
منك وأقوى انصاعوا لأوامر الموحد بعدم غزو القارة..
لحسن حظك لم تكن معنا في غزوتنا الأولى.. أما الآن
أعددت خطة أنضج.. نعم الزمان خير معلم.. تغيّر
نهجنا.. ولن يتغيّر هدفنا الذي جاء أول غازي من
أجله.

تعلم الهدف أكثر من علمك عن كونك داخل
سفينة تغوص في أعماق البحار، كما تعلم أن لها عجلة
هائلة بقضيبان خشبيان يرفعهما أضخم رجان
شاهدتها عيناك، فبينما يخفض الأول القضيب يكون
الآخر يرفعه لتدور العجلة محرّكة جسم السفينة
ويقودها من داخل غرفة قيادة صغيرة قزم يلعب
بمقبض عمودي أطول منه فيختار اتجاه السفينة كيفما
شاء.

وتعلم أن ما يجعلها تغوص هي كمية الأحجار العملاقة المرفوعة بحمالة الحجر كالتى تستعمل في المنجنيق غير ان هذه تحتوي على أربعة شفرات متصلة ببعضها البعض مخترقة الحجر، ولكل حجرة حمالتها الخاصة، وبعدها يتم فتح اللوح اسفل الحجر تسقط الأخيرة وتبعد السفينة.

يسقطونها تباعا من المقدمة إلى المؤخرة حتى تخرج الأولى فوق سطح الماء بشكل لائق فخم ثم تصعد المؤخرة رافعة المقدمة عن السطح قبلما تستقيم السفينة كاملا بخبضة مقدمتها مع الماء، ومن في الداخل يعيشون هذه اللحظة الممتعة إلا المبتدئين في رحلات البحار مثلك سابقا.

كل ما تعلمه عن الصعود قد طبقوه في حين تقف مع الجنود الذي اصطبغت شعورهم بالزرق لون صديقهم، وجوههم بغیضة منفرة مكفهرة، على غرارهم تتسلح بعنقك وسيفك تفضل إمساكه بيد واحدة.

فتح الباب أمام عينك تنسى ان حاجباك يتغضنان فور اقتراب القتال، ولم تنسى عدم وجود أي معركة بل ستخرجون إلى سطح السفينة بعد خلوها من الماء، تدفق الهواء يلج جوفك ويمد رئتيك بالحياة، قد كنت تختنق خلال غوصكم، لاحظت مدى تغير شخصيتك وقوة جسمك، غدوت معتادا على القسوة وصبرك غير نافذ..

.. تقف خلف الرّبان في مقدمة السفينة تنفست الصعداء منتظرا قدومهم، خاطبك دون ادنى التفاتة:

- ستحبهم ما إن يظهروا.. سرعتهم جنونية.. وضربتهم قاسمة.

{ رواية بدأت أول حروفها في عام 2018 عندما كنت في سنّ 16 سنة والآن بلغنا 19 عام بفضل الله، وبفضله أيضا كُتب لها البزوغ وأدعوه أن يكتب لها النجاح الذي أعني به محبة الناس للمحتوى والافتخار بالأعمال العربية الناشئة كوني مبتدئ وهاته أول رواياتي.. أعترف أنني أستلهم نوعا ما من كاتبين الأول في عالم الشاشة الصغير جورج آر مارتن الشهير بملحمته "أغنية الجليد والنار"، أما الثاني في عالم الأنمي إسياما مؤلف مانجا "هجوم العمالقة".. وكما أبتغي خلق مكان لي بينهما لا مجرد التقليد الأعمى وهو أمر غائب في روايتي تماما..

.. ماذا عساي أقول سوى أنكم مرحب بكم في عالمي المتواضع وكذا صدري مفتوح لانتقاداتكم وتعاليقكم التي أتمنى أن تكون صادقة لا مبالغ فيها أو متملّقة، بل ببناءة ومفيدة فهذا دوركم يا أيها القارئ العزيز والقارئة العزيزة 😊.. في انتظار الأجزاء القادمة سواء الأصلية أو المشتقة عن هذا العلم الواسع المليء بالملاحم، والأهم أن تنتظر بفارغ الصبر ملحمتك أنت وأنت.. نعم تاريخك يكتب على حروف من... أنت من ستحددها..

.....والحمد لله الحمد لله والشكر له {.

...انتهت الحمد لله..